الصندوق العربي للثقافة والفنون
The Arab Fund for Arts and Culture

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

ثقافة الترفيه
والمدينة العربية في الأزمنة الحديثة
دمشق العثمانية

د. مهنّد مبيضين



ثقافة الترفيه

والمدينة العربية في الأزمنة الحديثة

دمشق العثمانية



ثقافة الترفيه

والمدينة العربية في الأزمنة الحديثة

دمشق العثمانية

د. مهنّد مبيضين







الطبعة الأولى

1430 هـ - 2009 م

ردمك 978-9953-87-571-2



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص. ب: 13-5574 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http: //www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (9611+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

المحتويات

إلى دمشق

في عيون

رفيقتي إيمان

التقديم

في أواسط آذار 2009 جرى في كلية الآداب بجامعة فيلادلفيا الأردنية حفل تكريم للمؤرخ الفرنسي المعروف جان بول باسكوال، الذي ارتبط بدمشق وأهلها حوالي أربعة عقود واشتغل على تاريخها العمراني والاجتماعي وترك لنا دراسات قيمة في هذا المجال.

وقد شارك في هذا التكريم آنذاك أ. د. محمد عدنان البخيت، الذي تشرفت معه بالعمل في جامعة آل البيت 1994 - 2001م، باعتباره رئيس "لجنة تاريخ بلاد الشام" في الجامعة الأردنية، الذي ارتبط اسمه بتاريخ دمشق منذ رسالته للدكتوراه "لواء دمشق في القرن السادس عشر" التي صدرت بالانجليزية عام 1982م.

وبهذه المناسبة قال رئيس الجلسة أ. د سالم ساري في تقديمه لمهند المبيضين حين جاء دوره لإلقاء ورقته وهو يخاطب د. عدنان البخيت: "يكفي د. لبخيت انه خلّف لنا في الجامعة مهند المبيضين".

وفي الواقع أن هذه العبارة تصلح كمدخل للحديث عن د. المبيضين وما اشتغل به حتى الآن وصولا إلى هذا الكتاب الذي يتابع فيه إسهامات د. البخيت ود. باسكوال ود. عبد الكريم رافق وكاتب هذه السطور وغيرهم. لقد كان المبيضين طالباً لدينا في برنامج الماجستير في جامعة آل البيت، وأشهد أنه كان منذ ذلك الحين شعلة متقدة من التفكير والبحث والتميز في طرح الأسئلة والجواب عليها في المحاضرات والندوات.

كانت تلك الحالة جزءا من حالة عامة أرادها البخيت للجامعة الجديدة التي رعاها بكليته منذ تأسيسها في 1994م، حيث لم يبخل مثلاً في استقطاب علماء وخبراء من الخارج لمناقشة رسائل الماجستير الأولى التي فرحنا بها كثيرا لكونها حصيلة الجهد المشترك للطلاب والأساتذة. وهكذا فقد جاء د. عبد الكريم رافق من "جامعة وليم وماري" في الولايات المتحدة ليشارك في مناقشة رسالة الماجستير

لمهند المبيضين "أهل القلم في دمشق ودورهم في الحياة الثقافية خلال الفترة 1708 - 1758م" التي أجيزت بامتياز.

وخلال زيارته تلك قال لي د. رافق انه لا يصدق المستوى الذي وصل إليه الأردن، بعد أن ساهم في تأسيس قسم التاريخ في الجامعة الأردنية عام 1962م. وبين هذه الأسماء المذكورة التي لها إسهاماتها المعروفة في تاريخ دمشق, يمكن تفحص وتقدير عمل مهند المبيضين.

أخذ المبيضين عن أستاذه البخيت منهجه العلمي الصارم في الضبط والتدقيق والتوثيق، حتى انه كان يعيد كتابة فصول بكاملها لأقل ملاحظة. ومن ناحية أخرى فقد أخذ المبيضين من مدرسة البخيت العمل على التاريخ المحلي لبلاد الشام وعلى مصادر التاريخ المحلي من سجلات المحاكم الشرعية وكتب التراجم وكتب الفتاوى ومجاميع الخطب.. الخ، للتركيز على التاريخ الثقافي لدمشق.

وقد تابع معي المبيضين ما بدأته من البحث عن تاريخ القهوة والمقاهي في بلاد الشام، بالاستناد إلى المصادر المحلية وكتب الوقف، ولكنه ركز على دمشق بالذات ليضيف بذلك بعدا جديدا في عمله عن التاريخ الثقافي لدمشق خلال الحكم العثماني. وبالإضافة إلى ذلك فقد استفاد المبيضين، كما استفدنا جميعا، من التواصل العلمي مع المعهد الفرنسي في دمشق الذي نشر له رسالة الماجستير عام 2005م، تقديراً من المعهد لما في الرسالة من قيمة تضاف إلى ما أصدره المعهد من كتب عن تاريخ دمشق.

وبعد إكماله لرسالة الدكتوراه، ركز المبيضين في أبحاثه المنشورة على دمشق ومحيطها خلال الحكم العثماني، وبالتحديد على الجانب الثقافي والاقتصادي والاجتماعي وحول العلاقات بين المسلمين وغير المسلمين وعلى الأوقاف فيها، مثل "كتاب وقف سليمان باشا العظم" و"أوقاف غير المسلمين في دمشق في القرن الثامن عشر" و"ملامح من الحياة الاقتصادية والاجتماعية في الريف الدمشقي إبان القرن الثامن عشر من خلال المجامع الفقهية" و"مظاهر من الحياة الاقتصادية في دمشق خلال النصف الأول للقرن الثامن عشر" الخ.

وفي هذا الكتاب الجديد، الذي يأتي بعد كتابه "فكرة التاريخ عند العرب في العصر العثماني" (عمان، 2006م)، ينتقل المبيضين في أبحاثه عن مدينة دمشق

إلى مقاربـــة جديدة للتاريخ الاجتماعي من خلال "ثقافة الترفيه" خلال الحكم العثماني.

صحيح أن هذا الحكم على هذا العصر غير متفق عليه بين من يصفه بـالجمود ومـــن يصفه بالانفتاح، ولكن هذا الكتاب الجديد يجعلنا نتعرف على مجتمع دمشق كمـــا كـــان عليه في الواقع من خلال الثقافة الشعبية التي تشمل الموسيقى والغناء والأعـــراس والعراضـــات والمتنـــزهات والحمامات، وما كان يدور فيها والمقاهي كمراكز جديدة للتسلية مع الألعاب والحكواتي وخيال الظل.. الخ.

وفي هـــذا السياق الثقافي والاجتماعي المثير تنكسر بعض المحرمات أيضا، كما في كل مجتمع، حيث يستعرض المبيضين عبر بحثه لـــ "اللهو الحرام"، تعاطي الخمرة والدعارة وحب الغلمان في دمشق كما في غيرها من المدن العثمانية.

مـــع هـــذا الكتاب الجديد يثبت المبيضين انه تلميذ مبدع لكل من سبقوه في الكـــتابة عن دمشق العثمانية، حيث استفاد منهم وشق طريقه الخاص الذي يضيف فـــيه جديـــدا إلى ما نعرفه ويفتح المجال بدوره أمام جيل جديد من الباحثين الذين سيفيدون منه، وتلك هي سُنّة الحياة.

محمد م. الأرناؤوط

عمان: 27 آذار 2009م

المقدمة

عُنيت الثقافة العربية بأوجه الترفيه والتسلية، إذ وُضعت المؤلفات في طبقات المغنيين وأخبار الجواري والموسيقى وأدواتها. ويُعدُّ المفضل بن سلمة (ت: 250هـ/864م) في كتابه الموسوم بـ"رسالة في العود والملاهي وأسمائها" من بواكير الجهود في التأليف، كما أفرد أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت: 255هـ/868م) رسالة لـ"القيان" وأخرى في طبقات المغنيين، أما المسعودي (ت: 346هـ/967م) فجاء حديثه مقتضبا في ذكر الرقص والغناء وأنواعه في مروج الذهب.

وبلغت العناية بالترفيه والطرب والغناء وأخبار الجواري أوجها مع أبي الفرج الأصفهاني (ت: 356هـ/966م) في كتابه "الأغاني"، وفي القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي تحدَّث أبو الحسن محمد بن الحسني الطحان عن التلحين والغناء وأوائل المغنيات من النساء في الجاهلية، وفي القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي كتب محمد بن إبراهيم الأكفاني (ت: 749هـ/1348م) رسالة "النظر والتحقيق في تقليب الرقيق"، أما ابن خلدون(ت: 808هـ/1405م) فتحدث عن الرقص وضروب الترفيه وصناعة الغناء التي يعدها "آخر ما يحصل في العمران"، وفي الدراسات الحديثة تعد دراسة عبد السلام محمد هارون عن الميسر والأزلام ودراسة ناصر الدين الأسد عن القيان والغناء في العصر الجاهلي من أفضل الجهود في دراسة موضوعات اللهو والترفيه.

تأسيسا على هذا التراث العربي، يمكن القول إنّ الثقافة العربية أفردت للترفيه نصيبا مقبولاً في تراثها، هذا إلى جانب ما تقدمه المصادر غير المباشرة مثل كتب التراجم والحوليات واليوميات، إلى جانب مصادر الفقه على مختلف مذاهبه في مختلف العصور التاريخية التي مرت بها المدن والحواضر العربية، وهنا يمكن القول إنّ المدن الكبرى المتواصلة تاريخيا وثقافيـًا مع غيرها من المدن مثل: مكة ودمشق

وبغداد والقاهرة والموصل وتونس وفاس تمثل المجال الحيوي الذي عبرت عنه ثقافة الترفيه بمختلف صورها.

ومن بين الحواضر الدهريّة تبرز دمشق العثمانية (1516 - 1918) بحيويتها وتنوعها واتصالها مع غيرها من الحواضر والمراكز الثقافية، إذ تكشف جملة من المصادر التاريخية الدمشقية في العصر العثماني عن اهتمام واضح بمختلف أشكال الفنون، وتمدنا المصادر المحلية بمعلومات عن التقاليد الدمشقية ووسائل التسلية والفنون الشعبية التي مورست فيها، وتقدّم المصادر الفقهية والمذكرات اليومية والتراجم والسجلات والمناظرات الدمشقية إشارات عن حيوية المجتمع الدمشقي، وتنوع الفنون الشائعة التي تُميز مجتمع المدينة العربية في العصر العثماني، في صورة مختلفة عن تلك التي وسمت بها.

وتسعى هذه الدراسة للكشف عن جوانب الترفيه في مجتمع مدينة دمشق إبّان العصر العثماني، وذلك بالاعتماد على مصادر تاريخية متنوعة، وتبدأ بإلقاء الضوء حول الجدل الفقهي والموقف الديني من الفنون وبخاصة الموسيقى والرقص، وتراجم المغنين. وتمضي إلى البحث عن أثر الفنون في عادات أهل دمشق من حيث مظاهر الفرح والفن والأعراس والعرّاضات وما ارتبط بالطهور من أفراح سواء عند الأغنياء أو الفقراء أو الزعران، وبالإضافة إلى ذلك تقدم الدراسة عرضا للمناسبات التي تزين بها المدينة.

وتبحث الدراسة في أنواع التسلية واللهو، ومنها التنزه والسيران وارتياد الحدائق واللهو الحرام، والذي نجد فيه أخباراً عن بنات الهوى وشرب الخمر وحب الغلمان، ويتصل بهذا البحث في الليل الدمشقي من حيث هو ليل للغانيات ومستودع لأسرار العشاق وسهر الأعيان وسمر الأولياء.

وتحاول الدراسة البحث في القهوة والمقهى، فتعرض للجدل الفقهي الذي رافق دخولها مدينة دمشق مطلع العهد العثماني، وترصد إشهارها وبنائها وبنيتها، مع محاولة تفسير النظرة الأخلاقية للمقاهي وفنونها وثقافاتها ووجوه التسلية فيها.

وتشكل الحمامات التي انتشرت في أحياء دمشق وحاراتها المختلفة فضاء مميزاً للترفيه والتسلية، وهو ما جعلها محل عناية المؤرخين والرحالة والفقهاء، فجاء البحث عنها من حيث بُنيتها وأقسامها، وحضورها في النصوص التراثية، إلى جانب

كونها وسيلة للترفيه الذي تميز بوصفه عالماً ذكورياً تجد فيه الدمشقيات وقتاً خاصاً لهن، وهو ما سمح مع مرور الوقت بتراكم سرديات خاصة بالحمامات.

وتعد الحارات الدمشقية مساحة اللهو والترفيه الأولى، فيها تبدو مظاهر الزينة، وعبر أزقتها تسير مواكب الفرح، وفي مجالس قضاة الشرع تتجلى صور الاحتجاج على فساد الأخلاق، ورغم توحد الحارات في الظروف السياسية والاقتصادية، إلا أنها افترقت في حكاياتها وموروثها الشفهي، وكذلك في مرافقها الخاصة بالترفيه، والذي لا تكتمل دراسته دون الكشف عن حرفه وعن العاملين فيه وعن النظرة الثقافية للمرافق والحرف.

إن مثل هذه الدراسة برغم اقترابها من كونها جزءا من بحوث التاريخ الثقافي والاجتماعي إلا أنها لا يمكن أن تكتسب صفتها النهائية دون أن يكون هناك ما يعضدها من الصور والخرائط واللوحات والمقابلات الشفهية كلما أمكن الاعتماد عليها، وقد حاول الباحث بالتعاون مع أصدقاء ومهتمين أن يوفر ذلك للقارئ.

جاءت فكرة هذا الكتاب بعدما نشر الباحث دراسة متخصصة عن ثقافة التسلية في مدينة دمشق خلال القرن الثامن عشر نشرها في العدد الأول من المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، وتوفرت بعد ذلك مصادر جديدة، ولكن دراسة أربعة قرون وأكثر من الحكم العثماني لدمشق (1516 – 1918) تحتاج لتفرغ وجهد وتكاليف لم يكن من الممكن توفيرها لولا منحة الصندوق العربي للثقافة والفنون، فالباحث مدين له بكل كوادره: من مجلس أمنائه وموظفيه وعامليه في مقره الإقليمي بعمان، وأخص بالشكر المدير التنفيذي السيدة فيروز التميمي وزملائها السيدة عبير الخطيب والسيد فراس القدسي، واشكر كل من قدم عونا ورأيا ومشورة للباحث على إنجاز مهمته، وعلى رأسهم رئيس لجنة تاريخ بلاد الشام الأستاذ الدكتور محمد عدنان البخيت والأستاذ الدكتور أكمل الدين إحسان أوغلوا الأمين العام لمنظمة المؤتمر الإسلامي ومدير عام مؤسسة عبد الحميد شومان الأستاذ ثابت الطاهر ومدير مكتبة الأسد الدكتور علي العايدي، وعميد كلية الآداب والفنون في جامعة فيلادلفيا الأستاذ الدكتور محمد عصفور.

والشكر ايضا إلى الدكتورة سراب الأتاسي والأستاذ الدكتور جان پول باسكوال والصديق جمال باروت والسيد عصام حجار والسيدة لينا خانمه ولما

سمعان من المعهد الفرنسي للشرق الأدنى في عمان ودمشق وحلب على حفاوتهم وتسهيلاتهم للباحث في دمشق وحلب أثناء إعداد الدراسة، والأصدقاء في كلية الآداب والفنون في جامعة فيلادلفيا الأستاذ الدكتور سالم ساري والدكتور يوسف ربابعة، والدكتور هيثم سرحان، والزميل علاء الدين أبو زينه رئيس قسم الترجمة في جريدة الغد، ومدير مركز دراسات العالم الإسلامي في جامعة آل البيت الأستاذ الدكتور محمد الأرناؤوط، والفنانين إبراهيم العلي وفادي الداود واحمد سويدان وسوزان السباح، على كل ما قدموه من مشورة وإبداع ورأي كان له الأثر في تصويب خطأ أو إثراء بمعرفة أو استدراك على نقص.

الفصل الأول

جدل الموسيقى والرقص
وأهل الغنا

I

الجدل حول الموسيقى

عـــرفت دمـــشق الموســـيقى ومقامات الغناء منذ العصر الأموي[1]، وارتبط الحديث عن الموسيقى[2] واللهو[3] في التراث العربـــي بالغناء، وألف العلماء لعرب في ذلـــك منذ القرن الثالث الهجري/التاسع والعاشر الميلاديين[4]، ونظر علماء بلاد الشام في أمر الموسيقى وسماع آلاتها في وقت مبكر، فهذا محمد بن طاهر ابن القيسراني

---

(1) في العصر الأموي دونت أول المعلومات عن الموسيقى العربية، وكان هناك أنواع من الغناء ومـــنها الحداء وغناء الركبان والغناء المتقن والنواح والغناء الحربي وغناء الولائد الخاصة، انظـــر عن انواع الغناء: ناصر الدين الأسد، القيان والغناء في العصر الجاهلي، القاهرة دار المعارف، 1968، ص 142-159، وعرف مطربو العصر الأموي في دمشق ستة إيقاعات، وأول مـــن قام بالتدوين الموسيقي ابن الكلبي وتبعه المغني يونس الكاتب الذي جمع معلومات عـــن تـــاريخ الموسيقى وسير المطربين والعازفين في الحجاز في كتاب النغم وكتاب القيان. وجدان العلي، سلسلة التعريف بالفن الإسلامي، الأمويون العباسيون الأندلسيون، دار البشير، 1988. ص 74. وحـــول الغناء والحياة الاجتماعية وموسيقى القصور انظر: ظافر لقاسمي، الحياة الاجتماعية عند العرب، دار النفائس، ط، 2، دمشق، 1981، ص 65-82.

(2) يُعـــرف الخوارزمـــي الموســـيقى بأنها "تأليف الألحان وهي لفظة يونانية... ومؤلف الألحان يسمى الموسيقور والموسيقار". الخوارزمي، أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت: 387هـ/997م) مفاتيح العلوم، تحقـــيق نهـــى النجار، 1993 بيروت، دار الفكر، ط1، ص 241. ويرى ابن سينا الموسيقى بأنها علم رياضـــي "يـــبحث في أحوال النغم من حيث تتألف وتتنافر وأحوال الأزمنة المتخللة بينها، ليعلم كيف يؤلـــف اللحـــن" انظـــر الشرمان، علي، ثقافة الترفيه وأثرها في الموسيقى والغناء العربي، مجلة دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد 33، العدد، 3، 2006، الجامعة الأردنية. ص 458.

(3) وفي لسان العرب اللهو ما لهوت به ولعبت به وشغلك من هوى وطرب ونحوهما، والملاهي آلات اللهـــو. وفـــيه القصب كل نبات ذي أنابيب، والقاصب الزامر، والقصاب الزمار. وفي المـــصباح المنيـــر وأصـــل اللهو الترويح عن النفس بما لا تقتضيه الحكمة، وألهاني الشيء شـــغلني". ابـــن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم بن علي (ت: 711هـ/1311م). لسان العرب المحيط، 15ج، د. ط، دار صادر، بيروت. مادة لهو.

(4) ابـــن سلمة، أبي طالب لمفضل النحوي اللغوي (ت: 290هـ/902م) كتاب الملاهي وأسمائها مـــن قبل الموسيقى، تحقيق وشرح غطاس عبد الملك خشبة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1995، القاهرة، ص 7-9.

(ت: 507هـ/1113م) ينقل عن الإمام الشافعي فيقول: "الأصل قرآن وسنة، فإن لم يكن فقياس عليهما، وإذا اتصل الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصح الإسناد فيه فهو سنة والإجماع أكبر من خبر المنفرد والحديث على ظاهره.."[1].

ولا يفرق ابن القيسراني بين استماع القضيب والأوتار، فيقول: "ويقال له التغيير، ويقال له الطقطقة أيضا، فلا فرق بينه وبين الأوتار إذ لم نجد في إباحته وتحريمه أثراً لا صحيحاً ولا سقيماً، وإنما استباح المتقدمون استماعه؛ لأنه لم يرد الشرع بتحريمه فكان أصله الإباحة[2].

وأما الأوتار فالقول فيها كالقول في القضيب، لم يرد الشرع بتحريمها ولا بتحليلها، وكل ما أوردوه في التحريم فغير ثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد صار هذا مذهباً لأهل المدينة، لا خلاف بينهم في إباحة استماعه، وكذلك أهل الظاهر بينوا الأمر فيه على مسألة الحظر والإباحة"[3].

ولا يحرم ابن القيسراني المزامير والملاهي فهو يقول: "فقد وردت الأحاديث الصحيحة بجواز استماعها، كما يدل على الإباحة قول الله عز وجل ﴿وَإِذَا رَأَوْا

---

(1) ابن القيسراني، محمد بن طاهر المقدسي (ت: 507هـ/1113م)، كتاب السماع، تحقيق أبو الوفاء المراغي، 1970 المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ص 31، 63 ص 71، 73.

(2) يبين ابن حجر الهيتمي أن ضرب القضيب على الوسائد وجهان هما الإكراه والتحريم، وينقل عن كتاب الحاوي أن الملاهي إما حرام كعود وطنبور ومعزوفة وطبل ومزمار، وما إلهي بصوت مطرب إذا انفرد، أو مباح وهو ما خرج عن آلة الطرب إلى إنذار كالبوق وطبل الحرب أو لمجمعة أو إعلان كالدف في النكاح، والطنبور بضم أوله غير العود. كما يبين ابن حجر أن فقهاء العراق حرموا المزامير كلها من غير تفصيل، والمزامير تشمل الصرناي وهي قصبة ضيقة الرأس متسعة الآخر يُزمر بها في الموكب والحرب وعلى النقارات، ويشمل الكرجة وهي مثل الصرناوي إلا أنه يجعل في أسفل القصبة قطعة نحاس معوجة يُزمر بها في أعراس البوادي وغيرها ويشمل الناي وهو أطرب الأولين والمقرونة وهي قصبتان ملتقيتان، وحرمة الشبابة باعتبارها أشد إطرابا. وقال بعض أهل الصنعة هي آلة كاملة وافية بجميع النغمات وقيل هي من أعلى المزامير...". وانظر "الكبيرة السادسة والسابعة والثامنة والتاسعة والأربعون والخمسون والحادية والخمسون بعد الأربعمائة: ضرب وتر واستماعه وزمر بمزمار وضرب بكوبة واستماعه" الهيتمي، أبي عباس أحمد بن محمد بن علي بن حجر (ت: 974هـ/1566م) الزواجر عن اقتراف الكبائر، ويليه كف الرعاع عن محرمات اللهو والسماع والعلم بقواطع الإسلام، دار المعرفة، ط1، 1988، بيروت، ج2، ص 201، ص 202، ص 206، 207.

(3) ابن القيسراني، كتاب السماع، ص 63.

تجَــارَةً أَوْ لَهْــواً انفَضُّو إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائماً قُلْ مَا عندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ الـــتِّجَارَةِ وَاللَّـــهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾[1]، وبيان هذا من الأثر ما أخرجه مسلم في باب الجمعة عن جابر بن سمرة "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخطب قائما ثم يجلـــس ثم يقوم فيخطب قائما، فمن نبأك أنه كان يخطب جالسا فقد كذب، فقد والله صـــليت معـــه أكثر من ألفي صلاة" وعن جابر بن عبد الله "أنه كان يخطب قائما يوم الجمعة فجاءت عير من الشام، فأنفتل الناس إلهيا حتى لم يبق إلا اثنا عشر رجلا فأنـــزلت هذه الآية" وأخرج الطبري هذا الحديث عن جابر وفيه "أنهم كانوا إذا نكحـــوا تـــضرب لهم الجواري بالمزامير فيشتد الناس إليهم ويدعون رسول الله صلى الله عليه وسلم قائما" فهذا عتاب الله عز وجل بهذه الآية[2].

ويـــضيف ابـــن القيسراني: "والله عز وجل عطف اللهو على التجارة وحكم المعطـــوف حكم المعطوف عليه، وبالإجماع تحليل التجارة، فثبت أن هذا احكم مما أقره الشرع على ما كان عليه في الجاهلية، لأنه غير محتمل أن يكون النبـــي صلى الله علـــيه وســـلم حرمه ثم يمر به على باب المسجد يوم الجمعة، ثم يعاتب الله عز وجـــل من ترك رسوله صلى الله عليه وسلم قائما، وخرج ينظر إليه ويستمع و لم ينـــــزل في تحـــريمه آية، ولا سن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه سنة، فعلمنا بـــذلك بقـــاءه على حاله، ويزيد ذلك بيانا ووضوحا ما روي عن السيدة عائشة رضي الله عنها "أنها زفت امرأة من الأنصار إلى رجل من الأنصار" فقال رسول الله صـــلى الله عليه وسلم: "أما كان معكن من لهو فإن الأنصار يعجبهم اللهو" وعقد الغزالي في كتاب إحياء علوم الدين الكتاب الثامن في السماع، وفي خصوص آلات الموسيقى قال: "إن الآلة إذا كانت من شعار أهل الشرب أو المخنثين وهي المزامير والأوتـــار وطـــبل الكوبة فهذه ثلاثة أنواع ممنوعة، وما عدا ذلك يبقى على أصل الإباحـــة كالـــدف وإن كان فيه الجلاجل وكالطبل والشاهين والضرب بالقضيب وسائر الآلات"[3].

---

(1) سورة الجمعة، الآية 11.

(2) ابن القيسراني، كتاب السماع، ص 71.

(3) ابن القيسراني، كتاب السماع، ص 73، الغزالي أبو حامد (ت: 505هـ/1111م) إحياء علوم الدين، لجنة نشر الثقافة الإسلامية 1356هـ، ج – 6 ص 1150.

ويورد أحمد بن محمد الطوسي الغزالي (ت: 520هـ/1126م) عدة مواقف يثبت من خلالها أن الرسول صلى الله عله وسلم أقر زوجته عائشة على سماع الغناء ومن ذلك الحديث الذي يرويه البخاري ومسلم باسنادهما عن عائشة رضي الله عنها "إن أبا بكر دخل عندها وعندها جاريتان في أيام منى عند النبي عليه الصلاة والسلام تدفان وتضربان" وفي رواية تغنيان.. بما تقاولت به الأنصار يوم بُعاث، والنبي عليه السلام يتغشى بثوبه، فانتهرهما أبو بكر رضي الله عنه، فكش النبي عن وجهه وقال عليه السلام: دعهما يا أبا بكر فإنها أيام عيد"[1].

ويشير سؤال فقهي وجه إلى ابن قدامة الدمشقي المقدسي (ت: 620هـ/1223م) إلى ذلك الجدل بشكل واضح، إذ جاء في سؤال وجه إليه: "ما تقول السادة الفقهاء أحسن الله توفيقهم في من يستمع إلى الدف والشبابة والغناء، هل يحل ذلك أم لا؟ مع اعتقاده أنه يحب الله..."[2] وجاء الرد على السؤال متشدداً، إذ اعتبر ابن قدامة أن الفاعل في ذلك' ساقط المروءة، وأن الدائم على ذلك مردود الشهادة في الشرع غير مقبول القول، ولا تقبل روايته ولا شهادته برؤية هلال رمضان ولا أخباره الدينية"[3]. ومع أن الجواب يفرق بين الفاعل لمرة واحدة وديمومة الفعل، إلا أن ابن قادمة اعتبر كل الموسيقى معصية ولعباً[4].

ونقل أبو عبدالله محمد بن احمد القرطبى (ت: 671هـ/1272هـ) قول القشيرى: "ضُرب بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم يوم دخل المدينة، فهم أبو بكر بالزجر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "دعهن يا أبا بكر حتى تعلم اليهود أن ديننا فسيح" فكن يضربن ويقلن نحن بنات النجار حبذا محمد من جار. ثم قال القرطبى وقد قيل إن الطبل في النكاح كالدف وكذلك الآلات المشهرة

---

(1) الغزالي، أحمد بن محمد الطوسي (ت: 520هـ/1126م) بوارق الإلماع في تكفير من يحرم السماع، تحقيق هشام عبد لعزيز، ط1، دار الخيال، القاهرة لندن، 2000، ص 51.

(2) ابن قدامة، أبي محمد عبدالله بن أحمد المقدسي الدمشقي الصالحي (ت: 620هـ/1223م)، فتيا في ذم الشبابة والرقص والسماع، تحقيق أبي عبد الرحمن محمد بن عمر الظاهري، تقديم واعتناء سهير مختار، مطبعة الجبلاوي، القاهرة، 1976. ص 28-29.

(3) ابن قدامة، فتيا، ص 30.

(4) ابن قدامة، فتيا، ص 30-31.

للنكاح، يجوز استعمالها فيه بما يحسن من الكلام و لم يكن رفثاً"[1].

وتستمر في العصر العثماني 922 - 1337هـ/1516 - 1918م الأسئلة عن حكم الموسيقى والغناء[2]، مما يظهر حركية المجتمع العربي في دمشق وغيرها من الحواضر العربية، وتعبر الأجوبة الصادرة عن الفقهاء عن ارتفاع صوت التحريم في مقابل الميل نحو الإباحة، ومنها السؤال الذي وجه إلى مفتي دمشق الشيخ إسماعيل الحائك (ت: 1113هـ/1701م)، عن حكم سماع الموسيقى والآلات، إذ "كانت لا تخرج الإنسان عن طاعة الله ولا تقوده إلى فعل معصية"[3]، وألف إسماعيل بن عبد الباقي اليازجي الدمشقي (ت: 1121هـ/1709م) رسالة "الإمتاع في تحريم الملاهي والسماع"[4].

ولا يبدو الشيخ عبد الغني النابلسي متشدداً في حكمه على الدف والشبابة والسماع، فقد أجازها و لم يحرمها، لكونها تقرب الإنسان من الله وحبه، إذ يرى أنها لا تكون "إلا حباً في الله... وهي سبب لاجتلاب السرور"[5].

ثم ألف الشيخ النبلسي رسالة بعنوان: "إيضاح الدلالات في سماع الآلات" بين فيها أن السماع ينقسم إلى ثلاثة أقسام: منه ما هو حرام محض. وهو لأكثر الناس من الشباب ومن غلبت عليهم لذاتهم وشهواتهم وملكهم حب الدنيا. ومنها

---

(1) القرطبي، أبو عبد الله محمد بن احمد (ت: 671هـ/1272هـ) الجامع الأحكام القرآن، تحقيق هشام الخياط، دار عالم الكتب، 2003، الرياض، ج-14 ص 54.

(2) يُعرف ابن خلدون صناحة الغناء بأنها: "تلحين الأشعار الموزونة بتقطيع الأصوات على نسب منتظمة معروفة، يوقع على كل صوت منها توقيعاً عند قطعه فيكونُ نَغمَةً. ثم تؤلَّفُ تلك النغمُ بعضها إلى بعض على نسب متعارفة فيلذُ سماعها لأجل ذلك التناسب" ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (ت: 808هـ/1405م) المقدمة، 1993، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، ص 335

(3) الحائك، إسماعيل بن رجب (ت: 1113هـ/1701م) كناش في الفقه والفرائض، وفيه أسئلة وفتاوى لمختلف علماء دمشق، مخطوط، رقم 5677، مكتبة الأسد، (الظاهرية)، دمشق، ق11ب.

(4) البغدادي البابابي، إسماعيل باشا بن أمين بن مير سليم. إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، د. ط، طبعة مصورة دار إحياء التراث العربي، بيروت. ج3، ص 126.

(5) النابلسي، عبد الغني بن إسماعيل (ت: 1143هـ/1730م)، مجموع فتاوى، مخطوط رقم 2684، مكتبة الأسد، (الظاهرية)، دمشق، ق23أ.

ما هو مباح. وهو لمن لا حظّ له منه إلا التلذذ بالصوت الحسن واستدعاء السرور والفرح، أو يذكر به غائباً وميتاً فيستثير به حزنه ويستريح بما يسمعه[1].

ومنها ما هو مندوب. وهو لمن غلب حب عليه الله تعالى والشوق إليه، فلا يحرك السماع منه إلا الصفات المحمودة، وتضاعف الشوق إلى الله تعالى واستدعاء الأحوال الشريفة والمقامات العلية والكرامات السنية، وهذا القسم هو سماع الصوفية أهل الصدق والإخلاص في كل زمان[2].

ويقرر النابلسي أن الأحاديث التي استند بها القائلون بالتحريم على فرض صحتها مقيدة بذكر الملاهي وبذكر الخمر والقينات والفسوق والفجور، ولا يكاد حديث يخلو من ذلك، وعليه كان الحكم عنده بحرمة سماع الأصوات والآلات المطربة مشروطاً باقترانه بشيء من المحرمات أو اتخاذه وسيلة للمحرمات، وأنه إذا سلم من كل ذلك كان مباحاً في حضوره وسماعه وتعلمه.

يذكر النابلسي ما نُقل عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن بعض الصحابة والتابعين والأئمة والفقهاء أنهم كانوا يسمعون ويحضرون مجالس السماع البريئة من المجون المحرم، وذهب إلى مثل هذا كثير من الفقهاء وانتهت الفتوى إلى أن "سماع الآلات ذات النغمات أو الأصوات لا يمكن أن يحرم باعتباره صوت آلة، وإنما يحرم إذا استعين به على محرم أو اتخذ وسيلة إلى محرم أو ألهى عن واجب".[3]

واقتفى تلميذ النابلسي الشيخ حسين بن طعمه البيتماني أثر أستاذه في الموقف من الموسيقى، فكتب "رسالة في السماع"، وضح فيها الموقف من السماع، وروى بعض مشاهد نوبات السماع في منازل العلماء، إذ وصف نوبة سماع في منزل الشيخ محمد المرادي[4]، وكانت في حضرة الشيخ عبد الغني النابلسي "ضرب فيها

---

(1) النابلسي، عبد الغني بن إسماعيل (ت: 1143هـ/1730م)، إيضاح الدلالات في سماع الآلات، مخطوط رقم 3452، مكتبة الأسد، (الظاهرية)، دمشق، ق3ب.

(2) النابلسي، إيضاح، ق4أ.

(3) النابلسي، إيضاح، ق4ب.

(4) محمد بن مراد المرادي، ولد في القسطنطينية وتعلم في مدارسها، وأتقن اللغات، ثم استقر في دمشق وأخذ عن علمائها ومنهم: الشيخ محمد الكاملي وعبد الغني النابلسي. حصل على ثروة ضخمة بطريق المالكانة، واشتغل في دمشق بالتدريس، وخدمة الفقراء، ورحل للقدس والخليل والموصل، توفي في دمشق سنة 1169هـ/1755م. انظر: المرادي، سلك، ج4، ص 115. وكان منزل الشيخ المشار إليه أعلاه في محلة سوق ساروجا.

بالسنطير والناي والكمنجه والعود والوتر والشبابة"[1]، وبين في رسالته "أن السماع بالآلات كالمطر ينزل على أرض النفوس فتهتز فتنبت ما فيها من الأسرار الإلهية والتقادير العلمية الكامنة في خزائن النفوس، فإن كان طيباً نبتت طيباً، وإن كان خبيثاً نبتت خبيثاً"[2].

ومع أن الفقهاء حاولوا إسناد فُتياهم بالاستناد إلى جملة من الأحاديث النبوية التي استقوها من مصادر تراثية مختلفة، إلا أن ذلك لا يعني أن تلك الفُتيا كانت ملزمة[3]، أو أنها حالت بين مجتمع مدينة دمشق وشيوع آلات السماع، والقبول بمظاهر الزينة والأفراح وشرب القهوة وارتياد المقاهي، وإقامة حلقات الذكر التي تشهد أنواعاً مختلفة من الفنون، ومنها ممارسة الرقص وضرب الدف، والتي نجدها في مصادر التاريخ والحوادث اليومية والفتاوى أو المذاكرات الفقهية كما سميت في مطلع القرنين العاشر والحادي عشر الهجري/السادس عشر والسابع عشر الميلادي[4].

---

(1) البيتماني، حسين بن طعمة (ت: 1175هـ/1760م). كشف الالتباس في مسألة السماع، مخطوط رقم 6609، الظاهرية، مكتبة الأسد، دمشق. ق. ق 98-100. وقد أشار يوسف نعيسه إلى المخطوط دون دقة، مقتبساً من الصفحة 198، علماً أن الرسالة ضمن المجموع تقع في ورقتين فقط. قارن بـ: نعيسة، يوسف جميل. مجتمع مدينة دمشق في الفترة ما بين 1186-1256هـ/1771-1840م، ط1، دار طلاس، 2ج، دمشق، 1986. ج2، ص 723.

(2) البيتماني، كشف، ق99أ.

(3) الفرق بين الفتوى والقضاء: حسب رأي الفقيه ابن عابدين الدمشقي (ت: 1525هـ/1836م) أنه: "لا فرق بين المفتي والحاكم، إلا أن المفتي مخبر بالحكم والقاضي مُلزم به. وعليه فإن الفتوى والقضاء يشتركان بالإخبار عن الحكم، ولكن القضاء يتميز بالإلزام، ومن الفرق أيضاً ما قاله الفقيه القرافي بأن: "العبادات كلها على الإطلاق لا يدخلها القضاء البتة، بل الفُتيا فقط، والقضاء حكم ملزم للخصوم أما الفتوى فهي غير ملزمة". انظر: ابن عابدين، محمد أمين عمر (ت: 1252هـ/1836م)، رد المحتار على الدر المختار شرح تنوير الأبصار، دار إحياء التراث العربي، بيروت، نسخة مصورة، 1990. ج1، ص 10، "مطلب رسم المفتي"، القرافي، شهاب الدين أحمد بن إدريس (ت: 684هـ/1285م) الفروق ومعه إدرار الشروق على أنواع الفروق. ضبطه خليل منصور، ط1، 1998، دار الكتب العلمية، بيروت. ج8، ص 48؛ حسين الملاح، الفتوى نشأتها وأصولها، المكتبة العصرية، بيروت، 1999م، ص 400.

(4) انظر: الخادمي، أبو عبدالله بن محمد بن علي (ت: 1176 هـ/1762م) مناظرة في دمشق الشام مع بعض علمائها، مخطوط، رقم 2345، مكتبة الأسد، دمشق ضمن مجموع. ق42.

ويـــنقل علماء دمشق عن المؤرخ والفقيه الشوكاني (ت: 1250هـــ/1834م). في بـــاب ما جاء في آلة اللهو أقوال المحرمين والمبيحين، إذ بين معنى الكوبة التي هي الطـــبل، وأشار إلى فريقين، إذ ذهب الجمهور إلى التحريم، وذهب أهل المدينة ومن معهـــم إلى التـــرخيص في "السماح بالعود واليراع" ثم بيّن أدلة كل من الفريقين، وعقـــب على حديث "كل لهو يلهو به المؤمن فهو باطل إلا ثلاثة: ملاعبة الرجل أهلـــه، وتأديـــبه فرسه، ورميه عن قوسه" بقول الغزالى: "قلنا قوله صلى الله عليه وسلم فهو باطل، لا يدل على التحريم، بل يدل على عدم الفائدة"[1].

ثم قال الشوكانى: "وهو جواب صحيح؛ لأن ما لا فائدة فيه من قسم المباح، وساق أدلة أخرى في هذا الصدد من بينها حديث: "من نذرت أن تضرب بالدف بـــين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم إن ردّه الله سالما من إحدى الغزوات، وقـــد أذن لها عليه صلوات الله وسلامه بالوفاء بالنذر والضرب بالدف، فالإذن منه يدل على أن ما فعلته ليس بمعصية في مثل ذلك الموطن، وأشار الشوكانى إلى رسالة له عنوانها "إبطال دعوى الإجماع على تحريم مطلق السماع"[2].

وفى مجمـــع الأنهر أن الطنبور من اللهو، والمراد بالطنبور "كل لهو يكون شنيعا بـــين الناس احترازاً عما لم يكن شنيعاً كضرب القضيب، فإنه لا يمنع قبولها، إلا أن يـــتفاحش بـــأن يرقـــصوا بـــه فيدخل في حد الكبائر"[3]، وجاء عند ابن عابدين (ت: 1252هـــــ/1836م): "الملاهي على ثلاثة: ضرب محرم، وهو ضرب الأوتار والـــنايات والمـــزامير كلها، والعود والطنبور والمعزفة والرباب ونحوها، فمن أدام استماعها ردت شهادته. وضرب مباح، وهو الدف فإن النبى صلى الله عليه وسلم

---

(1) الشوكاني، محمد بن علي (ت: 1250هـ/1834م). نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار في شرح منتقى الأخبار، ط1، د ت، دار الجيل، بيروت، ج 8 ص 104- 105.

(2) الـــشوكاني، نـــيل الأوطـــار، ج8، ص 106. ويمكن مقابلة الآراء حول السماع في المغرب والمـــشرق العربيين، من خلال الورثيلاني، حسين بن محمد(ت : 1193هـ/1779م) نزهة الأنظـــار في فضل علم التاريخ والأخبار، طبع في مطبعة بيير فونتانا الشرفية في الجزائر، 1908. ص 187-191و يميـــز الورثيلانـــي هـــنا بين السامعين بقوله: "السامعون شخصان شخص يسمع بنفسه وشخص يسمع بعقله..". النسخة المعتمدة هنا المطبوعة حجريا وهي في مكتبة مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الأردنية.

(3) شيخ زاده، عبد الرحمن بن محمد (1078هـ/1667م)، مجمع الأنهر شرح ملتقى الأبحر، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998م، ج 2 ص 198.

قـــال: "أعلنوا النكاح واضربوا عليه بالدف"[1] وذكر أصحابنا وأصحاب الشافعي أنـــه مكـــروه في غـــير النكاح وهو مكروه للرجال على كل حال. وأما الضرب بالقضيب، فمكروه إذا انضم إلى محرم أو مكروه، كالتصفيق والغناء والرقص. وإن خـــلا عـــن ذلك كله لم يكره؛ لأنه ليس بآلة طرب ولا يطرب ولا يسمع منفردا بخلاف الملاهي، ومذهب الشافعي في هذا الفصل كمذهبنا"[2].

ويقـــرر ابن عابدين أنّ السماع ليس من اللهو المحرم لعينه بل لقصده، فقال: "إن هذا يفيد أن آلة اللهو ليست محرّمة بعينها بل الـهو منها، إما من سامعها أو من المشتغل بها، ألا ترى أن ضرب تلك الآلة بعينها حُلّل تارة وحرّم أخرى باختلاف النية؟ والأمور بمقاصدها وفيه دليل سادتنا الصوفية الذين يقصدون بسماعها أموراً هم أعلم بها، فلا يبادر المعترض بالإنكار كي لا يحرم بركتهم فإنهم السادة الأخيار أمدنا الله بإمداداتهم وأعاد علينا من صالح دعواتهم وبركاتهم"[3].

ويظهـــر من هذه النقول في كتب فقه المذاهب وأحكام لقرآن واللغة، إلى أن الـــضرب بالدف وغيره من الآلات مباح باتفاق في الحداء، وفي تحريض الجند على القـــتال وفي العـــرس وفي العيد وقدوم الغائب وللتنشيط على الأعمال الهمة، وأن الاختلاف الذي ثار بين الفقهاء وجرى في كتبهم كان في حل أو حرمة الاشتغال

---

(1) أخـــرجه مـــسلم ورواه أحمـــد والحـــاكم وصححه ووافقه الذهبي عن عامر بن عبد الله بن الزبيـــرعن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال": أعلنوا النكاح" ورواه الترمذي عن عائـــشة رضـــي الله عنها بلفظ": أعلنوا هذا النكاح، واجعلوه في المساجد، واضربوا عليه بالدفوف" قال الإمام الترمذي: "هذا حديث غريب حسن في هذا الباب". قال الإمام العراقي فـــي تخريج أحاديث الإحياء: "رواه الترمذي من حديث عائشة وحسنه، وضعفه البيهقي". وذكـــر الـــشيخ إســـماعيل العجلوني الجراح في كشف الخفاء فقال: أخفوا الختان وأعلنوا الـــنكاح" و"أعلنوا النكاح واجعلوه في المساجد واضربوا عليه بالدف". العجلوني، إسماعيل بـــن محمـــد الجراجي الدمشقي (ت: 1162هـــ/1749م). كشف الخفا ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، 2. ح، مؤسسة مناهل العرفان، بيروت د. ت. ج1، ص 68، 145.

(2) ابن عابدين، رد المحتار، ج 10 ص 240 و242.

(3) ابـــن عابدين، رد المحتار. ج4، 56. ويمكن مقارنة آراء ابن عابدين بأقوال معاصره الإمام الشوكاني الذي قال في كتابه نيل الأوطار: "ذهب أهل المدينة ومن وافقهم من علماء الظاهر، وجماعـــة الـــصوفية، إلـــى الترخيص في الغناء، ولو مع العود واليراع.."، الشوكاني، نيل الأوطار، ج 8، ص 264-266.

بالموسيقى سماعاً وحضوراً وتعلماً إذا صاحبها محرم كشرب الخمر أو غناء ماجن أو غـزل، أو كانت مما يحرك الغرائز ويبعث على الهوى والفسوق، كتلك التي تستثير في سـامعها الـرقص والخلاعة وتلك التي تستعمل في المنكرات المحرمات كالزار وأمـثاله أو فوتت واجبا. وهذا ظاهر ما قاله فقهاء المذهب الحنفي من أن الضرب غـير المستـشنع لا بـأس به، ولا يسقط العدالة وفسروا المستشنع بأن يرقصوا به فيدخل في حد الكبائر.

ويـتفق ذلك مع قول الغزالي فيما نقله الشوكاني في تفسير الحديث الشريف "كـل لهو يلهو به المؤمن فهو باطل" بأنه لا يدل على التحريم: بل يدل على عدم الفائدة، وما لا فائدة فيه من قسم المباح[1]. ويفسر الشوكاني معنى الطيبات في الآية الكريمة ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[2]، بقوله: الطيـبات تشمل كل طيب، والطيب يطلق بإيذاء المستلذ، وهو الأكثر المتبادر إلى الفهم عند التجرد عن القرائن ويطلق بإزاء الظاهر والحلال[3].

وصـيغة العموم عند الشوكاني "كلية تتناول كل فرد من أفراد العام، فتدخل أفـراد المعـاني الثلاثة كلها، ولو قصرنا العام على بعض أفراده لكان قصره على المتـبادر وهو الظاهر، وقد صرح ابن عبد السلام في دلائل الأحكام[4] أن المراد في الآية بالطيبات المستلذات"[5].

---

(1) الشوكاني، نيل الأوطار، ج6، ص 60.

(2) سورة الأعراف، الآية، 157.

(3) الشوكاني، نيل الأوطار، ج6، ص 61.

(4) دلائل الأحكام من أحاديث النبي عليه السلام، لبهاء الدين أبي العزيز يوسف بن رافع الشهير بـابن شـداد (ت: 631هـ/1233م) دار الكتب العلمية، ط 1، بيروت، 1991. ولا يوجد ما يشير إلى أن ابن عبد السلام المقصود به أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام (ت: 660هـ/1261م) وهناك كتاب دلائل الأحكام لضياء الدين أبي بكر يحيى بن سعدون الأزدي القرطبـي المالكي (ت: 567هـ/1171م) انظر: حاجي خليفة، كشف الظنون، ج1 ص 760؛ البغدادي، يضاح، ج3، ص 476.

(5) الشوكاني، نيل الأوطار، ج6، ص 60.

وفي أواخــر القرن التاسع عشر الميلادي وضع الشيخ الحمصي سعيد بن يحيى بلــبل المولود سنة1291هـ/1874م رسالة "في أحكام الذكر والسماع"، أورد فيها كــثيراً من النقولات من كتب التفسير والحديث النبوي وآراء الفقهاء من مختلف المــذاهب الإســلامية، تناول فيها القول بإباحة الإنشاد، وضرب الدف والرقص والشبابة والسماع وصفات المنشد[1].

في تلــك الرسالة يبين الشيخ سعيد بلبل أن حكم السماع بحسب أقسامه هو حرام ومباح ومندوب، والحرام ما كان لأكثر الناس من الشباب ومن غلبت عليهم لذاتهم وشهواتهم وملكهم حب الدنيا. وأما المباح فهو لمن لا حظ له منه إلا التلذذ بالصوت الحسن واستدعاء السرور والفرح، في حين أن المندوب هو لمن غلب عليه حــب الله تعالى والشوق إليه فلا يحرك منه السماع إلا الصفات المحمودة وتضاعف الــشوق لله تعــالى، "وهــذا سماع الصوفية أهل الصدق والإخلاص في كل زمان ومكان.."[2].

ويــستمر الجــدل حول الموسيقى واللهو وآلات الطرب في دمشق حتى نهاية القرن العشرين، فيضع الشيخ محمد ناصر الدين الألباني الدمشقي (ت: 1420هـ/1999م) كتابا في الرد على ابن حزم ومقلديه المبيحين للمعازف والغنا، ويرد على الــصوفيين الــذين أجازوا الغناء إذا كان فيه تقربا لله، وعمل الألباني على إبطال الأحاديــث المحــتج بهــا بجواز الموسيقى والضرب بآلاتها وخلص إلى أن الفقهاء "مــتفقون علــى تحريم آلات الطرب إتباعا للأحاديث النبوية والآثار السلفية، وإن صح عن بعضهم خلافه فهو محجوج بما ذكره من ردود تبطل حجية المحللين"[3].

---

(1) انظــر: ســعيد بن يحيى بلبل (ت: 1378هـ/1958)، أحكام الذكر والسماع عند الصوفية، تحقيق فرحان بلبل، ط1، 2002، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ص ص 59، 58.

(2) بلبل، أحكام الذكر، ص 64.

(3) محمــد ناصــر الــدين الألبانــي، مختصر تحريم آلات الطرب، دار الصديق، ط1، الجبيل السعودية، ص 72.

II

الرقص والتمثيل: جدل الإباحة والتحريم

شغل حكم الرقص الفقهاء ورجال الصوفية فشكل حيزا في الجدل الفقهي الدائر بين الإباحة أو عدمها، ويظهر من اسم كتاب إبراهيم الدمشقي نزيل القسطنطينية الحلبي (ت: 956هـ/1549م) "الرهص والوقص لمستحل الرقص" أن الرقص كان مثار جدل في القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي[1]، وقد أباح الفقهاء الرقص في حال كان مشفوعا بذكر الله، ويقدم الشيخ سعيد بلبل مجموعة من الأحاديث والآيات وفتاوى العلماء الدالة على الإباحة[2].

ويشير سعيد بلبل إلى أن السؤال عن إباحة الرقص وقع في مصر سنة 1105 هـ/1693م بالنص التالي: "وما تقول السادة العلماء رضي الله عنهم في رجل معترض يقول حق السادة الخلوتية وغيرهم حين يقومون للذكر ويدورون محلقين آخذ بعضهم بأيدي بعض ويسموها "الهُوية" إنهم يكفرون لأنهم يرقصون ويتلاعبون بالذكر ويكفر من يقول بجواز ذلك، فماذا يترتب على هذا الخبيث في إنكاره على هذه الطائفة الفائزة الناجية إن شاء الله الذين يجتمعون على تلاوة القرآن العظيم وذكر الله تعالى... وهل لهؤلاء الطائفة مستند من السنة المطهرة أو من أحد من السلف الصالح أم لا؟ ومن جملة اعتراضه وشدة افترائه أنه قال لجماعة: اقضوا جميع صلاتكم التي صليتموها خلف من يفعلها أو يقول بجوازها.."[3].

وبعد جدل فقهي بين العلماء، أجاب أئمة الحنفية المالكية كلهم على هذا السؤال بالموافقة من غير مخالفة، وكانت حجتهم أن في القيام والقعود والميلان بالجسد عبادة وتقرب لله استنادا إلى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً

---

(1) البغدادي الباباني، إسماعيل باشا بن أمين بن مير سليم. هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، طبعة مصورة دار إحياء التراث العربي، بيروت. ج5، ص 27.

(2) بلبل، أحكام الذكر، ص 79-89.

(3) بلبل، أحكام الذكر، ص 88.

وَعَلَـى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[1].

واستدلوا أيضا بقول عائشة رضي الله عنها عن الرسول صلى الله عليه وسلم: 'كـان النبـي صلى الله عليه وسلم يذكر الله تعالى في كل أحيانه"[2]. وورد عن الفقهـاء أن التمايل عند التهليل وارد عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم "إذا ذكروا الله تميلوا شملا ويمينا كما تتمايل الشجرة في الريح العاصفة"[3].

وارتـبط الجـدل حـول الرقص بالسماع والقول على حدو الحادي وشدو لشادي[4]، "وفيه يشتغلون عن الذكر بسماع مغاني الشعر ويتباهون.. وأما إذا غنى لهـم منـشد حالـة الذكر فهناك راغوا - طلبوا بشدة وإلحاح - ألحانة وحكياته وجعلوا الذكر تابعا للهوى في نهزاته"[5] ومحمل التحريم في حدو الحادي أن فيه من الفحـش والخروج على قانون الأدب من ذكر الخدود والقدود والشعور والخمور والأعطاف والأرداف"[6].

---

(1) سورة آل عمران، الآية 191. وتفسير الآية عند السيوطي في الجلالين (الذين) نعت لما قبله أو بـدل (يذكـرون الله قيِاما وقعودا وعلى جنوبهم) مضطجعين أي في كل حال، وعن ابن عباس يصلون كذلك حسب الطاقة (ويتفكرون في خلق السماوات والأرض) ليستدلوا به على قدرة صانعهما يقولون (ربنا ما خلقت هذا) الخلق الذي نراه (باطلاً) حال، عبثاً بل دليلاً على كمال قدرتك (سبحانك) تنزيها لك عن العبث (فقنا عذاب النار).

(2) بلبل، أحكام الذكر، ص 90.

(3) مـن الذين قالوا بالإجازة الفقيه احمد بن عبدالله الحافظ (ت: 430هـ/1038م) صاحب كتاب حلية الأولياء وطبقات الأصفياء. والفضيل بن عياض التميمي اليربوعي (ت: 187هـ/803م). بلبل، أحكام الذكر، ص 55.

(4) يقـول أبـو طالب المفضل: "الشادي: المغني، والشدو: الغناء، والشدو في غير هذا الابتداء بالأخذ من الشيء" ابن سلمة، الملاهي وأسماؤها، ص 28.

(5) النهزات جمع نهزة وهي الغنيمة، بلبل، أحكام الذكر، ص 58.

(6) بلـبل، أحكـام الذكر، ص 58. ويميز المتصوفة بين ذكر الصمت والذكر الجهري، إذ جعل الأول لأهـل المقـام والثاني للمريدين لأنهم يؤكدون على أن الخلوة يجري الشيطان من آدم كمجـرى الـدم بالعروق.. ويكمن الإشارة إلى أن استخدام الآلات الموسيقية لا يقتصر على الـدف، وتوظـيف الجـسد فـي الـرقص يأخذ بعداً رمزياً يشكل أحد الطاقات الروحانية وبمـستوياتها المتعددة، انظر: قاسم بياتلي، ذاكرة الجسد في التراث الإسلامي، دار الكنوز، ط 1، بيروت، 2007، ص 62، 65.

وصنف المسعودي الرقص وجعله على ثمانية أنواع: الخفيف والهزج، والرمل، وخفيف الرمل وثقيل الثاني وخفيفه، وخفيف الثقيل الأول وثقيله وقال المسعودي: "الـــرقاص يحـــتاج إلى أشياء في طباعه، وأشياء في خلقته وأشياء في عمله، فأما ما يحتاج إليه في طبعه فخفة الروح وحسن الطبع على الإيقاع، وأن يكون طالبه مرحاً إلى التدبير في رقصه والتصرف فيه"(1). ومن صفات الراقص في خلقته التي يحددها المسعودي:

[.. طول العنق والسوالف وحسن الدّلل والشمائل والتمايل في الأعطاف ودقة الخصر وحـــسن أقـــسام الخلـــق، وواقع المناطق واستدارة الثياب من آسافها ومخارج النفس والإراحـــة، والـــصبر علـــى طول الغاية ولطافة الأقدام ولين الأصابع وسرعة الانفتال والدوران ولين الأعطاف، ومما يحتاجه الراقص في عمله كثرة التصرف في ألوان الرقص وإحكـــام كل جزء من حدوده وحسن الاستدارة وثبات القدمين على مدارهما واستواء ما تعمل يمنى الرجل ويسرها، ولوضع القدمين وجهان: أحدهما أن يوافق بذالك الإيقاع والآخر أن يتشبط به فأكثر ما يكون هو فيه أمكن وأحسن..](2).

ومع ان الجدل الفقهي انحصر في رقص الصوفية، إلا أن الرقص في دمشق كان شائعا في مجالس الخاصة والعامة وفي الأفراح(3)، وهو برأي محمد كرد علي معاصر الشيخ سعيد بلبل فرع من فروع الموسيقى.

يعرف حاجي خليفة (ت: 1060هـ/1656م) الرقص بأنه: "علم يبحث عن كيفـــية صـــدور الأفعـــال الـــتي تصدر عن العذارى والنسوان الفائقات الجمال، والمتـــصفات بالظرف والكمال"(4). ويصف محمد كرد علي رقص أهالي الشام بأنه مقتـــبس من أوضاع كثيرة، ويدخل كرد علي الرقص إلى باب الرقص فن التمثيل، ويـــرى أن إنشاء دار للتمثيل في دمشق على يد احمد أبو خليل القباني سنة 1282هـ/ 1865م كان يمثل بداية جديدة لوجه من وجوه التسلية والترفيه فهو يقول:

---

(1) المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين (ت: 346 هـ/957م) مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار المعرفة بيروت، تحقيق عبد الحميد محمد محي الدين، 1948. ج 4 ص 225. وأشار ابن خلدون إلى أن صناعة الغناء اكتملت في عصر بني العباس يقول: "وما زالت صناعة الغناء تتدرج إلى أن كملت أيام بني العباس" ابن خلدون، المقدمة، ص ص 333.

(2) المسعودي، مروج، ج4، ص 225.

(3) محمد كرد علي، خطط الشام، مكتبة النهضة دمشق، 1983ج4، ص 141.

(4) حاجي خليفة،. ص 231.

[.. وبدأ يضع روايات تمثيلية وطنية من تأليفه وتلحينه ويمثلها فتجيء دهشة الإسماع والإبــصار، لا تقل في الإجادة من حيث موضوعها وأزياؤها ونغماتها ومناظرها عن التمثيل الجميل في أوروبا... واعتاض لأول مرة عن النساء بالمرد ولما انتقل إلى مصر لنشر فن التمثيل العربــي هناك عاد إلى الطبيعة واستخدم في كل دور من يصلح من الجنسين ووجه الفخر في أبــي خليل أنه لم ينقل فن التمثيل عن لغة أجنبية ولم يذهب للغــرب بل قيل له أن في الغرب فناً هذه صورته فقلده، وقيل أنه شاهد رواية واحدة مُثلت أمامه، ولما كانت عنده أدوات التمثيل وهي الشعر والموسيقى والغناء ورأى أنه لا ينقــصه إلا المظاهر والقوالب، أوجدها وأجاد في إيجادها، ولذلك كان أبو خليل القباني مؤسس فن التمثيل العربــي ونابغة العرب في فن الموسيقى...] [1]

يؤكد نص كرد السابق أن دمشق الشام برغم الثقافة الدينية الهائلة التي كانت تطغــى على طبيعة مجتمعها إلا أنها كانت قابلة للتغيير، وبرغم الجدل الفقهي الكبير الــذي كان يتصاعد عند كل حادثة أو نازلة، ويبدو جلياً أن استمرار تراث أبــي خلــيل القــباني[2] ما هو إلا تأكيد على أن فضاء الفن والموسيقى في دمشق كان رحبا، بما يسمح بتجاوز السائد حتى لو كان بالاقتباس من الثقافات الأخرى.

لكن فن التمثيل الذي استلهم من الغرب، ونظر إليه على أنه حادث في الثقافة الدمشقية، لم يتقدم كثيراً بعد أن غادر أبو خليل القباني إلى مصر، فقد تلقى نكسة كــبيرة وتــراجع، وهــذا ما يؤكده كرد علي بقوله: "ولما كان التمثيل كما قلنا عارضاً على مدنيتنا رجع القهقرى بعد أبــي خليل.."[3].

---

(1) كرد علي، خطط الشام، ج 4، ص 143.

(2) حــول أبــي خلــيل القبانــي وتــراثه، انظر دراسة جبرائيل سعادة: أحمد أبو خليل القبّاني الموسيقي، مجلة التراث العربي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق العدد 25 و26، السنة السابعة، تشرين الأول وكانون الثاني "أكتوبر ويناير" 1986 و1987/صفر وجمادى الأول 1407هـ، ص 32.

(3) كرد علي، خطط الشام، ج 4، ص 144.

III

أهل الغنا وأرباب الموسيقى

تقـــدم اليوميات والتراجم العامة لأعيان دمشق في العصر العثماني بعض السير الـــتي اهـــتمت بالموســـيقى والغـــناء والصوت، وترصد بعض الموهوبين في الغناء والموســـيقى، وإذا كان الخبر عن الشيخ الموسيقي شهاب الدين أحمد الطواقي (ت: 926هـــ/1519م) قـــد جاء مقتضباً[1]، وأشار إلى رحلته للشرق من أجل تعلم الموســـيقى، فـــإن تراجم ذلك القرن تسمح بإجراء دراسة أوسع للسير التي أولت الموسيقى اهتمامها، مما يساعد في الكشف عن تكوينها الثقافي.

ومـــن مـــشاهير فن النغمة بدمشق في القرن السادس عشر الشيخ زين الدين بركات بن أحمد الشهير بابن الكيال (ت: 929هـــ/1522م)، وصف بأنه "لم يخلّف بعده في دمشق في الوعظ وحسن الصوت وإدراكه لفن النغمة"[2]. ويرتبط بالمغنيين في القـــرن السادس عشر من اشتهروا بضرب الدفوف والمواصل في السماعات في دمشق ومنهم الشيخ إبراهيم بن سعيد الدامي[3].

ولا يمكـــن فصل الغناء والطرب في دمشق عن مجالس الصوفية وحفلاتهم ولذا نجـــد أن كـــثيراً من التراجم نجدها تجمع بين الغناء والإنشاد والسماع، فمن كبار المنشدين في القرن السادس عشر محمد بن أحمد الداخل الصالحي (ت: 977هـــ/1569 م)، الذي اشتهر أيضا إلى جانب إنشاده "بسرد النكت والنوادر". وهو أحد جماعة الـــرئيس الجعيدي من كبار المتصوفة، ويوصف بأنه كان يتردد إلى الأكابر ويبيت عندهم الليالي[4].

---

(1) ابـــن طولـــون، شـــمس الدين محمد بن علي (ت: 953هـــ/1546م) حوادث دمشق اليومية، صـــفحات مفقـــودة من كتاب مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، تحقيق أحمد ايبش، ط1، 2002، دار الأوائل، دمشق، ص 110.

(2) ابن طولون، حوادث، ص 156.

(3) الغزي، الكواكب، ج1، ص 119.

(4) الغزي، الكواكب السائرة، ج3، ص 49.

ويبدو أن مجالس الصوفية وخلواتهم، وضرب الطبول فيها أثار بعض الشيوخ، ممن نظروا إليها على أنها فيها خروجاً على الشرع، فخلوة الشيخ محمد بن أحمد الصمادي (ت: 994هـ/1585م)، كان ينعقد بها مجلس سماع كل سنة مرة بجوار الجامع الأموي ليلاً، وجاء في وصفها: "كانوا يضربون طبولهم وأفتى شيخ الإسلام الوالد تبعاً لشيخي الإسلام شمس الدين ابن حامد والتقوي ابن قاضي عجلون بإباحة طبولهم بالمسجد وغيره قياساً على طبول الحجيج والجهاد لأنها محركة للقلوب إلى الرغبة في سلوك الطريق وهي بعيدة الأسلوب عن طريقة أهل الفسق والشرب ..."[1]، ويذكر الغزي في ترجمة الشيخ محمد بن صلاح الدين اللاّري السعدي الشافعي (ت: 967هـ/1588م) ما نصه:

[... أنه لما كان عنده شرب الصوفية ولما شاع فضله اشتغل عليه بعض الطلبة واستفتاه بعض الناس هل اجتماع الدف والشبابة في السماع مباح أم لا؟ فأجاب أن كلاً منهما مباح واستند إلى قول الغزالي في الأحياء أن إفراد المباحات ومجموعها على السواء إلا إذا تضمن المجموع محظوراً لا يتضمنه الآحاد، وقد وقع المنع من أهل زماننا وأفتى جدي بالجواز ...][2].

ولم يقتصر النظر إلى حفلات الصوفية من باب الإباحة أو عدمها بقدر ما ارتبطت فنيا بكونها مناسبة لسماع الدمشقيين الطبول والموسيقى في أجواء روحية وبخاصة في الأعياد والمناسبات الدينية، فمحمد بن خليل الصمادي (ت: 948هـ/1541م)، اشتهر بأنه كان يقيم الموالد ويدعو إليها وجهاء دمشق وصلحائها ويمد لهم سماطاً ويكرمهم. ويضيف المؤرخ الغزي: "اشتهر هو وآباؤه من قبل في دق الطبول عند هيمان الذاكرين واشتداد الذكر"[3].

ويذكر الغزي في ترجمته لأحمد بن حسين الجبائي (ت: 963هـ/1555م) أنه كان: "يقيم الذكر بزاوية الشيخ سعد الدين الجبائي الدمشقي القبيباتي ويقيم فيها

---

(1) الغزي، الكواكب السائرة، ج3، ص 17، وجاء عند المحبي ما يؤكد ذلك، بقوله: "وقد سئل كثير من العلماء عنه (الطبل)، فأفتى البدر الغزي والشمس بن حامد التقوي بن قاضي عجلون بإباحته في المسجد وغيره قياساً على طبول الجهاد والحجيج بعيدة الأسلوب عن طريقة أهل الفسق والفجور والشرب والصوفية معروفون..."، المحبي، خلاصة، ج1، ص 50.

(2) الغزي، الكواكب السائرة، ج3، ص 60- 61.

(3) الغزي، الكواكب، ج2، ص 32.

الذكـــر والـــسماع ..."[1]. ومـــن الذين عرفوا بسماعهم الآلات محمد بن محمد الخناجري (ت: 941هـ/1534م)[2]. ومن موسيقي القرن السادس عشر محمد بن قاســم الرومــي (ت: 940هـ/1533م)، الذي وصف بأنه "له مهارة في القرآن والتفسير وإطلاع على العلوم الغريبة كالجفر والموسيقى.."[3].

وهـــناك الموســـيقى والموشحات التي كانت تغنى بالمجالس الأدبية، ومن أشهر الــزجالين الأديب أبو بكر بن منصور بن بركات بن حسن العمري (ت: 1048هـ/1638م). ويشير نجم الدين الغزي إلى بناء المستراح، دونما ذكر لوظائفه[4].

ومـــن الموســـيقيين المـــشهورين في القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر المـــيلادي بعث الله المصري الحنفي نـــزيل دمشق، الذي قيل عنه أنه كان "أعرف أهـــل زمانه بالموسيقى وأحسنهم صوتاً وأقواهم ملكه، له معرفة عجيبة في صورته مع جهارته ونداوته.."[5].

وهـــناك رجب بن عماد الدين المنلا العجمي (ت: 1012هـ/1603م)، الذي عـــرف بحسن خطه ومشاركته في العلوم، "وكان يدعي معرفة الموسيقى مع أنه لا صـــوت لـــه ويـــزعم أنه أحسن الناس صوتاً"[6]، أما رجب بن حسين بن علوان الحمـــوي الأصل الدمشقي الميداني (ت: 1087هـ/1676م)، فنال شهرة أكبر من رجب العجمي، فإلى جانب معرفته بالحساب وعلوم الفلك فإنه "كان في الموسيقى على اختلاف أنواعها فهو فيه أعرف من أدركنا وسمعنا به وله فيه أثمان صنعها على طريقة أساتذة هذا الفن، لكنه كان رديء الصوت جرياً على العادة في الغالب مع أنه لا يجتمع حسن الصوت مع المهارة الكلية في فن الموسيقى..."[7].

---

(1) الغزي، الكواكب، ج2، ص 103.

(2) الغزي، الكواكب، ج2، ص 14.

(3) الغزي، الكواكب، ج2، ص 58.

(4) المحبـــي، خلاصة، ج1، ص 63. وأفاد محمد مطيع الحافظ أن المستراح يعني مكان قضاء الحاجة، لكن إشارة المحبي لا تحمل تلك الدلالة وهو يشير إلى احتواء المستراح على مطبخ. مقابلـــة مع محمد مطيع الحافظ، في مؤتمر علمي في مدينة طرابلس، نظمه المعهد الألماني في بيروت، 2008/11/15.

(5) المحبي، خلاصة، ج1، ص 453.

(6) المحبي، خلاصة، ج2، ص 162.

(7) المحبي، خلاصة، ج2، ص 161- 162.

وهـــناك إشـــارات نادرة إلى أن الموسيقيين كانوا يترددون إلى مجالس الأعيان طلـــباً للمال[1]. ويؤكد ذلك ما جاء في ترجمة محمد بن أحمد الداخل لصالحي (ت: 977هـــ/1569م)، الذي يوصف بأنه: "كان يتردد إلى الأكابر ويبيت عندهم الليالي"[2] ويشير المرادي إلى أن فتحي افندي الفلاقنسي دفتر دار دمشق (ت: 1159هـــ/1738م) "كـــان عـــنده جملـــة من أرباب المعارف والموسيقى والألحان ومن المجاز والمضحكين"[3].

ومن أعلام المنشدين في دمشق نوح الدمشقي (ت: 1032هـــ/1623م) الذي عـــرفه أهل دمشق بحسن صوته وجودة إنشاده ويقال أنه "أصبح مؤذن قلعة دمشق وأخذ عنه الألحان والأنغام.."[4].

لم يقتصر تأليف التراجم على العلماء والأعيان، بل إن أهل الغنى نالهم نصيب من ذلك، وفي هذا الباب من التأليف ذكر في القرن السادس عشر الميلادي عثمان بن أحمد الحوراني (ت: 1000هـــ/1591م) الذي ألف كتاباً أطلق عليه اسم "بلوغ المـــنى في أسباب الغنى" وقد اشتهر الحوراني بأنه كان يعظ النساء في البيوت فيقبلن عليه ويفهمن وعظه.."[5].

وتُعد سيرة عمر بن شاهين الحنفي الحلبـــي (ت: 1183هـــ/1769م) إحدى النماذج لموسيقي القرن الثامن عشر، وبحسب ترجمته فهو ابن جندي ولد في حلب ســـنة 1107هـــــ/1695م، من أسرة شريفة، لذا فقد نشأ في بيئة دينية تعلم فيها القرآن "على يد المقرئ الشهير الشيخ عامر المصري، ومن بعده قرأ على شيخ القراء عمر المصري، ختماً كاملاً بالتجويد والتحقيق وحفظ القرآن"[6].

تعلـــم عمر شاهين فن التجويد، وفي رواية سيرته أنه كان: "يصحب الشيخ عمر المصري مراراً ويتدارس معه ويعلمه كيفية القراءة بالألحان مع مراعاة التجويد"

---

(1) المحبي، خلاصة، ج4، ص 387.
(2) الغزي، الكواكب السائرة، ج3، ص 49.
(3) المرادي، سلك، ج3، ص 208.
(4) المحبي، خلاصة، ج4، ص 459.
(5) الغزي، الكواكب، ج3، ص 179.
(6) المرادي، سلك، ج3، ص 176.

ودرس على شيوخ عصره في علوم الفقه والتفسير والحديث، وأجيز بالقراءة والإقراء "وجلس يعلم الناس فن التجويد بعد صلاة الصبح في جامع الوزير عثمان في مدينة حلب، وحصل له مشقة مع الأتراك الغرباء لأنه يعدل ألسنتهم في مخارج الحروف والنطق ويزدحمون عليه"[1].

تعكس ترجمة عمر بن شاهين أهمية العناية بالصوت وطبقاته في الثقافة الشامية وبخاصة في مدينة حلب، أما ترجمة صالح بن إبراهيم المزور (ت: 1152هـ/1739م) فتتعدى مجال التجويد، إلى عناية أخرى وهي التلحين، فقد جاء في سيرته أنه كان خطيب جامع السيلمانية في صالحية دمشق، وكان بارعاً في الأدب، حَسَن الصوت لطيف العشرة ماهراً في الموسيقى والألحان وله شعر حسن، وقد وصفه شيخه وصديقه المؤرخ محمد أمين المحبي (ت: 1111هـ/1699) بقوله: "يحل في القلوب بلطفه محل الروح من الجسد وتتحاسد عليه العيون والآذان فكأنما خلق لأحله الحسد، وله أدب وسليقة، تحلى بحسن خلق وخليقة... وصوت يدعو القلوب قسراً إلى صبوته وولوعه، وشعره عليه مسحة الحسن، يوقظ بغرامياته الجفون الوسن"، ومن شعره الملحن قوله:"

يا عينُ لا تهجعي فالسَّعدُ وافاك
وزارَ مَن تعشقي ليلاً وحياكِ
مليحةٌ صاغها نوراً مصوراً
فأفتنت كلَّ ذي رأيٍ وإداركِ
تعلمَ السِّحرَ هاروتُ وأتقنه
مِن لحظها حينَ أرماه بإشراكِ
كم عاشقٍ ضلَّ في دُجى الذوائبِ قد
أهداه نُور صباحٍ من محياكِ
حويتَ جنةَ حسنٍ في الخدودِ علا
من فوقها عرشُ شِعرٍ جلَّ عن حاكي[2]

---

(1) المصدر نفسه، ج4، ص 177.

(2) المرادي، سلك، ج2، ص 203.

ومن شعره المغنى قوله:

غـــدا خالُـــه ربَّ الجمـــالِ لأنـــه
علـــى عـــرشِ خـــدٍّ فـــوقَ كرســـيّه استوى

وأرســـل رُســـلاً مـــن لحـــاظٍ أعـــزة
علـــى فتـــرةٍ تدعـــو الأنـــامَ إلى الهـــوى

ومما قاله في الغزل:

وكنـــزُ ثغـــرٍ حـــصينٍ بالعقـــيق حـــوى
جواهـــرَ نُظمـــت مِـــن غـــيرِ أســـلاك

يـــا طلعـــةَ الـــبدرِ يـــا شمـــسَ الـــنهارِ ويـــا
غـــصنَ الـــرياضِ وذاتَ المبـــسمِ الزاكـــي

تـــاللهِ لا أبتغـــي خلـــيلاً يـــسامرني
يـــا ظبـــية أســـرتني عـــين لقـــياك

لا ســـامحَ الله عُـــذّالاً لَـــنا عذلـــوا
لـــو عايـــنوا لغـــدوّ مـــن بعـــضِ أســـراك[1]

ومـــن المغـــنين في القرن الثامن عشر الشيخ سعيد السمان الدمشقي الشافعي (ت: 1172هـــ/1758م) والـــذي عرف عنه أنه: "كان عارفا أديبا ماهرا سميدعا أحـــد المجـــيدين صـــناعة الإنشاء والنظم والمعرفة والألحان وعلم الموسيقى بحسن الصوت والأداء."[2]

وصنف محمد بن إبراهيم الدكدكجي (ت: 1131هـ/1719م) في هذا اللون من الكتابة التاريخية، قطعة في تراجم رجال الطريقة الشاذلية، ذكر فيها مناقبهم[3]

---

(1) المرادي، سلك، ج2، ص 203.

(2) المرادي، سلك، ج2، ص 14[illegible].

(3) الدكدكجـــي، محمد بن إبراهيم التركماني الدمشقي (ت: 1130هـ/1719م). قطعة في طبقات الصوفية فيها تراجم رجال الشاذلية، مخطوط رقم 9273، ق-ق: 52-73، ق 2ظ.

ومـــشايخهم وساداتهم[1]، ومجالس ذكرهم[2]، مع الاهتمام بإبراز محبتهم للناس[3]، وفضلهم في الدنيا[4]، وختمها في فضل الطريقة الشاذلية وسند اتصال رجالها بها.

ولم يقتـــصر التأليف بهذا الباب على سير العلماء والأدباء والمتصوفة، إذ امتدّ ليشمل مؤدي الألحان ومنشدي الخلوات ورؤساء المؤذنين، فألف الموسيقي الشيخ محمـــد بـــن أحمد الكنجي (ت: أواخرالقرن 12هـ/18م)[5] كتاب "بلوغ المنى في تراجم أهل الغنا"، ترجم فيه لفئة واسعة من مؤدي الألحان والمدائح[6]، إلى جانب المؤذنين وضاربـــي الآلات الموسيقية[7] والملحنين[8]، وألحق بهم أصحاب الطرائف والنكت، وغيرهم ممن لم تحفل كتب التراجم الأخرى بذكرهم.

تكمـــن قيمة هذا الأثر، في كشفه عن أسماء أصحاب التراجم الواردة وألقابهم مثل: "حسن استر جمالك"[9]، ومحمد أبو كلثوم[10]، وإبراهيم الغزالة[11]. "كما أنه أتـــاح لـــنا معـــرفة نوعية الشعر والقصائد التي تناولها المنشدون والمغنون في غير مناسبة[12].

ويتميـــز هـــذا المـــصنف بالإكثار من السجع، واستخدام المحسنات البديعية واللفظـــية في كتابة الترجمة مما أضعف مادة الترجمة التاريخية، هذا إلى جانب إهمال المؤلف تحديد وفاة المترجم له. مما قلل من سوية هذا الجهد، إلا أن قيمته التي يحتفظ بها، تكمن في اختصاصه بفئة أهملتها المصادر الأخرى.

---

(1) الدكدكجي، طبقات، ق 5 و.
(2) المصدر نفسه، ق 7 ظ.
(3) الدكدكجي، طبقات، ق 10 و.
(4) المصدر نفسه، ق 11 ظ، ق 3 و.
(5) الكنجـــي، محمد بن أحمد (ت: أواخر القرن 12هـ/18م)، بلوغ المنى في تراجم أهل الغناء، تحقيق رياض مراد، دار المعرفة، دمشق، 1988.
(6) الكنجي، بلوغ، ص ص 31 – 33.
(7) المصدر نفسه، ص ص 36 – 44.
(8) المصدر نفسه، ص 47 – 49.
(9) المصدر نفسه، ص 49.
(10) المصدر نفسه، ص 23.
(11) المصدر نفسه، ص 14.
(12) المصدر نفسه، ص ص 34، 69، 83، 95.

أما بناء ترجمة المعني، فقد سار الكنجي على نهج الشهاب الخفاجي (ت: 1069هـ/1658م) في الريحانة[1]، والأمين المحبي في النفحة[2]، وسعيد السلمان في ذيلها[3]، وهو ما يُظهر تأثره بهذا النوع من التراجم، والذي يعكس خلفيته الثقافية والمعرفية[4].

وفي القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي، يقول محمد كرد علي: "ولقد أدركنا وأدرك أجدادنا أن بلاد الشام كلها كانت لا تخلو معظم طبقاتها من موسيقيين، وكل مجلس من مجالسهم أو سهرة من سهراتهم، أو نزهة من نزهاتهم، كانت تضم أناساً أتقنوا هذا الفن حتى صار لهم ملكة، فكان السرور يملأ القصور والدور، والموسيقى والإنشاد من الأمور المألوفة لا يُستغنى عنها بحال، أما في القرى والبوادي فكان لهم الغناء والحداء، وضرب الرباب والقيثارة والمزمار والدف والكوبة، أي أن لهم ما يطرب آذانهم وترتاح إليه أرواحهم وتسهل معاناته وممارسته، ومن مشاهير الموسيقيين في النصف الأول من القرن الماضي محمد السؤلاتي الدمشقي أخذ عنه أرباب الموسيقى في عصره من المصريين والشاميين ذكره في سفينة الملك"[5].

ومن أهل المظاهر الذين عُرفوا بالموسيقى في أوائل القرن العشرين أبو الهدى الصيادي من حلب والشيخ عبد الرزاق البيطار من دمشق وكانا من أساتذة هذا الفن الجليل كما يقول كرد علي، "ومنهم من عُنوا بالموسيقى فبرزوا فيها من أبناء

---

(1) المصدر نفسه، ص-ص 38، 70، 72. وانظر: الخفاجي، شهاب الدين أحمد بن عمر (ت: 1069هـ/1658م) ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا، ط1، تحقيق عبد الفتاح الحلو، ج2، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة.

(2) الكنجي، بلوغ، ص 72، ص 21 وقارن مع: المحبي، محمد أمين (ت: 1111هـ/1699م) نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة، 1969، تحقيق عبد الفتاح الحلو، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة.

(3) الكنجي، بلوغ، ص 22. وانظر: السمان، سعيد بن محمد (ت: 1172هـ/1758م) ذيل نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة. مخطوط مكتبة الأسد، الظاهرية، دمشق، رقم 2416، 26 ورقة.

(4) يشار هنا إلى مؤلف آخر للكنجي بعنوان: رشف النبيه من ثغر التشبيه، مخطوط رقم 4677، مكتبة الأسد. دمشق (الظاهرية) ق. ق: 2-13ظ.

(5) كرد علي، خطط الشام، ج4، ص 109.

هذه الديار مثل محمود الكحال، أحمد السفرجلاني، علي حبيب، عمر الجراح، عبد القادر الحفني، ومحي الدين كرد علي، وسامي الشوا، رحمون الحلبي، توفيق الصباغ، علي الدرويش، باسل الحجار، محمد الشاويش، نجيب زين الدين، مصطفى سليمان بك، شفيق شبيب، محمد علي الأسطى، رضا الجوخدار، مصطفى الصوف، حمدي ملص" ويشير كرد علي إلى أن: "العود المعروف بالبربط لم يكن معروفاً في حلب في القرن الماضي حتى جاء حلب سنة 1293هـ/1876م، رجل من أهل دمشق اسمه سعيد الشامي فأخذ الناس عنه"[1].

وفي أواخر القرن التاسع عشر الميلادي دخلت مؤثرات تركية على الموسيقى الشامية كما يخبر محمد كرد علي حين يقول: "ولقد بدأت الموسيقى التركية تنازع الموسيقى العربية في أواخر القرن التاسع عشر؛ لأنها خُدمت أكثر من موسيقانا، ثم جاءت الموسيقى الإفرنجية، فأصبحت الموسيقى اقتباس الجديد لأنه ليس من مصطلحه... ولا يفوتنا القول أن الموسيقى في العصور المتأخرة كان لها في أذكار بعض أرباب الطرق الصوفية مقام رفيع، ومنهم من اتبعها بالصنوج والأوتار، ومنهم من شفعها برقص، وقد قام منهم مبرزون في صنعتهم، وماتت شهرتهم، يوم سكنت نأمتهم، والموسيقى في الكنائس على اختلاف الطوائف المسيحية وتباين العصور، ما زالت شائعة معتبرة وكم من موسيقار عندهم تقلبت به الحال حتى رقي بفضله إلى أرقى درجات الكهنوت[2].

(1) كرد علي، خطط الشام، ج4، ص 109.

(2) كرد علي، خطط الشام، ج4 ص 105.

الفصل الثاني

الفنون والتسلية
في عادات أهل دمشق

الاحتفال والفرح بالأساس لغة، أوسع وأشمل وأعمق من لغة مجرد اللفظ (الشعر - القصة) ومن لغة اللحن (الغناء - الموسيقى) ولغة الإشارات والحركات (الإيماء - الرقص)، هي لغة جماعية تقوم على المشاركة الوجدانية والفعلية، وتأخذ مظاهر الفرح تعبيراً جماعياً آنيا يتم من خلال الفعل الجمعي الذي يشف في جوهره عن معاني تضامنية بين أفراد المجتمع.

تأخذ الأفراح في دمشق أهميتها باعتبارها ناتجة من بناء اجتماعي، تشارك في صياغته جملة محددات، تُكون في شكلها النهائي مدخلاً من مداخل الهوية الدمشقية، فعبر مئات السنين أوجد الدمشقيون تقاليد خاصة بمناسباتهم واحتفالاتهم، ومنها العراضات والرقص بالسيوف واحتفالات الختان وتزيين المدينة والموالد وغيرها، والتي تعبر عن ميراث ثقافي وحضاري متراكم.

لقيت الأعراس وحفلات الختان ومظاهر الاحتفال الأخرى نصيبا من اهتمام أبناء دمشق، فكتبوا عنها منتقدين الإسراف وبعض العادات ومقدار الإنفاق عليها، وشاركهم في هذا الاهتمام أقرانهم من مثقفي الحواضر العربية الأخرى[1]، ونالت مناسبات الدمشقيين اهتمام مؤرخي الأحداث واليوميات الذين يقدمونها في شكل من أشكال التثاقف والجدلية الواصلة أو المميزة لبنى المجتمع الفوقية والتحتية، حيث أعراس أبناء الأغنياء والأعيان "العال" وأفراح الفقراء والزعران أو "الدون". وهو ما يمدّنا بمؤشرات تمسّ كل مستويات الواقع الاجتماعي والثقافي، والتي يمكن بحثها في هذا الفصل.

---

(1) للمقارنة بين نفقات الأعراس والختان في دمشق وتونس أنظر محمد بن منصور قشور الجبالي (ت: 1053هـ/1643م) غُنية ذوي الحاجات في معرفة تقدير النفقات، تحقيق إبراهيم شبوح، مجلة المنارة، م 11، ع 1، 2005م، ص 98. يقول الجبالي: "اعلم لطف الله بنا وبك لطفا يليق بجلاله... نفقة الختان، الضعيف ربع قفيز قمحاً وقُلة زيت، وثُمن قنطار عسلاً... وكسوة الختان دراعة مقطع وسورية منه، وشاشية معين ومداسة وفي وليمة بناته زيادة نصف النفقة..". وقارن مع أعراس دمشق في ابن علوان، علي بن عطية بن حسن الحموي (ت: 936هـ/1529م)، نسمات الأسحار في مناقب وكرامات الأولياء الأخيار، تحقيق أحمد فريد المزيدي، 2001م، دار لكتب العلمية بيروت، ص 346.

ا

مظاهر الفرح والفن

تقدم مذكرات الشيخ الدمشقي شهاب الدين ابن طوق (ت: 915هـ/1509م) ملامح اجتماعية ذات صلة بعادات الدمشقيين وأفراحهم وفنون الحياة، وبخاصة تلك التي ترتبط بتقاليد الأعراس، إذ يذكر ابن طوق: "وراحت الزوجة لحمّام بنت الشيخ الحمصي[1]، ونامت عندهم حمام العرس، وأرسلت الزوجة ومعها إلف وعفيفة إلى بيت العروس في سدر كبير به نُقل العيد: تمر وزبيب وتين وفستق وبندق ولوز خمسة أرطال وأقراص من الحلوى وسكرية وملبس رطل وعدة علب، وشقة حرير وأطلس أحمر على قرمز"[2].

وفي أحداث سنة 922هـ/1516م يصف ابن الحمصي (934هـ/1527م) عرساً لابن أحد الأمراء يبدو فيه جلياً ترتيبات العرس ومن حضره من الأعيان، كما يفيد النص أن زفة العريس تمت في المدرسة الظاهرية، ويكشف النص التالي عند عادات الزفاف ومنها حمل الشموع أثناء زفة العريس ومشاركة الأعيان والوجهاء به، وتقديم النقوط للعريس بالخلع عليه، ومما جاء عند ابن الحمصي:

[وفي مستهله – ربيع الأول – كان زواج سيدي محمد نجل الأمير أردبش الدوادار، على بنت سيدي محمد بن بردبك العجمي، حضره نايب الشام والقضاة الأربعة وأركان الدولة، وخُلع عليه، وكان بداره بالقرب من المدرسة العزيزية، وكان زفافه

---

(1) لم يُعرف محقق التعليق بالشيخ الحمصي، وهو أبو بكر تقي الدين أحد متصوفة المدرسة الشميصانية وكان حافظا للقرآن، توفي سنة 931هـ/1524م. ودفن بتربة باب الصغير"وهرع الناس إلى جنازته والصلاة عليه" انظر: الغزي، الكواكب، ج1، ص 120، وهو معاصر للشيخ شهاب الدين أبي طوق، الغزي، الكواكب، ج1، ص 126.

(2) ابن طوق، شهاب الدين أحمد بن محمد (ت: 915هـ/1509م) التعليق، يوميات شهاب الدين أحمد بن طوق، مذكرات كتبت بدمشق أواخر العهد المملوكي 885-908هـ/1480-1502م، تحقيق الشيخ جعفر المهاجر، منشورات المعهد الفرنسي للشرق الأوسط/قسم الدراسات العربية 3 أجزاء، دمشق، 2002، 2004م، ط1، ج3، ص 1422.

علـــى العروس، بالمدرسة الظاهرية وكان له زفة من الحمام إلى منـــزله، وكان سائر الدولة ماشية قدامه بشموع، وكانت وليمة عظيمة لم تصف..][1]

ويـــبدأ ابن طولون الصالحي (ت: 953هـــ/1546م) أخبار سنة 884هـــ/1479م بذكر حفل عقد قران، يصف فيه ما كان جارياً من عادات أهل دمشق، والمهم في هذا الخبر هو الاختيار الذي مارسه ابن طولون وأراد أن يبدأ به تاريخه، فمن النادر أن تبدأ حوادث التاريخ عند المؤرخين بذكر الأفراح. ويظهر في الخبر أن حفل عقد القـــران تخللـــه تقـــديم الماء المُحلى في أكواب من الزجاج، إضافة إلى تقديم ثمار البلح[2].

ويذكر ابن طولون في مفاكهة الخلان أسماء بعض المنشدين ومنهم "الريس أبو الخـــير الـــصغير ومحمـــد الجعيدي[3] والغلام مشهور المنشد"[4]، وإضافة إلى أسماء المنـــشدين مـــن الرجال، فإن ابن طولون يوثق لنا وفاة "الشيخة الصالحة المصنفة صاحبة النظم الفائق أم عبد الوهاب بنت الباعوني"[5] وفي ذلك إشارة إلى أن النظم والإنشاد لم يكن حكراً على الرجال وحسب.

وذكـــر ابن طولون في رصده لحوادث مجتمع دمشق تراجم من توفي في كل ســـنة، ومـــن ضمن من يذكرهم في حوادث سنة 926هـــ/1519م الشيخ شهاب

---

(1) ابن الحمصي، حوادث الزمان، ص 518.

(2) يقـــول ابـــن طولـــون: "كان عقد قران بنت زين الدين الهديري على ابن تاج الدين الصلتي، برهان الدين إبراهيم، على مبلغ أشرفية... وأرسل أربع قراريب زجاج أمياه وسكرا، وأباليح ثمـــرة وشقتين حرير. وعقد مولانا الشيخ تقي الدين خال أبيها بالمشهد بعد صلاة الظهر... وشـــربوا ســـكرا" ابن طولون، شمس الدين محمد (ت: 953هـــ/1546م) مفاكهة الخلان في حـــوادث الـــزمان، تاريخ مصر والشام، جزآن، تحقيق محمد مصطفى، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، 1962م، ج1، ص 3.

(3) هو محمد الرئيس شمس الدين الدمشقي الشافعي المنشد الداخل، رئيس دمشق في عمل الموالد وصـــف بأنـــه "كـــان من محاسن دمشق التي انفردت بها" توفي نحو سنة 965هـــ/1557م. راجـــع: الغزي، الكواكب، ج2، ص74. وبرز في الإنشاد ابنه محمد الشيخ شمس الدين ابن الجعـــيدي الدمـــشقي شيخ المنشدين الذي كان رئيسا في علم النغمة المتوفى سنة 968هـــ/1660م، الغزي الكواكب، ج3، ص 76. ومن جماعة الجعيدي محمد بن أحمد الداخل المنشد صاحب النوادر الذي كان يتردد إلى بيوت الأكابر ويبيت عندهم. الغزي، الكواكب، ج3، ص 49.

(4) لم أعثر على ترجمة له. ابن طولون، مفاكهة، ج2، ص 102.

(5) ابن طولون، مفاكهة، ج2، ص 74.

الدين أحمد الطواقي (ت: 926هـ/1519م) الدمشقي المتصوف الذي جاء عنه أنه: "توفي مقتولاً عن سن عاليه، انفرد بعلم الموسيقى، ورحل بسببه إلى الشرق، ثم إلى الروم، ثم قطن دمشق، وسكن بمحلة باب السريجة".[1] ويبدو واضحاً أن تعلم الموسيقى والاستزادة منها كانت تتطلب الرحلة، كما يبدو في سيرة الشيخ الطواقي الذي رحل للشرق ولبلاد الروم ثم قطن دمشق[2].

ومن تراجم الرجال الذين رُصدت وفياتهم وعملوا بالإنشاد والذكر، نجد ذكراً لشيخ الطائفة الصمادية بالشام شمس الدين محمد بن خليل الصمادي المتوفى يوم الجمعة خامس عشر جمادى الأولى سنة 948هـ/1541م[3].

ويذكر ابن طولون أن شيخ الطريقة الصمادية كان في كل سنة "يقيم مولداً يدعو إليه أعيان الشام وطلبتها وصلحاءها ويمدّ لهم سماطاً ويكرمهم ويحسن قراهم"[4]. ويبين أن تلك الدعوات كانت تتزامن مع إقامة بعض العادات والفنون التقليدية ومن ذلك قوله: "واشتهر أمْره وأمْر آبائه من قبل في دق الطبول عند هيمان الذاكرين وانشداد الذّكر" ولكن تلك العادات كانت فيما يبدو سبباً في إثارة مواقف العلماء ضدها، ففي خبر وفاة الشيخ، أنه: "أنكر عليهم جماعة، واستفتي شيخ الإسلام شمس الدين بن حامد الصفدي وشيخ الإسلام تقي الدين ابن قاضي عجلون، فأفتيا بإباحته قياساً على طبل الحجيج"[5].

وتستمر اليوميات الدمشقية في القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي في رصد عادات المجتمع في مجال الفنون، وربما كانت المادة المقدمة عن أفراح أهل دمشق وعاداتهم تعدّ مصدراً هاماً للكشف عن حياة الناس وفنونهم.

يظهر من خلال اليوميات الدمشقية إسراف الدمشقيين في تقديم الضيافة عندما يحضر الوالي وقد يقلدون فيها غيرهم، ومن ذلك ما يحدثنا به ابن طولون من

---

(1) ابن طولون، شمس الدين محمد بن علي (ت: 953هـ/1546م) حوادث دمشق اليومية، صفحات مفقودة من كتاب مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، تحقيق أحمد أيبش، ط1، 2002م، دار الأوائل، دمشق، ص 110.

(2) الغزي، الكواكب، ج1، ص 153-154.

(3) ابن طولون، حوادث دمشق، 344.

(4) ابن طولون، حوادث، دمشق، ص 344.

(5) ابن طولون، حوادث دمشق، ص 344.

أن القاضـــي ابـــن الفرفور ضيف في بيته سنة 926هـ/1519م والي دمشق 'ضيافة عظـــيمة على طريقة الأروام من سقي السكر فيها قبل الأكل ولم يؤخره إلى فراغه كعـــادة الدمشقيين، ويصاحب الضيافة حضور المنشدين وإن من مشاهيرهم محمد ابن الجعيدي، الذين يتولون الإنشاد أمام الوالي أو المدعوين[1].

ويـــروي محمد بن كنّان الصالحي (ت: 1153هـ/1740م) في حوادثه اليومية أخبار جملة من الأعراس والأفراح والسهرات، التي تعكس تقاليد المجتمع الدمشقي وحـــبه للفـــنون ورغبته بالإقبال عليها، فترتيب الأعراس كما يبدو مرتبط بانعقاد مجـــالس السهر للرجال والنساء، ولأيام عديدة يتخللها تقديم الضيافة غير مرة وفي الوصـــف الآتي مـــا يشير إلى ارتباط مجموعة من الحرف بالأعراس، مثل المُدخلين، والمـــولدية وهي حرف مرتبطة بالرقص والإنشاد والغناء، إلى جانب حرف أخرى مرتبطة بالخدمات، ومما جاء في وصف فرح دمشقي في يوم السبت 27 ربيع الأول 1111هـ/1699م:

> [... وفي يـــوم الـــسبت عمل محمد آغا بن سليمان الترجمان فرح يحيى آغا بن طالو، الـــشاب الخـــالي العذار، وتكلف كلفة بالغة ودعوا باشة الشام حسن باشا، وقدموا لـــه تقدمـــة عظـــيمة مكلفـــة ما يساوي الثلاثمائة قرش، وأعطى الجاويشية عشرين قرشـــاً، والمُدخل كل واحد ثلاث قروش وكانوا سبعة أيضا، وللمشعلية نحو عشرة قـــروش، والعـــشية نحو العشرين، والشعالين نحو خمسة، المولدية نحو خمسة، وعشية للـــرجال وعـــشية للنساء، ومكث الفرح سبعة أيام، والضيافة واحدة الظهر والثانية العصر][2]

لا يقتصر البديري على ذكر أفراح أبناء الولاة، فهو يذكر العرس الذي أقامه مـــتولي أوقاف الجامع الأموي الشيخ إبراهيم الجباوي (ت: 1170هـ/1756م)[3]

(1) ابن طولون، حوادث، ص 128.

(2) ابـــن كـــنّان، محمد بن عيسى بن محمد الصالحي (ت: 1153هـ/1740م) الحوادث اليومية مـــن تـــاريخ أحـــد عشر وألف ومية، ط1، تحقيق أكرم العلبي، دار الطباع، دمشق 1994م، ص 23. وانظـــر: فرح مفتي دمشق حامد أفندي العمادي في أحداث سنة 1126هـ/1714م، ص 223.

(3) هـــو أبـــو يوســـف بن عبد الباقي بن أبي بكر الجباوي الخلوتي كان من كبار شيوخ دمشق المعتقدين كان من المقيمين في الزاوية الجباوية في محلة الشاغور البراني، وكان يغلب عليه الجذب والصلاح، أخذ عليه أنه كان يرتاد المقاهي. المرادي، سلك، ج1، ص 41.

والذي جاء في وصفه أنه: "أمر أن تزين الأسواق بالقناديل والشمع، وأمر أن تشعل منارات الجامع الأموي فشعلت..."[1]

يرتبط بالفرح الدمشقي عادة الإنشاد الذي يتقدم له أشخاص محددون كونهم رؤساء في صنعتهم، أو من أعيان المجتمع الدمشقي وبخاصة كبار العلماء، ففي فرح زواج ابـــن الشيخ علي بن محمد البعلي سنة 1130هـــ/1717م دعي علماء دمشق ووجهاؤهـــا وكـــبار محدثيها، وهذا من عادات أهل دمشق في الفرح والتي وقف عندها ناقدا الشيخ ابن علوان الحموي[2] في القرن الخامس عشر لأن دعوة العلماء والوجهاء كانت في رأيه من أجل المباهاة والمفاخرة[3].

ويؤكد ما جاء به ابن علوان وصف ابن كنّان عرس ابن الشيخ البعلي بقوله: "وحضر الشيخ عبد الغني النابلسي والشيخ محمد الغزي الشافعي[4] والسيد سعدي بـــن النقيب[5] مدرس الماردانية[6] وأنشد الرئيس الشيخ مصطفى الصالحي قصيدة

---

(1) أحمد بن بدير الحلاق (ت: بعد 1175هـــ/1762م) حوادث دمشق اليومية (1154-1175هـــ/ 1741-1762م) ط1، تحقيق أحمد عزت عبد الكريم، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، القاهرة، 1959م، ص 103؛ المرادي، سلك، ج1، ص 41.

(2) هـــو علي بن عطية بن الحسين الشهير بابن علوان الحموي الأصل الدمشقي الإقامة صوفي شـــاذلي أخـــذ عنه عدد كبير من علماء عصره، من كتبه مصباح الهداية ومفتاح الدراية في الفقـــه والنـــصائح لمهمـــة للملوك والأئمة وبيان المعاني وغيرها. الغزي، الكواكب، ج2، ص 207.

(3) ابن علوان، نسمات الأسحار، ص 346.

(4) هـــو محمـــد بن عبد الرحمن بن زين العابدين الغزي الشافعي الدمشقي مفتي الشافعية درس بالمدرســـة العمـــرية لمدرسة الشامية البرانية، وكانت له معرفة بالأنساب، توفي سنة 1167هـــ/ 1753م، المرادي، سلك، ج4، ص 53-58.

(5) هـــو ســـعدي بـــن عـــبد الرحمن بن محمد الحسيني الحنفي الدمشقي، كان عارفا بالهندسة والمساحة توفي سنة 1132هـــ/1719م، المرادي، سلك، ج2، ص 156-157.

(6) أوقفتها عزيزة الدين أخشا خاتون بنت الملك قطب الدين، صاحب ماردين، زوجة الملك المعظم عيسى، وقد بنيت المدرسة سنة 610هـــ/1213م وتقع في منطقة الجسر الأبيض. انظر: النعيمي، عبد القادر بن محمد (ت: 927هـــ/1520م). الدارس في تاريخ المدارس، ط1، تحقـــيق جعفر الحسيني، 2ج، المجمع العلمي العربي، دمشق، مطبعة الترقي، 1948م، ج1، ص 592؛ العلبـــي، خطـــط، ص 214، وانظر: سجل 29، حجة 342، ص 134، 12 جمـــادى الأولـــى 1119هـــــ/1707م" تعيين فضل الله البهنسي بوظيفة القراءة في الماردينية".

مطـــولة للـــصرصري[1]، ثم أخـــرى لمولانا محمد أفندي العمادي[2]، ثم حضرت الضيافة وهي الماورد والبخور، وانفض المجلس"[3].

---

(1) جمال الدين أبو زكريا يحيى بن يوسف، ولد في بغداد سنة 588هـ/1192م، وينسب إلى بلدة صرصـــر، واستشهد سنة 655هـ/1258م على يد المغول، اشتهر شاعراً صوفياً، له لكثير من المدائح النبوية، وكان عمره يوم وفاته 68 عاماً، أنظر: المقريزي، تقي الدين أبو العباس أحمـــد بن علي (ت: 840هـ/1436م) السلوك لمعرفة دول الملوك، ط 1، 1984م، القاهرة، دار نهـضة مـــصر، ج1، ص 156؛ مخيمـــر صـــالح، المـــدائح النبوية بين الصرصري والبوصيري، ط1، 1986م، الدار العربية، عمان، ص 23.

(2) هـــو محمـــد بـــن إبراهيم لعمادي الحنفي الدمشقي (ت: 1135هـ/1722م)، من أسرة تولت منـــصب الإفـــتاء الحنفي، ولد سنة 1076هـ/1665م، قرأ الفقه والنحو والمعاني وأخذ عن شـــيوخ عصره، وتولى إفتاء الحنفية في دمشق بداية سنة 1121هـ/1709م. المرادي، محمد خلـــيل بن علي (ت: 1206هـ/1791م)، سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، ط3، دار ابـــن حـــزم، دار البـــشائر، 4ج، بيروت، 1988م، ج4، ص 17؛ وانظر ترجمته أيضاً في المـــرادي، محمد خليل، عرف البشام فيمن ولي فتوى الشام، ط2، تحقيق محمد مطيع الحافظ ورياض مراد، دار ابن كثير، دمشق 1988م.

(3) ابـــن كـــنّان، الحوادث، ص 290. وانظر خبر فرح زفاف محمد آغا ابن موسى آغا كاتب العربـــي فـــي ســـرايا الشام، في أحداث سنة 1142هـ/1729م، وقد استمر الحفل ثلاثة أيام "آخـــرها ليلة الجمعة". ص 400. ويلاحظ ذكر ابن كنّان أحيانا عبارة "ولم يأخذ شيئاً" بمعنى الـــنقوط. وانظـــر خبر فرح سي علي بن دعبول الشاغوري، يوم الأربعاء 11 ربيع الثاني، 1148هـــ/1735م وفـــي الخبر: "ودعا خلقاً كثيراً ولم يأخذ من أحد شيئاً بعد الكلفة البالغة، وبقي الفرح أياماً". ابن كنّان الحوادث، ص 468.

II

الأعراس والعراضات

الفرح ممارسة، وتقليد متوراث، يحمل في عاداته موروثاً ثقافياً غائراً في القدم، أو مقتبساً جراء التداخل والتعدد والجوار الثقافي، وفي الأفراح الدمشقية يعبر الناس عـــن سعادتهم بأشكال كثيرة تختلف من فئة إلى أخرى، وتلعب القدرة الاقتصادية لفئات المجتمع[1] دوراً في شكل التعبير عن الفرح.

فأفـــراح الفقراء يبدو أنها تغيب عن المصادر التاريخية ربما لبساطتها أو نتيجة لاختـــيار المؤرخين لما يرون أو يسمعون من أخبار، وهي بلا شك ممارسة منحازة للغـــنى، لذا فقد انساق المؤرخون وراء إظهار حفلات الأعيان التي بحسب المصادر التاريخـــية تميـــزت بكلفتها الباهظة، ونظر المؤرخون إليها على أنها مناسبة لإطلاق الرغبات والشهوات الأمر الذي يصل إلى حد مخالفة الشرع وارتكاب المعاصي[2]. وثمة أخبار عن أفراح الأعيان ورجال الدولة، يظهر أن النظرة إليها كانت من زاوية مدى مساهمة الأفراح في عكس أهمية صاحب المناسبة ومنـــزلته في المجتمع[3].

في مقابل أخبار المؤرخين التي ترد عن بعض الأفراح الدمشقية، والتي لا تخلو رواية أخبارها من طابع التحسر؛ والندب على ما فيها من بذخ وتجاوز للشرع أو التندر والابتهاج، هناك نظرة أكثر نقداً وهي التي أخذت على الدمشقيين إسرافهم وتبذيـــرهم، ولجـــوء بعضهم إلى تجويع وإفقار أسرهم من أجل مجاراة الأغنياء في أفراحهم، كما تبدو تلك النظرة نقداً لاذعاً لبعض عادات الأعراس الدمشقية.

---

(1) حـــول الاقتـــصاد الاجتماعي والسياسي للدخل والثروة في المجتمع الدمشقي انظر: زهير غزال، الاقتـــصاد الـــسياسي لدمشق خلال القرن التاسع عشر، بنى تقليدية في عصر رأس المال، ترجمة ملكه الأبيض، وزارة الثقافة، دمشق، 2008م. وانظر حول مدخول العلماء ومصروفهم دراسة:
Barbir, Karl.K Getting and Spending in Eighteenth Century. Damascus. Wealth at Three Social Levels. In: Tamimi.A. Social Dans les Provinces Arabe a le Kogue Ottoman, Tome 3. Zaghoan,1988. Tome. 3. p. p. 61-76.

(2) البديري، حوادث، ص 38.

(3) انظر: ابن كنّان، الحوادث، ص 23.

جاء في نص محمد كرد علي المتأخر نسبياً، أنه بعد أسبوع من تقديم خاتم الخطبة يقـوم العـريس بدعوة الأعيان وأقاربه فيجتمع المدعوون في المحل المعين ويجرب افتتاح **الحفلـة** "بقراءة المولد وتدر المرطبات وقراطيس الحلوى على المدعوون بعد عقد قران الزوجين الشرعي وينفض المدعوين وتنتهي حفلة العقد بدفع المهر المقرر، وبعد شهرين أو ثلاثـة غالباً يذهب وفد نسائي من قبل العريس بعد أن يتأكدن من أن أهل العروس أتموا اللازم ... ويدعى إلى تلك الحفلة المغنيات و لمطربات ويقضين تلك الليلة بعد دخول العريس بعروسه غرفة خلوتها بالغناء والرقص وسماع الموسيقى.." .[1]

لكن في فترة مبكرة من التاريخ العثماني لمدينة دمشق يأخذ علي بن عطية بن علـوان لدمشقي الحموي (ت: 936هـ/1529م)، على الأعراس الدمشقية إثارتها للـبدع، والبذخ الزائد في كلفة الأعراس، ويسمح لنا كتاب ابن علوان "نسمات الأسحار" الاقتراب بشكل دقيق من عادات الخطبة وتقاليدها والممارسات التي تتم فيها طقوس الزواج، هذا إلى جانب نقد واضح يبينه النص التالي:

> [... وقـد يرسـل بعض الناس طعاماً لحماً وطعاماً على رأس الحمال مكشوفاً رياءً وسمعـة لـيقال هذا عشاء فلان ثم يوجه إليهم جماعة من الأغنياء ورؤوس الحارات الأغنـياء ولا يلتفت إلى المسكين الفقير فإذا جرى العقد أبى أهلها – أي العروس – أن يكتبوا ذلك إلا على حرير نحو ذراع أو أكثر إسرافا وتبذيرا قرب الدخول وحان الوصـول اجتمع أهل محلة الزوج كبيرهم صغيرهم، وصحبوا معهم البغال، وأكثروا مـن الـصخب والجدل، توجهوا إلى محلة الزوجة لجهازها فيتلقاهم أهل تلك المحلة بالمدافعـة والمشاقة والممانعة، وطلبوا منهم رؤوساً عديدة من الغنم، وقالوا إن لم تأتوا بهـا لا تطيقون أخذ ما جئتم بصدده، فيقولون إذا كان الأمر كذلك فقوموا بواجب حقنا عليكم في المآكل الكثيرة..][2] .

ويـتابع ابن علوان رصده لعادات الدمشقيين في لحظة خطبة زفاف العروس، ويـستمر في نقـد الإنفـاق الزائد وتحمل أهل العريس ما لا طاقة لهم به: وتجويع البعض أسرهم وإهانة الزوجة من أجل المفاخرة و لتباهي فيقول:

---

(1) كرد علي، خطط، ج6، ص 285.

(2) ابـن علوان، نسمات، ص 346. وقارن بـ ابن كنّن، الحوادث، ص 23، 223. وقد قامت نشوة علواني باقتطاع الفصل الخاص بالأعراس الدمشقية من نسمات الأسحار، ونشرته في: الـشام أعراسـها وفـضائل سكانها، لعلي بن عطية العلواني (936هـ/1529م) ط1، مكتبة الغزالي، دمشق. 1997م.

[.. فيذهب كل فاسق منهم إلى بيته وينهر زوجته، ويأمرها بالقيام إلى تحصيل الضيافة والطعام، فيلعنها ويلعن أباها وإخوتها، وفي الحقيقة ما لعن إلا نفسه، وربما يكون الإنسان منهم فقيرا لا يملك إلا قوت ليلة وعنده أولاده يتضاغون من الجوع، ويحمل قوتهم في طاعة الشيطان، وربما يصنع بيضا ولحماً وأولاده الصغار يبكون مع أمهم فلا يدفع لهم ما يهجعهم ويقول يبقى المقلى يعني الإناء الذي يقلى فيه ناقصا، وهذا عيب وفضيحة..][1]

ويمضي ابن علوان في وصف تلك العادات التي تنتشر فيها مظاهر البذخ مع البدع والرياء والتكلف من أجل تحاشي النقد أو التقصير أمام الناس، مع إهمال الفقراء والعناية بالوجهاء فيقول:

[... فإذا أكلوا السحت... رفعوا الحلي على رؤوس الحمالين وفرحوا بما يجب الحزن عليه، وانتشر النساء والرجال مختلطين في الأسواق والأزقة رافعين الأصوات والزغاليط قاصدين المفاخرة والمكاثرة فإذا كانت ليلية الدخول وقعوا في أمور منها الإيلام بالبدع والرياء والسمعة وذلك أن بعضهم ربما يكون فقيراً فيتدين ويتكلف فوق طاقته قاصدين بذلك تكثير الطعام أو تحسينه لئلا يعاب عليه بتقصيره عن القدر الذي أولم به جاره ثم يشرع في دعوة الغني الوجيه ويغفل عن الأرملة الفقيرة والمسكين اليتيم أو يكلهم على لحس الأواني، ومما انتشر أن بعض الناس يدعون أكابر العلماء وأعيان الناس والأمراء فلا يطيقون التخلف عنها لوجوبها وقصده مفاخرة جيرانه ومباهاتهم فيقول كان عندي الشيخ فلان والأمير الفلاني والكبير الفلاني...][2]

بعد ذلك، تأتي فرقة من الموسيقيين وأهل الرقص الذين يطلق عليهم ابن علوان مصطلح الشاباش[3]، ويستدل من نص ابن علوان ما يدلل على معنى

---

(1) ابن علوان، نسمات، ص 347.

(2) المصدر نفسه، ص 347.

(3) الشاباش في العامية الدمشقية صيحة إعجاب بشخص يبدي سخاءه في محفل من الناس، وهي من التركية أو الفارسية Bach Chad وتعني كن سعيداً وقيل معناها مرحى وهي لفظة يقولوها الراقصون والمغنون للحاضرين بعد الانتهاء من تقديم حفلهم، أو بعد أن يرمي لهم أحد الحاضرين بشيء من المال أو الهدايا تعبيراً عن استحسانه وانبساطه فيرفعها المغني أو الراقص بيده ليريها للمجموع كأنما يحرضهم على الاقتداء بالمُهدي ويقول: شاباش من فلان... على عيني وراسي وما إن ينتهي من جملته حتى تأخذ النساء بالزغاريد والهلاهل بصوت مرتفع. وهناك من يرى أن اللفظة آرامية من الفعل شبش بمعنى تعلق وقاد وأرشد، غير أن الراجح أن اللفظة أعجمية. انظر: ياسين عبد الرحيم، موسوعة العامية السورية، ج3، ص 795-796.

مــصطلح الــشاباش، بقوله: "تقع المفاخرة والمغايرة بين الأقران ويستحوذ عليهم الشيطان ويحصل العجب فينفقون أموالهم رياء وسمعة"[1]. ومن ثمّ ينتقل المشركون في الفرح إلى مرحلة تالية، وهي الذهاب إلى الحمام، حيث يقيمون حفلاً للعريس، ويوقد الذاهبون وهم سائرون إلى الحمام الشموع "وهم يهللون تهليلاً ويقعدوا بين يــدي العــريس متــشبيهن بالمجــوس.."[2]. وفي الحمام يقوم الحلاق بقص شعر العــريس[3]. وعندما يلبس العريس ملابس العرس يتوالى أقاربه بالأهازيج والغناء: "في حفلة تدوم ساعتين تطرب الحضور ويهزج الشباب عادة عند لباسه كل قطعة من ثيابه بأهازيج وطنية عامية بحسب كل عصر.."[4].

يخــرج العــريس من الحمام، محفوفا بالشموع والغناء بما يسمى العراضة مع إطلاق البارود[5] ينظمها الرجال على شكل موكب بديع يشارك فيه المحتفون كل في المكــان المخــصص لــه ويــرددون الأهازيج وفق العرف الذي سارت عليه العراضــات، وغالباً ما يرتدي المشاركون لباساً شعبياً موحداً هو اللباس الدمشقي التقلــيدي الذي يتألف من الرداء والحزام والسروال الأسود الواسع، ويحمل بعض المشاركين السيف والترس أو ربما يحملون قضبان الخيزران[6].

وتــؤكد المــصادر المحلــية على بذخ الدمشقيين في الأعراس بتنظيم الولائم الــضخمة[7]، ولعل ذلك الإسراف في الزواج كان سبباً في توجيه ذلك النقد الذي أظهــره ابــن علوان، وخلال القرن الثاني عشر/الثامن عشر يوجه محمد بن حسين الــنحوي الصيداوي الدمشقي الحنفي (كان حياً 1170هــ/1756م)، نقداً لعادات الزواج واختيار الزوجة في عصره فيقول: "

---

(1) ابن علوان، نسمات، ص 348

(2) المصدر نفسه، ص 349.

(3) منيــر كــيال، منيــر كيال، ياشام في التراث الشعبي الدمشقي، تنضيد اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1984م، ص 230.

(4) كرد علي، خطط الشام، ج5، ص 285.

(5) عراضة، إطلاق البارود في محافل الفرح، وهي مأخوذة من العُرضة وهي ما يعرضه المائر أي يُطعمه من الميرة. ياسين عبد الرحيم، موسوعة العامية السورية، ج3، ص 1023.

(6) جمــال مشاعل، العراضة الدمشقية أهازيج فولكلورية راقصة، مجلة فنون، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، الكويت، آذار 2005، العدد 51 ص 46-47.

(7) بن الحمصي، حوادث الزمان، ص 518.

[.. وأخاف عليكم فتنة السرّاء وإن من أشدها لكم عندي النساء إذا تحلين الذهب والفضة ولبس ريط الشام وعصب اليمن فاتعبن الغني وكلفن الفقير ما لا يقدر.. سئل حكيم عن الزواج فقال فرح شهر وترح دهر ووزن مهر ودق ظهر وقال آخر إذا قبل الرجل ملك فقد هلك..][1]

وتعد العراضة مناسبة لإطلاق الأهازيج الجميلة التي يرددها الوصاف وهي تعد أول شروط العراضة، وتتألف الأهازيج من الأراجيز التي يردد المشاركون العبارة الأخيرة فيها وتأتي كجواب على نغمة الوصاف التساؤلية، وأهازيج العراضة دائماً تكون أراجيز خفيفة الوزن منسجمة التعابير، بسيطة الأسلوب، تستسيغها الأسماع، وترتاح إليها النفوس، وفي الأعراس لا تخلو أهازيج الوصافين من دعابات تحلو للمشاركين والسامعين من رجال وشباب وأطفال[2].

ومن الأغاني الشعبية التي تردد في عراضة العرس ما يسمى الطقطوقة وهي الأغنية الشعبية الصغيرة ذات اللحن الراقص السريع، والهوبرة وهي مجموعة من الكلمات الزجلية تقال في العرس والختان والولادة والعودة من الحج، ويقال في العرس الدمشقي: "عريس الزين يتهنى وأطلب علينا واتمنى عريس الزين يا غالي أفديه بالروح والمال" وهناك الزجليات التي تكون حاضرة باستمرار في الزفة الشامية ومما يردد فيها: "شن كليلة شن كليلة... شو هالليلة... الله يعنيه ع هالليلة ومن هالليلة صار له عيلة"[3]، وهي من أغاني الشوباش التشجيعية.

وينطلق جميع المشاركين في موكب العراضة المؤلف من رجال الحارات أو أعيان البلد والحكمة ".. وكان له زفة من الحمام إلى منزله، وكان سائر الدولة ماشية قدامه بشموع.."[4] ومن معهم من الصبيان بعصيهم (النبابيت) وسيوفهم

(1) الصيداوي، محمد بن حسين الدمشقي الحنفي (كان حياً 1170هـ/1756م)، الكشف والبيان عن أوصاف خصال شرار أهل الزمان، مخطوط رقم 5162 مجموعة الظاهرية، مكتبة الأسد، دمشق، ق 89-90.

(2) المصدر نفسه، ص 46.

(3) وإلى جانب تلك الأغاني هناك الدور، وهو نوع من الغناء يكون فيه وصله زجلية ذات لحن معين تتردد بين كلام مقطع وآخر وغنى الأدوار في الألعاب أو في الفرح مثل: طالعة من بيت أبوها..." انظر: عدنان العطار، تقاليد الزواج الدمشقي، البدوي والريفي والحضري، دار سعد الدين، دمشق، بدون تاريخ، ص 133.

(4) ابن الحمصي، حوادث، ص 518.

ولها قائد هو الوصاف الذي يردد الآخرون خلفه ما يقول، ومن ثم تأتي طائفة الشباب العزاب (غير المتزوجين)، وبأيديهم العصي والتروس الجلدية ليلعبوا بالحكم أثناء سيرهم وحولهم طائفة كبيرة مثلهم يشهرون سيوفهم ولهم عقيد (رئيس) يرددون ألفاظه[1]، وتليهم طائفة المتزوجين وبيد كل منهم فانوس كبير مضاء على صفين جنباً إلى جنب، تاركين بين الصفين فراغاً حسب اتساع الطريق، وينتهي طرفا هذين الصفين بشكل هلال بجماعة العريس. فيقف العريس في الوسط وعلى يساره والده أو عمه وبعض الوجوه، وبعد أن يستكمل الترتيب على هذا الشكل يقف آمر جماعة الفوانيس وهو قائد أفراد الموكب جميعاً ليبدأ بالأهازيج[2].

في أعراس العامة قد يكون ترتيب العراضة أقل كلفة، فالعريس ووالده وأشقاؤه وأقرباؤه يتقدمون الموكب، الذي يرفع شابان فيه فانوسين كبيرين فوق رأس العريس وسيفين، ويسير إلى جانب العريس المختار وإمام المسجد وبعض الوجوه والجوار وأقارب العريس وأصدقاؤه لذين لا يتوقفون عن نغز العريس بالدبابيس على سبيل المداعبة، تذكيراً له بالمسؤولية التي أقبل عليها، ويتوزع حملة الفوانيس ما بين مقدمة الموكب وعلى جانبي اعريس وبين الجموع، وربما يشترك في العراضة أكثر من حي، وذلك حسب مكانة عائلة العريس الاجتماعية[3]، وتأخذ عراضة العرس مكانة خاصة بين عراضات المناسبات الأخرى؛ لأنها تنقل مشاركة أهل الحارات وتصور علاقاتهم الاجتماعية[4] وفي حفلات العرس تقدم العصائر صيفاً والقرفة شتاءً[5].

توفر حوداث ابن طولون الصالحي وصفاً لعرس أحد أبناء زعران الحارات، وهو وصف يحمل الكثير من الدلالة، فالنص يكشف عن حضور أئمة الحارات

---

(1) ابن علوان، علي بن عطيه بن الحسن الدمشقي الحموي (ت: 936هـ/529م)، الشام أعراسها وفضائل سكناها، تحقيق نشوه علواني، دار الغزالي، دمشق، 1997م، ص 12.

(2) ابن علوان، الشام أعراسها، ص 21.

(3) منير كيال، ياشام في التراث الشعبي الدمشقي، تنضيد اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1984م، ص 243.

(4) كيال، ياشام، ص 243. وينقل جمال مشاعل في مقال العراضة الدمشقية عن منير كيال دون أن يشير إليه.

(5) قساطلي، الروضة الغناء، ص 97.

الرئيسة في دمشق، وهو ما يشير إلى مقام العريس ومنـــزلته كما يبين الوصف خط ســـير العراضـــة وموكب الفرح بين الأحياء ويشير إلى أن الحكام أمدوا المشاركين بالخيول ومما جاء في الوصف:

[.. وفي يـــوم الإثـــنين تاسع عشره كانت زفّة ختان الولد محمد بن الأزعر أحمد بن قبعـــية، الحائك في الكتان، وكانت هائلة، عزم والده فيها الشباب من حارات دمشق وضـــواحيها، كالـــشاغور، والقبيـــبات، وكفـــر سوسيا، والمزّة، والقابون، وبرزة، وحرستا، واجتمعوا بالصالحية عند الجامع المظفر بالعدد الكاملة، والأقمشة المفتخرة، وأعـــارهم الحكـــام عـــدّة خيول ملبّسة، قيل سبعة، وجاءت الحراستة معهم بنقورهم ملبّـــسين، وعمل بعض الحيّاك له نولا محمولاً على دابتين، ينسج فيه... ونـــزلوا من الـــصالحية، خلا النول المذكور، على درب الشبلية، وداروا دورة دمشق على باب الجابـــية، ثم الـــشاغور، ثم الـــشيخ رسلان، ثم السبعة، ثم مسجد القصب، ثم حارة المزابل، فوقع بينهم وبين أهلها بسبب أن من في الزّفة قيسية، وأهل هذه الحارة يمنيّة، وبيـــنهما من العداوة ما لا يخفى، فجرح بعض ناس، ولولا لطف الله حصل، بوقوف نائـــب الغيبة ثمة، لحصل شر عظيم، فحال بينهما، ثم عادوا إلى الصالحية على طريق الجسر، ومعهم الطبول والزمور والمغاني والمخايلة وغير ذلك][1].

أمـــا سير العراضات فيقول منير كيال: "ما إن تسير العراضة حتى تتشكل في مجمـــوعات يقـــود كل واحدة منها شاب هو الوصاف محمولاً على الأعناق وقد امتـــشق ســـيفاً أو بندقية، والجميع يرددون الأهازيج، وكلما وصلت العراضة إلى مـــصلبة (تلاقـــي طرق) أو سوق أو مسجد تعقد راية لأهل المحلة وتقام الألعاب بالسيف والترس والحَكَمْ أي المبارزة بالعصي والتروس الجلدية. عندئذ يتجمهر الناس ويرشـــون جماعات العراضة بماء الزهر، ويجلس الشباب القرفصاء على هيئة دائرة يتوســـطها الوصـــاف ويتـــصدر المكان العريس وصحبه يستمعون إلى ما يردده المتحلقون وهم ينقرون على الأرض بنبابيتهم الخيزرانية وهم يرددون:

الوصاف: بنتك يا خالي أخذت عقلي.

ويرد الجميع: أخذت عقلي.

الوصاف: بلحاف القطن لفتني، بلحاف القطن.

يرد الجميع: لفتني.

---

(1) ابن طولون، مفاكهة، ج2، ص 105.

الوصاف: دقيت الباب وفتحت لي، دقيت الباب.

يرد الجميع: وفتحت لي.

الوصاف: بنتك يا خال

يرد الجميع: أخذت عقلي[1]

يستمر شباب الحارات والعراضات في إنشاد الأهازيج والأغاني، التي لا تخلو من دعابات تقرع بالعجائز والعزاب ومن ذلك قولهم:

شدوا الطوق والجنـــزير

وكبوا العجايز بالبير

وخلو الصبايا تتفتل

لها الشباب الحلوين

وحين يقتربون من مكان الزفة، يردد المشاركون مع الوصاف:

يا مليحة هاوديني (طاوعيني)

وإن أخذتيني خذيني (خذيني)

وأن أخذتك لأحرق دلك

على صديرك لاعبيني[2]

وعند وصول العراضة، تشارك أم العريس وأم العروس في الغناء، وفيما تدل أغنية أم العـــروس علـــى رفعة العروس وأهلها، فإن أمّ العريس تقدم أغنية مشهورة تشير إلى الـــتقارب في مـــستوى العروسين ومطلع الأغنية"[3]. ومن الطقوس الهامة عند وصول العـــروس إلى بـــاب دار العريس وضع كرسي تصعد عيه العروس فتقف عليه وتعطى قطعـــة من خميرة العجين فتلصقها على الباب تيمناً في أن يكون مقدمها خيراً وبركة، وتدخل الدار فتستقبلها النسوة المنتظرات لها من أهل العريس بالزغاليط وهن يرددن:

أوها: أمشي دئا دئا (الهوينا)

أوها: ويا صنوبر منئى (منقى)

---

(1) كيال، يا شام، ص 244.

(2) كيال، يا شام، ص 246.

(3) تقول أم العريس: قومي انزلي يا حلوة...". العطار، تقاليد الزواج. ص 137.

أوها: كل الفرحات بطالة

أوها: إلا ها الفرحة من حنا (حقيقة) ... لي لي .. ليش[1]

أما العريس فيتم استقباله، بأهازيج ورصاص وينفض جمع العراضة بعقد راية العـــريس والحاضـــرين وينـــصرف القوم وهم يرددون: عريس الزين يتهنا ... ثم يودعـــونه بقولهم: خاطركم رايحين نروح استروا ما شفتوا منا[2]. ويمسك بالعريس والده ويدخله المنـــزل ويكون ظهره إلى داخل المنـــزل فيشتد حماس النسوة وتعلو الزغاليط ومنها: أوها: صلو ع محمد ... أوها: ويلي ما بيصلي عليه... أوها تطء مراراته... لي لي... ليش[3].

وفي المـــرحلة التالية تستلم النسوة العريس، في غرفة الصمده ويحضر للعريس مجلس مرتفع، ولا تخلو تلك الحفلات ومظاهر الاحتفال من نظرة استنكار لما فيها من تجاهل للشرع وهذا يصفه ابن علوان الدمشقي بقوله:

[.. ثم المـــصيبة العظمـــى والداهـــية أن نساء المحلة وغيرها يجتمعن في داره مع الزينة والتحلـــي بالـــذهب بين أيديهم الشموع الموقدة والوجوه بادية والزينة ظاهرة فيدخل الـــزوج للجـــلا بـــل للعمـــى والظلام فيتلقينه بالشمع والزغاليط وهن سافرات عن وجـــوههن مبديات لزينتهن فتتعضده امرأتان من أقاربه وواحدة عن شماله فيدخل معهن علـــى النساء الأجانب وربما يدخل معه شبان بالغون من الأقارب كاخيه البالغ أو ما في معناه، وهناك يجلس على مكان رفيع فتتقدم كل امرأة وتلصق الدراهم في عينه ورائحة الطـــيب مـــنها تفـــوح عينها محدقة إليه لامحة..ثم تخرج العروس الملعونة هي وماشطتها الشريكة في اللعن، في شيء يقال له الشابوش.. فإذا خرجت وامتثلت بين يدي الزوج قـــام وكـــشف لها شيئا يقال له الجلاية عن وجهها[4]، وأخذت تتمقصف وتتكسر في حركاتها وتتفتل وكلما دارت مره لصق الزوج ومن معه كأخيه البالغ والمراهق...][5]

---

(1) كيال، يا شام، ص 233.

(2) كيال، يا شام، ص 248.

(3) المصدر نفسه، ص 248.

(4) يطلـــق على جلاية مصطلح الجلوة أو غلالة التول وهي تغطي وجه العروس. كيال، يا شام، ص 248. وفـــي بعـــض مـــناطق بلاد الشام الجلوة هي مشي العروس وهي تحمل الشموع وتتبختـــر مـــشياً مـــع بعض الأغاني الخاصة ويدخل العريس ويطفئ الشموع التي تضعها العروس على الأرض بقدميه.

(5) ابن علوان، نسمات، ص 353-354.

بعـــد ذلك يذهب العريس والعروس إلى غرفتهما، ومما هو طريف في العادات الدمـــشقية، حضور أم العريس مع العروسين، والحضور هنا لها وظيفة إظهار أهمية الحماة بحيث تبدو الكنة خاضعة لها هي وعريسها، بغية إظهار سلطان الحماة على الكنة وفي ذلك يقول ابن علوان:

[.. وأعظـــم من هذا أنه إذ دخل العروسان البيت قامت أم الزوج ففشخت رجليها مع صدعي الباب أي عضادتيه ولا تمكن الزوجين من الدخول إلا بعد انحنائهما فإذا اســـتقرا في البيت تطلع النساء عليهما من الكوات وجلسن ينتظرن الصياح ويرقبن أحـــوالهما إلى أن يعلـــو صياح العروس فإن لم يُسمع له صوت طوقن الباب عليهما وحـــركن عـــزمهن هـــذا وقد علمن الزوجة الممانعة وحرضنها على عدم المضاجعة وألبسنها سروالا عقدن عليه كذا وكذا عقدة ...][1].

في مقابـــل خـــضوع العروس للكنة قد تلجأ إلى أن تدوس على قدم عريسها كناية عن فرض شخصيتها على زوجها[2]، ولعل بعض العادات الدمشقية في ليلية العـــرس ما زالت متوارثة حتى اليوم في بلاد الشام كافة. وهذا ما يظهر استمرارية تلـــك الـــثقافة، حـــين تحاط ليلية الدخلة بأجواء الترقب والتحسب، في كثير من الأريـــاف والقرى الدمشقية وسائر بلاد الشام، وترتبط بذلك الكثير من الحكايات التي تصل حد الغرائب والعجائب أحيانا[3] لكنها في ذات الوقت تعكس مدلولات ثقافية حول شكل الاحتفال الطقسي الدمشقي بخاصة أو الشامي بعامة.

---

(1) ابن علوان، نسمات، ص 353.

(2) كيال، يا شام، ص 249.

(3) يـــرى منيـــر كيال أن عادة فشخة الرجلين من قبل أم العريس وتقبيل العروس ليدي الكنة قد انقرضـــت، كـــيال، يا شام، ص 249. بيد أن الأجواء التي تصاحب العريس ليلية الدخلة لا تـــزال موجـــودة فـــي الأريف في بعض مناطق بلاد لشام، وبخاصة تلك المرتبطة بإظهار عذرية العروس وإثباتها بإخر ج قطعة من القماش الأبيض التي يظهر عليها الدم.

III

طهور أولاد الأغنياء وكبار الزعران والفقراء

تــبدو حفلات الختان موازية للأعراس من حيث درجة تكرارها وتقاليدها، وهي إما أن تكون فردية أو جماعية، ويبدو جليا فيها الفارق بين ختان أولاد العامة وأولاد الأمـــراء والأعيان، فعند النظر في مادة تاريخ ابن طولون نجد في أخبار شهر جمادى الأولى سنة 926هـ/1519م وصفاً لزفة ختان أحد كبار أولاد الزعران وقد جاء فيه:

> **"وفي يــوم الاثـــنين تاسع عشر كانت زفة ختان الولد محمد بن الأزعر أحمد بن قبعية الحائــك في الكــتان، وكانــت هائلة، عزم والده فيها الشباب من حارات دمشق وضــواحيها.. واجــتمعوا بالــصالحية عند الجامع المظفر بالعدد الكاملة والأقمشة المفتخرة وأعارهم الحكام عدّة خيول ملبّسة، قيل سبعة..."[1].**

تظهــر حفــلات طهــور أولاد الخاصــة فارقة، ففيها تتزين أسواق دمشق وشـــوارعها، وذلك ما حدث في شهر صفر سنة 1156هـ/1743م في حفل أقيم بــسبب ختان ولد الوزير سليمان باشا العظم[2] أحمد بيك وجاءت صورة الحفل كالآتي:

---

(1) ابن طولون، مفاكهة، ج2، ص 105.

(2) هو سليمان بن إبراهيم العظم (ت: 1156هـ/1744م)، كان والياً على طرابلس ثم صار أميراً (لجردة) قافلة الحج، ثم صار والياً على صيدا ودمشق ومصر، توفي سنة 1156هـ/1743م، انظــر: بــريك، الخوري ميخائيل (ت: بعد 1197هـ/1782م)، تاريخ الشام 1720-1782م، ط1، علــق عليه قسطنطين الباشا، مطبعة القديس بولس، لبنان، 1930، ص 8؛ المقار، محمد بن جمعة (ت: بعد 1156هـ/1743م)، الباشاة والقضاة، نشره صلاح الدين المنجد في: ولاة دمشق في العهد العثماني، دمشق 1949م، ص 69؛ القاري، رسلان بن يحيى (ت: 1132هـ/1719م)، الوزراء الذين حكموا دمشق، نشره صلاح الدين المنجد في: ولاة دمشق في العهد العثماني، دمشق ص 78؛ 156.

[.. وكـــان في الجنينـــة التي في محلة العمارة، وجمع فيه سائر الملاعب وأرباب الغناء والـــيهود والنصارى، واجتمع فيه من الأعيان والأكابر من الأفندية والآغوات ما لا يحـــصى، وأطلق الحرية لأجل الملاعب يلعبون بما شاءو من رقص وخلاعة وغير ذلك ولا زالـــوا على هذه الحالة سبعة أيام بلياليها، وبعد ذلك أمر بالزينة فتزينت أسواق الشام كلها سبعة أيام بإيقاد الشموع والقناديل، زينة ما سُمع بمثلها، وعمل موكباً... وفـــيه الملاعب الغريبة من تمثيل شجعان العرب وغير ذلك، وثاني يوم طهّر ولده أحمد بيك وأمر من صدقاته أنه يطهر أولاد الفقراء وغيرهم ممن أراد ...][1]

يكـــشف الـــنص السابق عن مشاركة اليهود والنصارى في الفرح كونهم من أربـــاب الغناء، ومثل هذه المشاركة، يمكن لها أن تضيف دورا جديدا لغير المسلمين في المجـــتمع الدمشقي، فبالرغم من ندرة أخبارهم في الحياة العامة، فإن ظهورهم في الخـــبر اليومـــي في هذه المرحلة يفسره أمران، الأول: مرتبط بحالة من الانتعاش في موقـــع غير المسلمين في المجتمع إبان حكم ولاة آل العظم، وهذا ما تؤكده لنظرة الإيجابية التي يرى بها المؤرخ ميخائيل بريك الدمشقي (ت: بعد 1197هـــ/1782م) حقـــبة ولاة آل العظـــم[2]. والأمر الثاني: اختصاص عدد من اليهود والنصارى في حـــرف الغـــناء والموسيقى، وهو ما تؤكده إشارة البديري الحلاق في أحداث سنة 1160هـــــ/1747م التي تبين ورود ثلاثة من يهود حلب إلى دمشق "... لهم مهارة في ضرب الآلات بأحسن النغمات..."[3].

وفي الفلكـــور الدمشقي تعقد حفلات الختان الجماعي للأطفال، وتنظم فيها حلقـــات الدبكـــة ومبارزات السيف والترس ولعبة الحكم، ويشارك وجهاء الحي وأبـــناؤه أحياناً وجهاء الأحياء المجاورة فيتقاطرون أيضاً بالعراضات، وما إن تلتقي

---

(1) البديري، حوادث، ص 38

(2) يعتبر ميخائيل بريك الدمشقي أن من أسباب ودواعي تأليفه لتاريخه ظهور مذهب الكاثوليكية و"لأجـــل أنـــه فـــي هذا الزمان ظهر طائفة من بيت العظم وصاروا وزراء.." بريك، تاريخ الـــشام، ص 2. وتـــنعكس تلك النظرة في تقييم بريك لحكم أسعد باشا العظم الذي يبدو بريك معجـــباً به لأنه: "أخذ من حمص نصارى أخوة وهم نعمة ويوسف وعملهم يازجية... وكان حكم عادل غير ظالم غير جزار..." بريك، تاريخ، ص 7. وحول حقبة آل العظم انظر:
Abdul -Karim Rafeq. The Province of Damascus 1732-1783, Berouth, 1966 pp 144-160.And see: Shamir, Shimon. Asa'd Basha Al-azm and Ottoman Rule in Damascus 1743-58."B. S. O. A. S.", Vol. 26,1963, pp 1-20

(3) البديري، حوادث، ص 95.

هـــذه العراضات مع عراضة الحي حتى تجري مراسم الاستقبال لها، ويتقدم الجميع موكب المحتفى بهم وهم عادة مجموعة من أبناء الحي من الأهل والجوار، وقد ارتدى كـــل مـــنهم قفطاناً (قنبازاً) حريرياً أبيض على الأغلب مطرزاً، وقص شعر رأسه وزيـــن ذلك الشعر بأكاليل المجوهرات أو الورد، فيمتطي كل منهم فرساً أو رهواناً (حصاناً صغيراً) مزيناً بالأجراس وأطواق الخرز، وذلك لكي يلفت شكلهم الصغار فيبهجهم وينسيهم آلام الختان[1].

ولـــدى وصـــول المـــوكب إلى ساحة (مصلبة) الحي تعقد الرايات للضيوف والوجهاء وأهل المحتفى بهم، وعقد الراية في هذه المناسبات لا يختلف عن عقدها في عراضـــة الأعراس، وفي الساحة يتبارز الشباب بالسيف والترس أو بالحَكَمْ، ويشتد حمـــاس الجمهور ويشارك أصحاب المحلات المحتفين فرحتهم بإطلاق عيارات نارية وينحـــرون الخراف ويرشون ماء الزهر والورد على جمهور العراضة وعلى المحتفى بهم[2].

وحـــال وصول العراضة إلى مكان الاحتفال تنطلق الزغاريد ويزداد الحماس، ويأخذ كل من الضيوف والوجهاء مكانه، ويتحلق الشباب في عراضة بالقرب من المزين، ثم يؤتى بالصبية كل على انفراد، فيمسك أحد الشباب الأقوياء بالواحد من الصغار حتى لا يستطيع الصبـــي حراكاً وفي هذه اللحظة ينطلق سرب من الحمام ويعلو صوت الشباب:

صلوا على محمد (صلى الله عليه وسلم)

مكحول العين ... نير وغضير. (اصبر واتحمل)

وعادنا ... وهيه

يا صلاتك يا محمد (صلى الله عليه وسلم)

هيه لنا ... هيه لنا هي..

ووســـط هذا الصخب لا تسمع أصوات الصبية الذين يكون متأثرين بالجرح الذي يحدثه الختان ويتصل بمظاهر الفرح والفنون الحفلات الخاصة التي كانت تعقد

---

(1) كيال، يا شام، ص 40.

(2) المصدر نفسه، ص 41.

بمناسبات معينة، وعلى رأسها حفلات الختان، التهاليل الدمشقية التي يشارك بها المنشدون[1]. ويشير ابن كنّان إلى عادة دعوة الأعيان إلى حفلات الختان فيقول: وفي يوم الخميس.. دعينا إلى ختان ولد صاحبنا عبد الرحيم جلبي المحملجي[2] بنواحي القيمرية[3] وكان جماعة من التجار والدّخل، ثم جاء بالماء ورد والبخور ولم يأخذ شيئا[4]".

وتشير عبارة "ولم يأخذ شيئا" إلى عدم أخذ والد الطفل النقوط، ولكنها لا تنفيها، وهذا ربما لأن صاحب الحفل ميسور، ويتأكد ذلك البذخ في ختان أولاد الأغنياء وعدم أخذ النقوط في وصف حفل آخر جاء فيه: "وفي ثامن عشره دعينا إلى ختان ولد صاحبنا أمين جلبي، إلى داره في الصالحية في حكر الأمير المقدم الظاهري، وتكلف كلفة باذخة ودعا علماء وفضلاء وصلحاء، ولم يأخذ من أحد شيئاً وهو المدبر سبحانه.." [5].

---

(1) حول ترتيب عمل التهليلجي انظر: القاسمي، قاموس، ج1، ص 112. وعن تهاليل دمشق ووصفها انظر ابن كنّان، الحوادث، ص ص 240، 250، 251، 450، 486.

(2) هو من يقوم بحمل البضائع، وقد يرافق قافلة الحج ويعمل مع عدد من الحمالين في خدمة قافلة الحج الشامي، وأما من يحمل البضائع على ظهره فيقال له عتال، انظر: القاسمي، قاموس، ج1، ص 114، وانظر: سجل، 19، حجة 45، ص 22، 23 صفر 1103هـ/1691م" احتج علي بن محمد المحملجي على ياسين بن محمد العكام انه استدان منه في رحلة الحج مبلغا من المال..".

(3) في دمشق هناك مدرستان تحملان اسم القيمرية، واحدة تعرف بالقيمرية الصغرى وأخرى بالكبرى، والصغرى أنشئت عام 653هـ/1255م ومنشئها هو الأمير أبو الحسن سيف الدين القيمري وموقعها في منطقة العمارة، والثانية تعرف بالقيمرية الكبرى ومنشئها الأمير ناصر الدين القيمري سنة 650هـ/1252م وقد أطلق على الحي الموجودة به المدرسة الكبرى اسم القيمرية، وهي في سوق الحرمين. انظر: النعيمي، الدارس، ج1، ص 441، العلبي، خطط، ص 157.

(4) ابن كنّان، الحوادث، ص 291.

(5) ابن كنّان، الحوادث، ص 397.

IIII

تزيين المدينة

لا حـــصر للمناسبات التي تتزين بها دمشق، فهي وإن عكست جانباً ثقافياً وملمحاً مـــن ملامـــح التسلية والفرح وثقافة الاحتفال، إلا أنها كثيراً ما ترتبط بأجواء ومناسبات دينـــية في مجتمع يتميز بحضور كثيف للدين في حياة فئاته المختلفة، وأكثر ما تكون الزنية في عـــيدي رمضان والأضحى إضافة إلى التزيين ليلة المولد النبوي إذ تعم الزينة المكونة من الأعمدة الخشبية وأغصان الأزهار حارات دمشق، كما يُدلى السجاد المجلوب من المنازل وتعلـــق عليه الآيات القرآنية، وتسير العراضات إلى الجامع الأموي بمشاركة الوالي وكبار العلماء والمفتي ونقيب الأشراف[1]، و"ينادى بتزيين المدينة يوم عاشوراء"[2].

وتتزين دمشق في مناسبات دينية أخرى ومنها ليلة الأول من محرم إيذانا ببدء السنة الهجرية، وفي الأول من شهر رجب يُكثر من صنع الحلوى عند البغاجاتية[3]، وفي لـــيلة الإسراء والمعراج تأخذ النسوة معهن البرازق الغريبة والأطعمة إلى المقابر ويوزعـــنها عن أرواح موتاهن ويجتمع الناس في بيوتهم للاستماع إلى قصة الإسراء والمعراج ويكون الاحتفال في المسجد الأموي[4].

ويعـــد مـــوعد الحج أحد أهم مظاهر الابتهاج والفرح في دمشق، إذ يجري الاحـــتفال ثاني أيام عيد الفطر الذي يسمى يوم الزيت، إذ إن اليوم الأول مخصص

---

(1) كيال، يا شام، ص 120.

(2) وفـــي يـــوم عاشـــوراء، نودي بدمشق، ودقت البشائر ونودي بالزينة وفرح الناس ...". ابن طولون، مفاكهة، ج1، ص 267.

(3) البغاجاتي هو السنبوسكي وهو من يصنع الرقاق من العجين الأبيض من خالص ناعم الطحين ويجعله كالورق ثم يمده على مقدار الصينية بواسطة آلة تسمى النشابة ويرش بين كل ورقتين مـــن الـــسمن الخـــالص بمقشة، ويجعل وسط ذلك حشوا. القاسمي، قاموس، ج1، ص 45. وانظر: سجل 17، حجه 234، ص 123، 13، شوال 1099هـ/1697م" ادعاء محمد بن علي البغاجاتي على شريكه.."

(4) كيال، يا شام، ص 126.

للسلاملك وهو "الموكب الذي يتوجه بالوالي إلى الجامع الأموي لأداء صلاة العيد.. فيخرج الناس من دمشق وبخاصة الأحياء القريبة من الجامع الأموي ومن ريف دمشق للفرجة والسلام على الوالي وممثلي الحكم"[1].

يقدم ابن كنّان لصالحي (ت: 1153هـ/1740م) إشارات لطقوس تزين المدنية عند ورود موكب الحج فيقول في أخبار شهر صفر: "وفي يوم الخميس سادس عشر من الشهر وصل المحمل وكان موكباً حافلاً وحرجوا على الزينة ولم يعهد هذا من قبل.."[2].

وبحسب التقاليد الدمشقية تبدأ في اليوم الثاني مراسم الاحتفال، إيذانا بانطلاق القافلة، وكان الزيت يرسل كل سنة إلى الحرمين الشريفين في مكة والمدينة المنورة وهو مرتب على قرية كفرسوسه[3]، فيجلب الزيت في أوعية خاصة من جلد الماعز أو نحوه بعد أن يخاط الواحد منها من جميع جوانبه، وتوضع تلك الأوعية في صناديق من خشب محمولة على ظهور الإبل المزركشة والمزينة بالأجراس والخرز وتمشي في مقدمة تلك الجمال المرافع - الدركات - والطبول المزركشة، وأهل قرية كفرسوسة بالألعاب والترديد ومنهم من يلعب بالسيف والترس الجلدية المعروفة باسم لعبة "الحَكم" في مهرجان شعبي ينضم إليه كل من كان أو صادف وجوده في طريق الموكب، فإذا وصل الموكب باب السريجة من جهة الغرب بالقرب من مقام الصحابي زيد بن ثابت الأنصاري يتجه الموكب إلى سوق حي باب السروجية، يتقدمه صنجق[4] أخضر

---

(1) منير كيال، محمل الحج الشامي، دراسة توثيقية، وزارة الثقافة، 2006، دمشق، ص 103.

(2) ابن كنّان، الحوادث، ص 126، 127، 149، 235.

(3) قرية في قلب غوطة دمشق وهي أصلا مزرعة وتشتهر بزراعة الزيتون والتبغ، وعدد سكانها 21073 نسمة، وترتفع عن سطح البحر 700م. طلاس، مصطفى. المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري، مركز الدراسات العسكرية، دمشق، 1993م، مجلد، 5، مادة كفر سوسا، ص 54.

(4) الصنجق هو علم النبي صلى الله عليه وسلم، وكان يسمى العقاب فقد كان يحتفظ به في دمشق ويرفع أمام قافلة الحج، وقد انتقل الصنجق من الأمويين على العباسيين ثم إلى الفاطميين وظل في القاهرة طيلة حكم المماليك إلى أن نقله السلطان سليم العثماني بوساطة الصدر الأعظم سنان باشا ووضع في غرفه خاصة تحت حراسة خاصة في الباب العالي وأطلق على الغرفة اسم"خرقه شريف أوده سي". ومن ثم أصبح الاحتفال في يوم الصنجق بالسنجق السلطاني تقليداً. انظر نعيسه، مجتمع مدينة دمشق، ج2، 667. كيال، محمل الحج، ص 110-111.

بشراشيب حمراء داكنة مكتوب عليها بعض العبارات الدينية وخلفه المرافع والطبول.."[1].

تستمر احتفالات الدمشقيين بالحجاج ويكون اليوم الثالث مخصص للشمع وماء الورد والملبس، والشمع هو شمع الحرمين الشريفين الذي كان يرسل من دمشق بعد أن يسكب في دار أحد الوجهاء أو الأعيان، بقصد التبرك وخدمة للحرمين الشريفين، ويكون الشمع ملفوفا بالشال والكشمير الفاخر، ويحتفل أيضاً بحمل ماء الورد الذي كان مفروضا على قرية المزة[2]، وهي منطقة مشهورة بالورد، و"يحمل في هذا اليوم الملبس والسكاكر اللذان يهديان إلى الحرمين الشريفين ويبلغ وزنه عشرة أرطال تسير في موكب بهيج في مقدمته الموسيقى السلطانية وهي تصدح بألحانها وخلفها المؤذنون والأشراف من آل البيت والوجهاء والعامة وموائد البخور.."[3].

ومن تقاليد الاحتفال بالحج في دمشق خروج محمل الحج مع قافلته يوم الثامن أو العاشر من شهر شوال كل سنة، وقد ذكر ذلك ابن كبريت في رحلته[4]، ويرتفع المحمل على ظهر جمل وهو مغطى بالقماش المقصب ومكتوب عليه اسم السلطان العثماني ويمسى بالتختروان وتكون الجمال ملبسه بالأطالس والتختروان مزين بأنواع الزينة، ويخرج الركب من طريق السنانية إلى مرقص السودان ومن ثم إلى طريق الشاغور فباب كيسان إلى باب شرقي ثم إلى الشيخ رسلان الدمشقي... ويمر المحمل بالشوارع العامة إلى أن يصل إلى السرايا وتقدم للموكب الضيافة..."[5].

---

(1) الصيادي، محمد بن عز الدين الدمشقي كاتب عربي، الروضة البهية في فضائل دمشق المحمية، مطبعة المقتبس، دمشق 1330هـ/1911م. ص 30. وانظر منير كيال، موكب الحج، ص 108.

(2) هي اليوم أحد أحياء دمشق، وتشكل منطقة الخدمات الثالثة، وعدد سكانها نحو18620 نسمة وترتفع 725م عن سطح البحر، وهي في الجهة الغربية من المدينة، وتضم أحياء كيوان والربوة والمزة القديمة والدارات وتتصل بسفح قاسيون. طلاس، المعجم، مجلد5، مادة المزة، ص 231.

(3) الصيادي، الروضة البهية، ص 30.

(4) ابن كبريت، رحلة الشتاء، ص 77.

(5) أحمد حلمي العلاف، دمشق في مطلع القرن العشرين، وزارة الثقافة، 1976م، دمشق، ص 113.

لا تختلف الأوصاف التي تقدمها المصادر المحلية لموكب المحمل الشامي كثيراً برغم تعدد رواياتها، لكنها في المجمل توضح لنا أهمية لاحتفال بخروج موكب الحج وعودته إلى دمشق، وفي مجمل الصورة التي تقدمها المصادر يبدو جليا مدى قوة وأثر المناسبات الدينية في ثقافة الاحتفال في مدينة دمشق وتجعل من الدين ومناسباته العنصر الأكثر غلبة في صوغ صورة اللهو والفرح.

ولا يرتبط تزيين شوارع المدينة بالمناسبات العامة كالأعياد، بل ظهرت الزينة أشبه بتقليد عند ورود أخبار الانتصارات في الحروب والمواجهات مع خصوم السلطة، ففي شهر ربيع الأول 913هـ/1507م، نودي بدمشق بالزينة[1]، لأن المدينة تتزين في حال قبض جند السلطان على متمردين أو خارجين عليه في بعض أطراف البلاد الشامية[2].

وفي شهر ذي القعدة زينت دمشق، "والسبب في زينتها أن السلطان الملك المظفر سليمان خان عثمان ملك الروم ومصر والشام، جرد عساكر وتوجه إلى بلاد الإفرنج المعروفة تلك بالانكروس - الاسم القديم لبلاد هنغاريا أو المجر - فذكروا انه انتصر عليهم.."[3].

يروي البديري الحلاق في حوادث سنة 1159هـ/1746م خبر الانتصار على قوات التركمان في دمشق يقول: "وكان أعظم خذلان لبيت حسن تركمان قتل منهم خمس رجال ... قد زينت البلد والمدافع تضرب صباحاً ومساء مدة شهرين والنوبة مع الألعاب النارية".[4] وإلى جانب الألعاب النارية يذكر البديري عادة "الخروج بالأعلام والمزاهر وطبول الباز.."[5].

وقد يحل الفرح بمظاهر بالغة الزينة عندما يولد للسلطان أولاد ذكور، ويتبع

(1) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج1، ص 317.

(2) "وفيه (صفر 915هـ/1509م)، دقت بشائر الشام مدة أيام لكونه قتل كبار آل زعمان، وهرب الباقون ونودي بالزينة ...". ابن طولون، مفاكهة، ج1، ص 333.

(3) ابن الحمصي، حوادث الزمان، ص 551.

(4) البديري، حوادث، ص 70.

(5) يذكر ذلك ابن كنّان في حوادث دمشق سنة 1120هـ/1708م، ص 138 وانظر أيضاً عند البديري، حوادث، ص 81، وكان سبب الخروج ورود ماء السمرمر الذي يستخدم في مكافحة الجراد الذي هاجم دمشق ومناطق من حوران سنة 1159هـ/1746م.

الزينة عطايا من السلطان على خاصته[1] فقد زينت دمشق سنة 1117هـ/1705م عشرة أيام" لأن السلطان جاءه ولدان ذكوراً"[2]. وإلى جانب الزينة في أفراح أبناء الـولاة فقد تتزين أسواق دمشق وشوارعها، عند ختان أبنائهم وذلك ما حدث في شـهر صفر سنة 1156هـ/1743م في حفل أقيم بسبب ختان ولد الوزير سليمان باشا العظم[3].

وتتـزين المديـنة إذا مـا عوفي سلطان أو أمير من مرض كما حدث في يوم الثلاثاء من شهر ذي القعدة سنة 925هـ/1519م فقد" زينت دمشق، والسبب في ذلك أن ملك الأمراء تقنطر - أي سقط عن فرسه - من على الفرس يوم الموكب، وكأنـه قد قتل، فسلمه الله تعالى فزينت له الناس لعافيته وسلامته"[4]. وفي الثالث عشر من شهر رجب 927هـ/1520م "زينت دمشق لأجل عافية نايب الشام"[5].

ويظـل شـهر رمضان من أهم الشهور التي تتجلى فيها طقوس الاحتفالات الدمشقية، إذ يحضر الدمشقيون لاستقبال شهر الصيام، كما أن الدمشقيات يعددن الحلـوى ويحضرن أنواعاً متعددة منها احتفاءً بحلول عيد الفطرم، وليالي رمضان لا تزال فاعلة يواظب فيها الدمشقيون على السهر وعقد حفلات الإنشاد والموشحات الدنيية[6].

---

(1) ابن طولون، مفاكهة، ج1، ص 341.
(2) ابن كنّان، الحوادث، ص 101.
(3) البديري، حوادث، ص 38.
(4) ابن الحمصي، حوداث الزمان، ص 534.
(5) ابن الحمصي، حوادث الزمان، ص 549.
(6) انظر:
Shrista, Salamandra. Anew Old Damascus Authenticity and Distinction in Urban Syria .Indiana University .2004. p. 98-99

الفصل الثالث

التسلية واللهو

التسلية واللهو أحد أهم أوجه النشاط الاجتماعي الذي يمارسه المجتمع، وهذا النشاط وإن أخذ نسقاً اجتماعياً جماعياً في الغالب، إلا أنه يمثل أيضا حالة تواصلية ثقافية، واصلة بين البنى الفوقية والتحتية للمجتمع.

ويميل الدارسون لمفهوم الثقافة إلى أن دراسة العلاقات الثقافية تتداخل مع مختلف الأطر الاجتماعية التي يمكن أن تيسّر علاقات الاندماج أو التنافس بين فئات المجتمع[1].

ويمكن هنا اعتبار التسلية واللهو مظهراً لأحد تجليات التثاقف، وهي ظاهرة اجتماعية كلية تمس مستويات الواقع الاجتماعي والثقافي لمدينة دمشق، كما أنها تدلل على طبيعة البنى الاجتماعية من حيث الكشف عن تسلية العامة والخاصة، والفارق بينهما، كما تبين مظاهر اللهو في شقية المباح والحرام.

وفي دمشق، برع الدمشقيون في تمضية أوقات فراغهم، فارتادوا المتنزهات، وابتدعوا عادة السيران، التي تؤكد المصادر أنها تنوعت واختلفت بين سيران للخاصة وآخر للعامة وثالث للنساء، ولكل واحد منها تقاليده وأمكنته، وارتادوا المقاهي ومارسوا الألعاب الشعبية، وظهرت في المجتمع ممارسات تقع في النظر الفقهي تحت باب "اللهو الحرام" وهي المرتبطة بشرب الخمر وحب الغلمان وبنات الهوى، فيكف بدا مجتمع دمشق العثماني في تلك المظاهر الثقافية والاجتماعية؟

(1) خير من قال بهذا الرأي روجي باستد (1898-1974م) الباحث في جامعة السوربون انظر حول ذلك في: دنيس كوش، مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، ترجمة منير السعيداني، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2007م، ص 98.

I

التنزه والسيران

تذكر التواريخ المحلية مصطلحات عديدة للتفريق بين المجاميع السكانية الاجتماعية في دمشق: كأصحاب المقامات الكبيرة[1]، وأهل لعرض[2]، وصغار القوم[3]، وبسطاء الناس[4]، والخاص والعام[5]، والأعيان[6]، والعامة[7]، وأكابر الحارات[8].

هذه المصطلحات في مجموعها ترد إلى مواقع ومناسبات مختلفة، وهي رغم استخدامها في أدبيات الحقبة العثمانية، إلا أنها لا تشكل فصلاً طبيعياً أو فئوياً في جسم المجتمع الدمشقي، لكن عندما نجد إشارة لدى البديري الحلاق مفادها أن الخاص والعام استمعوا لضاربي الآلات، فإن هذا يطرح أسئلة عديدة، منها: هل اختلفت وسائل التسلية والترفية بين هذه الفئات الاجتماعية؟ وهل كان هناك نظرة واحدة لوسائل التسلية؟ بمعنى أكثر وضوحاً، هل نظر العلماء نظرة موازية لنظرة العامة نحو الإقبال على الترفية ووسائل التسلية، أم أن الخاص والعام التقوا وتوحدوا معاً في طرق التسلية ووسائلها؟

أحب الدمشقيون الخروج للمتنزهات والحدائق، وكان يوم السبت أكثر الأيام التي تشهد خروجهم، للاستراحة والتنزه، وقد تناوبت المناطق التي يقصدها

---

(1) البديري، حوادث، ص ص 12، 163، 25.

(2) البديري، حوادث، ص 214.

(3) مجهول، تراجم بعض الأعلام، ق 12ظ؛ البديري، حوادث ص 57-59.

(4) المرادي، سلك، ج، ص 245، ج، ص 47.

(5) البديري، حوادث، ص 95، 82، 63، 39.

(6) مجهول، تراجم بعض الأعلام، ق 14ظ.

(7) القاري، رسلان، الوزراء، ص 79؛ الدكدكجي، مجموع مسانيد، ق 14ظ؛ ابن كنّان، الحوادث، ص 419.

(8) البديري، حوادث، ص 50.

أهــل دمــشق، فمنها ما كان للتنــزه والراحة، ومنها ما كان يختص بالتدريبات العــسكرية وألعابها ومهاراتها، ومنها ما كان لمشاهدة الألعاب الشعبية: فالميدان الأخــضر كــان مخصــصا لمــشاهدة تدريبات العسكر منذ العصرين الأيوبــي والمملوكي[1]، ومتنــزه الجبهة كان مقصداً لهم بسبب مناظره الخلابة في أرضه التي وصــفها أبو البقاء عبدالله البدري (ت: 894هــ/1498م) بأنها من محاسن الشام، متنــــزه مــابين النهرين ويقول: "مبتدأ الوادي يشتمل على فرجه سماوية بها وادٍ وقــصور وســويقة بهــا حانــوت طباخ وصاجاتي وقطفاني وفقاعي وسكرداني وحواضــري وفكاهاني وشوا وقلاّ جبن وحمام يشرح صدر المرتاد وقنطرة يتوصل إلــيها من جزيرة لطيفة.. وهي أرض مربعة على مساحة فدانيين وهي على جنب نهر بردى.."[2].

يكشف وصف البدري لهذا المتنــزه عن طبيعة المتنــزهات في دمشق وتجاوز دورهــا بوصــفها مكاناً للتسلية والترفيه، إلى منطقة خدمات متكاملة تقدم فيها الأطعمــة والأشربة وخدمات النظافة من خلال الحمام العام، واستمر هذا المتنــزه عاملا في العصر العثماني.

ففي ذات السياق يشير ابن طولون في حوادثه إلى متنــزهات دمشق في القرن الــسادس عــشر المــيلادي والتي كان يرتادها الدمشقيون للتنــزه، ويذكر منها متنــزه ما بين النهرين "الذي حوى حماماً"، وهو الواقع بين مسجدي يلبغا وتنكز، ويــسمى بذلك لتفرع نهر بردى إلى فرعين وبينهما ما يشبه الجزيره، وهو اليوم في موقع ساحة المرجه[3].

---

(1) انظــر عن التقاليد الشعبية قبل العصر العثماني: فراس السامرائي، التقاليد والعادات الدمشقية خلال عهود السلجوقين - الزنكيين- الأيوبيين، دار الأوائل، دمشق، 2004م، ص 199.

(2) البدري، أبو البقاء عبدالله بن محمد المصري الدمشقي (ت: 894هــ/1498م) نزهة الأنام في محاسن الشام، ضبطه وقدم له خيري الذهبي، وزارة الثقافة، 2008م، دمشق، ص 60.

(3) ابن طولون، حوادث، ص 122. ووصف ابن كبريت في القرن الحادي عشر الهجري/السابع عــشر المــيلادي المرجة بقوله: "هي جنتها وأنهارها التي هي بهجتها، وشهدت محاسن تلك الــرياض وبهــا ذلك النهر". ابن كبريت، محمد بن علي الحسيني الموسوي (ت: 1070هــ/1659م) رحلة الشتاء والصيف، تحقيق محمد سعيد الطنطاوي، منشورات المكتب الإسلامي، ط2، 1969م، بيروت، ص 219.

ومن مرافق التنزه التي كانوا يقصدونها قبل العصر العثماني واستمروا في ارتيادها حتى نهاية العهد العثماني الشرفان وهما حيان معروفان ومشهوران بما فيهما "من شجر الحور والولدان والمدار والغدران"[1]. ومن البساتين التي يذكرها ابن كنّان الصالحي في القرن الثامن عشر بستان الأصفر مقابل الجسر الأبيض وأخبر ابن كنّان أنه زاره في شهر رجب 1182هـ/1768م وكان بيد "أبي يوسف الشهير بابن الأصفر من أهالي الصالحية[2].

وتمدنا اليوميات الدمشقية بمادة جيدة عن أدب المسامرات والضيافات والنزهات الجماعية التي قد تستغرق ساعات أو يوما أو يومين، ويتخللها زيارات مختلفة يشارك فيها عدد كبير من الحضور، يقول ابن طولون الصالحي في وصف نزهة طويلة:

[.. ثم ذهبنا إلى بستان ابن الجنيدي شمالي قصر اللباد ثم وتواعدوا للاجتماع بمنزل القاضي كريم الدين ثم ذهبنا جميعاً قاصدين البستان المذكور ... فحال وصولنا إليه أُتي إلينا بمشمش حموي فأكلنا، ثم لحقنا القاضي كريم الدين وجماعته ... ثم تغذينا، ثم قرأ المحب جار الله جزءاً من فضائل الشام للربعي[3]، قراءة حسنة عجلة أعجبت الحاضرين، وكتبت أسماؤهم. وهم نحو المائتين على الجزء المذكور، ثم أنشد الشيخ الصالحي محمد بن الخياط المدني المؤذن بها وجماعته، فأطرب الحاضرين، وتباكى غالبهم، وتذكروا بذلك تأذينه بحضرة النبي صلى الله عليه وسلم ثم أحسن القاضي كريم الدين المذكور إليهم، وإذا بالعصر قد قربت، وكان قصدهم الذهاب إلى منين لزيارة سيدي أبي البرهان، وسيدي جندر، فأثنى العزم على ذلك ... ثم مدّ القاضي كريم الدين لنا أطعمة كثيرة ملونة، فأكلنا، ثم انصرفنا إلى منازلنا ... إلى غير ذلك من الضيافات، وقد تكررت من بعض المذكورين ويعلم أوقاتها من الطبقات المكتتبة لذلك، ومن كتاب الرحلة الدمشقية للمحب جار الله ...][4].

---

(1) والشرفان هما أقرب المتنزهات إلى منطقة المرجة اليوم "وكان كل شرف يطل على الشقرا والميدان - ميدان المرجه- والقصر الأبلق والمرجه ذات العيون والغدران.."، البدري، نزهة الأنام، ص 65-66.

(2) ابن كنّان، الحوادث، ص 254.

(3) الربعي أبو الحسن علي بن محمد (ت: 444هـ/1052م) فضائل الشام ودمشق للربعي، مناقب الشام وأهله لشيخ الإسلام ابن تيمية تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، ط 4، منشورات المكتب الإسلامي، 1984م.

(4) ابن طولون، مفاكهة، ج2، ص 8- 9.

وفي القـــرن الـــثاني عـــشر الهجري/الثامن عشر الميلادي يبين ابن كنّان أن النـــــزهات الطـــويلة استمرت وكانت تصل إلى ثلاثة أيام ومن ذلك قوله: "وفي سادسه، يوم السبت جمادى الأولى - سنة 1151هـــ/1738م - كنّا ببستان الباسطي، بغـــوطة دمـــشق، ومكثنا ثلاثة أيام عند أخينا يوسف، ونـــزلنا الثلاثاء.."[1] ومن الـــسرد المطول لأخبار وأحاديث مجالس البساتين، يمكن النظر في مؤشرات ثقافية تكـــشف عن طابع تلك المجالس التي كانت إما أدبية أو دينية، وأنها كانت محدودة علـــى مجمـــوعات مختلفة من العلماء الذين كانوا يجدون في البساتين والمتنـــزهات أجواء مريحة وبعيدة عن مجالس العلم الصارمة في المدارس والمساجد.

ومن البساتين الأخرى التي يذكرها بن كنّان في عصره بستان الباسطي، الذي قال عنه: ""وبتنا فيه ليلتين"[2]، وبستان العيش "قرب الربوة"[3] وبستان الباشا، في حكر العارض إلى الشمال من باب جامع السادات[4]. ويقول ابن كنّان في وصفه أحـــد مجالـــسة "وكـــان معـــنا العالم الأمجد، الشيخ حسن المغربل النحوي الفقيه الـــشافعي[5]، والـــشيخ عـــبد الرحمن بن الشيخ محمد التركماني ثم الشاغوري[6]، وتذاكـــرنا في علـــوم عديدة، في الإعراب والموسيقى والعروض، ونظمنا الأشياء ونسأله الإحسان"[7].

---

(1) ابن كنّان، الحوادث، ص 502.

(2) ابن كنّان، الحوادث، ص 427.

(3) المصدر نفسه، ص 427. وانظر سجل، 16، حجة 123، ص 67، 2، رجب 1098هـــ/1686م "قرر مولانا.. لعلي بن محمد الحق في الأرض الكائنة جوار بستان الباسطي.."

(4) أنشأه الأمير ناصر الدين منجك سنة 811هـــ/1408م وهو جامع قديم مشهور، يعرف بجامع مـــنجك وجامـــع الـــسادات لوجود سبعة من الصحابة فيه. وهو اليوم مركزٌ لتحفيظ القرآن. العلبي، خطط، ص 351.

(5) هو ليس بفقيه كما وصفه ابن كنّان، لكنه كان مدرس للأولاد في مكتبه الذي افتتحه في محلة الـــشاغور بطلب من أهالي المحلة، وكان بحسب وصف المرادي له: تعاطى كتابة الصكوك والضمانات والأنكحة، وكان له شعر قليل" وكانت صنعته غربلة القمح ويخط الكتب ويرتزق من ذلك، توفي بعد سنة 1150هـــ/1727م. المرادي، سلك، ج2، ص 26.

(6) لـــم أعثـــر لـــه على ترجمه، ولكن أشار السجل الشرعي إلى أنه كانت له "رتبة المعيد في المدرسة النورية الكبرى". سجل 15 حجة، 234، ص 123، 23 شوال 1097هـــ/1685م.

(7) ابن كنّان، الحوادث، ص 435.

ولقي بابن كنّان وأصحابه احتفاءً كبيراً في دعوة من بعض أصحابه كانت إلى "بستان جريف لصيق طاحون الأحمر، وعمل لنا ضيافة..."[1]. وهناك بستان الجوز[2]، أما المطالعة الأدبية فكانت تكثر في بستان ست الشام، "الكائن بالسهم الأدنى، شمالي الجسر الأبيض والشبلية، وقبلي الحاجيه، مع بعض أفاضل وكانت المطالعة في كتاب "الصادح الباغم" للأديب الفاضل ابن الهيارية[3]، وهناك بستان الطويل في منطقة المنيحة[4]، وبستان الدوّاسات وبستان بني كريم الدين في الصالحية[5]، وبستان المروبض في النيرب[6]، وفيه قال ابن كنّان شعراً منه:

لله بستاناً حللنا دومة

يسمى المروبض لفضّته نقا

أشجار تحكي السبابيك عسجداً

وكذا مروبصها أجاد ونمقا[7]

وهناك بساتين أخرى ومنها بستان القطان بأرض المحاضر[8]، وبستان ابن القرندس[9] وبستان الوقف[10] وغيرها.

ومثلما تنزه العلماء والأعيان في البساتين الخاصة، فقد وجد عامة الناس في المتنزهات العامة مجالاً للترفيه والتسلية، وهي في القرن التاسع كانت كثيرة وكان أشهرها وأكثرها ما يقصده الناس منتزه الصالحية والنيرب والمرجة وجهات من باب توما، حيث كانت حدائقها العمومية معدة للتنزه لا الاستثمار ومن جنائنها

---

(1) ابن كنّان، الحوادث، ص 442، وهو شمال المزرعة في موقع يسمى اليوم دوار الميسات.
(2) ابن كنّان، الحوادث، ص 440.
(3) ابن كنّان، الحوادث، ص 382- 383.
(4) ابن كنّان، الحوادث، ص 383.
(5) ابن كنّان، الحوادث، ص 222.
(6) ابن كنّان، الحوادث، ص 270.
(7) ابن كنّان، الحوادث، ص 271.
(8) ابن كنّان، الحوادث، ص 562.
(9) ابن كنّان، الحوادث، ص 139.
(10) ابن كنّان، الحوادث، ص 141.

المشهورة جنينة الأفندي، والمناخ والصوفانية، ويقول عبد الرحمن بيك سامي الذي زارهـا أواخر القرن التاسع عشر عام 1890م: "وقاصد هذه المحلات لا ينفق فيها كثيراً وهي على مدى السنة، ما خلا فصل الشتاء، غاصة بالمتنـزهين[1].

وإلى جانـب المتنـزهات التي يذكرها ابن كنّان في النصف الأول من القرن الـثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي، يقدم لنا محمد بن مصطفى الشهير بابن الراعي (ت 1195هـ/1780م)، ذكراً مفصلاً للمتنـزهات والرياض والدمشقية، وأهمها:

1. أراضـي السهمين والسهمان من متنـزهات الغوطة متصلة أراضيهما بأرض الـصالحية بـين نهر تورا[2] ونهر يزيد[3]، ويمتد السهم الأدنى من ساحة الجسر الأبـيض إلى المدرسة الشبلية البرانية[4] شرقاً فوق نهر تورا. وأما السهم الأعلى فهـو شمالي النهر الأدنى جنوبـي نهر يزيد بن جادة ابن المقدم غرباً والمدرسة الحاجبية شرقاً[5].

---

(1) عـبد الرحمن بيك سامي، القول الحق في بيروت ودمشق، دار الرائد العربي، بيروت، ط1، 1981، ص 105.

(2) كتبه ابن عساكر بالتاء المربوطة وكتبه ياقوت بالألف الممدودة، يبدأ انفصاله عن نهر بردى عـند دخـوله الربوة قرب قرية الهامة. انظر: محمد حسين العطار، علم المياه الجارية في مدينة دمشق، سلسلة تاريخ دمشق، تحقيق احمد غسان سبانو، دار قتيبة، ط1 دمشق، 1984م، ص 94، 106.

(3) ينـسب هذا النهر إلى يزيد بن معاوية، ومصدر نسبته إليه أن يزيد ابن معاوية وسعه وزاده وجلعـه نهـرا بعد أن كان جدولا، وهو أول نهر ينفصل عن بردى في مكان يدعى المقسم جنوبي قرية الهامه عل بعد 4 كيلومتر عنها. انظر: ابن عساكر، أبي القاسم علي بن الحسن (ت: 571هـ/1176م) تاريخ دمشق، خطط دمشق، تحقيق صلاح الدين المنجد، ط2، المعهد الفرنـسي للشرق الأدنى والأمانة العامة لدمشق عاصمة الثقافة العربية، 2008، ص 149-152؛ العطار، علم المياه. ص 103.

(4) بناها شبل الدولة كافور الحسامي مملوك الأمير حسام الدين سنة 632هـ/1226م، وتقع عن جـسر تـورا إلـى الشمال الغربي من المدرسة البدرية. النعيمي، الدارس، ج1، ص 530. العلبي، خطط، ص 195.

(5) ابـن الراعي، محمد بن مصطفى بن خداويردي (ت: 1195هـ/1780م)، البرق المتألق في محاسـن جلـق، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، تحقيق محمد أديب الجادر، ط1، 2006، ص 135. وفي القرن الثامن عشر بنيت في متنزه السهمين دور ومنازل وصارت محلة من محلات دمشق انظر: ابن كنّان، الحوادث، ص 497.

2. أراضـــي نقـــيب وهي بالقرب من أراضي الصالحية، وكانت معروفة بجنائنها ورياضها[1].

3. أراضـــي النيربين وهي تلك الربوة من جهة دمشق، على سفح قاسيون، ويقال أيـــضاً: "الـــنيربان أي النيرب الأعلى وهو البستان الواقع بين نهر نوري ويزيد والنيرب الأسفل وهو البستان الواقع بين نهر ثوري وبردى"[2] وهي مزار ديني كما وصفها الهروي ففيها قبر أم مريم[3].

4. أراضـــي الميطور كانت في عصر ابن الراعي عبارة عن قرية بسفح قاسيون من أراضـــي الصالحية على نهر يزيد وكانت تمتد من الضفة الجنوبية لنهر يزيد بين بستان بصاروجه وجسر النحاس وبين القابون ومشفى ابن النفيس اليوم[4].

5. أراضـــي ســـطرا "وهي محسوبة من متنـــزهات الغراء رياضها حلت في منظر الناظـــر، وقـــد كانـــت قديماً في الطريق المقابل لباب الجامع القصب (مسجد الأقصاب) ويعرف هذا الطريق اليوم بحادة عاصم ويخترقه شارع بغداد .."[5].

6. أراضـــي اللوان: جاء في وصفها "تسحر الألباب بطيب أزهارها الأريحة ما بين نهر دافقٍ وزهرٍ عابقٍ وطيرٍ بتوحيد فالقة ناطق"[6]، كما عرفت تيمارها.

7. الجبهة: وصفها ابن الراعي بقوله "ومتنـــزهاتها الحسنة الفرا كذلك صدر الباز لا حقـــيقة بـــل مجاز هي رياضٌ يفصل النهرُ بينها وبين وادي كيوان وأراضي الخلخـــال محاذية لأراضي اللوان وقد سموا المرجه بأسماء تشرح الصدور وتبعث

(1) ابن الراعي، البرق، ص 136.

(2) يـــصف أبو البقاء البدري أراضي النيربين بأنها كانت "أعظم المحلات وأخضرها وأنضرها، حسنة الثمار، كثيرة الأزهار، وبها سويقة وحمام، يقال له حمام الزمرد، وجامع، وبها مسكن للرؤساء والأعيان. البدري، نزهة الأنام، ص 73؛ ابن الراعي، البرق، ص 137.

(3) الهروي، أبو الحسن علي بن أبي بكر (ت: 611هـ/1214م) الإشارات إلى معرفة الزيارات، تحقيق جان سورديل – طوحين، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق 1953م، ص 11.

(4) ابن الراعي، البرق، ص 141– 142.

(5) ابن الراعي، البرق، ص 142، "المحقق"، هامش 1.

(6) تقع اللوان بين قرية المزه وكفر سوسه، وهي اليوم حي كبير يتبع كفر سوسه. ابن الراعي، البرق، ص 144، "المحقق".

للنفوس واردات البسط والسرور وهي الميدان الأخضر، ووادي الشقرا والجبهة وصـــدر الباز والمرجة الخضرا ورياض الشرفين، فهي حدائق تطل على المرجة من الطرفين وكلها روضات وبساتين ... الخ"[1]".

8. ريـــاض الخلخال: وهي غربـــي المدينة بنيت مكانها الثكنة الحميدية فهي محل جامعة دمشق اليوم[2].

9. الفـــيجة الخضرا: وتعتبر الفيجة من أشهر متنـــزهات دمشق لكثرة جداول مياهها وأنهارها وقد قال فيها الشعراء الكثير من القصائد ومنهم قول مصطفى اللقيمي:

يـــا حـــبذا المـــرجة الفـــيحا بذي شرف
وروضـــــها الزاهـــــر الزاهـــــي البهـــــي
شـــفى علـــيل الجـــوى مـــر النـــسيم بها
إذ راح يـــروي الـــشذا عن عرفها الأرج[3]

10. الـــربوة: وهي أكثر الأماكن وصفاً لدى الرحالة العرب ويصفها الهروي بانها موضـــع مـــبارك في لحـــف جبل"[4]، وعرفت بأنهارها السبعة وقد اعتنى الشعراء بوصفها ومن ذلك وصفها في القرن الثامن عشر على لسان عبد الرحمن بن حمزة:

لله ربـــوةُ جلـــقٍ مـــن روضـــة
للغوطـــتين بهـــا المحـــلُّ الأشـــرف
في كـــل موقـــع لحظـــةٍ مـــن دوحها
مُلـــح علـــيهن الفـــؤاد يرفـــرفُ[5]

---

(1) ابن الراعي، البرق، ص 145- 146.
(2) ابن الراعي، البرق، ص 149، وانظر: المحقق، ص 145، هامش 3.
(3) ابن الراعي، البرق، ص 150- 151.
(4) الهروي، الإشارات، ص 11.
(5) يـــشير الـــبدري في نزهته إلى أن الربوة مغارة لطيفة بسفح الجبل الغرب وبه صفة محراب يقال أنه مهد عيسى عليه السلام يزار وينذر له، وبها جامع وعين ماء يقال له المثذ ومرابط للـــدواب وبها صيادو السمك والقلايون على جبل النهر يقلونه ويذبح بها كل يوم خمس عشر رأس من الغنم وبها عشرة شرايحية ليس لهم شغل غير الطبخ والغرف من الزبادي.. ورها

ويـــشير ابـــن كنّان إلى تبادل الزيارات بين العلماء في الربوة بشكل جماعي وقـــراءة السير، فيقول في أخبار شهر ذي الحجة سنة 1133هـــ/120م: "وفي يوم الإثـــنين كـــنا مع جماعة من الأصحاب في الربوة ذات القرار والمعين آخر يوم ذي القعـــدة والـــثلاثاء أول ذي الحجة وكان أكثر المطالعة بالسيرة الحلبية للشيخ علي الحلبي[1] وكان البيات في المزة والإقامة نهاراً بالربوة السعيدة"[2]. ومن معالم الربوة في جهتها الشرقية وادي كيوان، وكان الناس يردون إليه بكثافة ويتذاكرون: "وفي يـــوم السبت دعانا بعض الأصحاب إلى وداي كيوان شرقي الربوة.. ورجعنا عند المـــساء وكـــان في الـــربوة مـــن الـــناس ما لا يحصى كما هو جاري عادة أهل دمشق..."[3].

وفي موضـــع آخر من حوادثه يبين ابن كنّان مدى كثافة الزيارات والدعوات فهي تبدو متلاحقة في أيام الأسبوع، وهذا ما يفيده إخباره عن نـــزهة إلى البستان الكبير في منطقة الشاغور فيقول: "وفي يوم الخميس رابع ربيع الأول - 1144هـــ/ 1731م - دعانـــا الـــسيد عـــبد الرحمن، من نواحي الشاغور إلى البستان الكبير، غربـــــي الخلخال، ودعانا قبلي الميدان الأخضر، ودعا أصحاب وأفاضل... وبيوم السبت كنا ببستان العيش قرب الربوة وأقمنا ألأحد فالإقامة يومان، وهذا البستان يسمى بستان كيوان[4]، من آغوات دمشق بستان واسع الأرجاء..".[5]

ممـــا يلاحظ على بعض مواقع التنـــزه في دمشق، ارتباطها بجانب ديني نظراً لوجود قبر لصحابـــي أو تابعي فيها، كما هو الحال مع أراضي المزة التي كان فيها قـــبر الـــصحابـــي الجليل دحية الكلبي[6]. ولا ينفصل الترفيه عن الزيارات الدينية

حمام ليس له نظير.." البدري، نزهة الأنام، ص 75؛ ابن الراعي، البرق، ص 156- 157.

(1) تعرف بـــ: إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون، طبعت في القاهرة 1919م.

(2) ابن كنّان، الحوادث، ص 328.

(3) ابن كنّان، الحوادث، ص 452.

(4) هـــو البـــستان المنسوب إلى كيوان أحد كبار قادة الجند في دمشق، المتوفى سنة 1033هـــ/ 1623م، وقد اشترى جملة حدائق في الربوة وبنى قصورا كبيرة، ذكر المحبي أن الأمير فخر الدين المعني هو الذي قتله، انظر: المحبي، خلاصة، ج3، 299.

(5) ابن كنّان، الحوادث، ص 421.

(6) الهروي، الإشارات، ص 11.

لمواقع محددة لاعتقاد جمعي مقدس بها مثل أراضي لاهية التي يقال إن حواء نـــزلت فـــيها وأراضي النيربين والربوة، أو المنارة الواقعة شرقي الجامع الأموي التي قيل إن عيـــسى عليه السلام نـــزل بها، وكذلك الحال مع باب كيسان[1] الذي يعتقد أن به مقاماً للخضر عليه السلام[2] أو مقام النبـــي يحيى وغيره من زيارات الشام[3].

ومـــن خلال وصف بعض المتنـــزهات يبدو أنها ضمت مرافق متكاملة مثل المـــسجد والجامع وخدمات الطعام، ويبدو من خلال الأوصاف التي تقدمها كتب الفـــضائل والخطـــط أن التنـــــزه لم يكن محددا بوقت أو مدة، فهو قد يستغرق ساعات أو ليلة، أو يستمر لأيام أو شهور، وما يؤكد ذلك "المقاصفية الواقفون في خدمـــة الـــناس وعندهم اللحف والأنطاع والعبـــي لمن يبات .."[4]. وقد تغري جمالـــيات المكان كما هو الحال في منطقة الربوة" حتى أن بعض الناس يطلع إليها ليتنـــزه فيها يوما فيقيم بها شهرا"[5].

وأبقى الدمشقيون حتى وقت قريب على عاداتهم في التنـــزه، بحدود ما تبقى مـــن تلك المتنـــزهات التي ظلت عامرة حتى قبل خمسين سنة، إذ يقول محمد كرد علـــي: "ومـــن عاداتهم الخروج أواخر فصل الشتاء وأوائل الربيع إلى المتنـــزهات العامة يومياً في الأسبوع لاستنشاق الهواء النقي، على اختلاف عاداتهم ومذاهبهم، نساءً ورجالاً، وتكون أماكن جلوس النساء خاصة بهن غالباً، ولا يتيسر لرجال أن يخالطوهن بحكم العادة، والشاذ قليل"[6].

---

(1) أحـــد أبواب دمشق القديمة، في الزاوية الجنوبية الشرقية من سورها، وهو واحد من الأبواب الرومانية السبعة وكان خاصاً بكوكب زُحل إله الزراعة عند الرومان، أما اسم كيسان فينسبه ابـــن عساكر إلى كيسان مولى معاوية بن أبي سفيان الذي قيل انه نزل عليه يوم فتح دمشق. انظر: الشهابي، معالم، ص 59.

(2) الهـــروي، الإشـــارات، ص 11؛ وانظر عن الزيارات الدينية في مختلف جهات دمشق ومحيطها كـــتاب، ابن الحوراني، (ت: 1000هـ/1591م) عثمان بن أحمد السويدي الدمشقي، الإشارات إلى أماكن الزيارات، المسمى زيارات الشام، تحقيق بسام الجبي، دار الغزالي، ص 14، 22، 24.

(3) العـــدوي، محمـــود نـــور الدين أبي محمد (ت: 1032هـ/1622م، كتاب الزيارات بدمشق، تحقيق صلاح الدين المنجد، منشورات مجمع اللغة العربية، دمشق، 1956، ص 18، 17، 1.

(4) البدري، نزهة الأنام، ص 71.

(5) البدري، نزهة الأنام، ص 77.

(6) كرد علي، خطط، ج1، ص 282.

II

ارتياد الحدائق

تزودنا مذكرات ابن كنّان الصالحي بمادة وفيرة عن التسلية في دمشق، وتكشف عن ولع الدمشقيين بالتنزه والسهر في البساتين والحدائق، كما تمدنا كتب الفضائل بحصيلة وافرة للورد في التراث الدمشقي[1]، وهو ما يضيف مدخلاً جديدا في ثقافة التحضر والترفيه في دمشق، إذ يخرج الدمشقيون في الخميس الثاني من شهر نيسان ويجتمع الأطفال ويلبسون أبهى الثياب ويجولون حول البيوت ويغنون بعض الأغاني الشعبية ويسود اعتقاد شعبي أن مريم العذراء تدور معهم وتغني أغانيهم، وأمام كل بيت ترتفع الأصوات عالية ويجيء الجواب من الداخل باقة من الورد لكل طفل، ومع الورد بعض الحلوى من "القضامة" التي ترمى على الأطفال، وهذا الخميس لا يزال يقام في الريف السوري، وربما يكون له علاقة بالأسطورة الدالة على آلهة الخصب والربيع والحياة وأدونيس والعذراء والزهر، وهي مفردات اجتمعت لتربط بين العذراء والربيع وتفتح زهر نيسان والعودة للحياة كل سنة [2].

ومن التقاليد المرتبطة بالورد والترفيه خميس البنات، وهو الخميس الأول من شهر نيسان، إذ يخرج الدمشقيون خاصتهم[3] وعامتهم من بيوقم إلى الحدائق

(1) يقول أبو البقاء البدري إن الورد في دمشق من محاسنها وأنه: "جنس تحت ستة أنواع خلا الأسود.. وجبده الجوري ومن محاسن دمشق الورد النسريني وهو نوار أبيض وأصله بري..". البدري، نزهة الأنام، ص 92- 104.

(2) حول الورد في التراث الدمشقي انظر: محمد خالد رمضان، الورد في التراث الشعبي، وزارة الثقافة، 2006، دمشق، ص 7.

(3) يذكر ابن كنّان في أخبار شهر ربيع الثاني/نيسان سنة 1129هـ/1716م ما يلي: "وفي يوم السبت التاسع من شهر ربيع الثاني كنا مع جماعة من الأصحاب على حافة بانياس في الجنينية لصيق التكية السليمانية وكان أول أيام الزهر، أول الربيع وكان بالجنينة المذكورة مروج حسنة وأزهار بديعة ذات ألوان طيبة النشر.." الحوادث، ص 267.

والجنائن والبرية ويعيشون مع الأزهار ويمارسون الرقص والغناء ولا يعودون إلى بيوتهم إلا في المساء ويقضون النهار في قطف الأزهار البرية فيشكلون منها باقة كبيرة جميلة يحملونها معهم في طريق العودة محتفلين بالبنات، أي بالخصب وعودة الحياة عن طريق لقاء الإنسان بالأرض اعتقادا منهم أن ذلك يؤدي إلى سريان الدماء الجديدة وظهور الزهر بإشراق شمس نيسان[1].

بحسب ما يسرده ابن كنّان عن التنزه وارتياد الحدائق والحواكير، فإن تلك العادات لم تكن خالية من الفنون أو مطالعة الكتب، هذا إن كانت بشكل جماعي كقوله: "وفي ثالث عشر شعبان كنا في الصالحية بحاكورة الرومي مع صاحبنا صادق آغا[2] وكان أرسل ألينا للسير أبقاه الله"[3]، وغالباً ما كان التنزه في بساتين أو حدائق معروفة بشكل عام أو في مجموعات محددة من الأعيان والعلماء[4] أو بشكل مفرد، إذ يروي ابن كنّان أنه كان يرتاد الحديقة العدوية فيقول: "ولم أصحب أحدا وأحببت الانفراد، وكنّ الفؤاد من الموارد الظاهرة والباطنة"[5] ويظهر من خلال تتبع النزهات أن يوم الخميس كان أكثر الأيام ارتباطا بالسهر والترفيه في عادات الدمشقيين: "وفي يوم الخميس كنا ببستان الزيبق مع صاحبنا إسماعيل آغا، ونظمت في البستان المذكور أبيات من بحر الكامل، وفيه الإضمار والترفيل وفي بعضها القطع.."[6].

ويرى عبد الرحمن بيك سامي أن ذهاب الدمشقيين إلى المتنزهات وترويحهم للنفس، أكسبهم طباعاً منشرحة ونفعاً. فهو يقول في وصف الدماشقة:

[فإن الدماشقة جميعاً متمتعون بلذة المأكل على السواء فإنه لكثرة وجود المأكولات اللذيذة، ورخص أثمانها أمكن للفقير أن ينالها بسهولة كالغني، وكذا القول في ترويح

---

(1) رمضان، الورد، ص 8.

(2) هو صادق بن أحمد بن محمد باشا المعروف بابن الناشف، حنفي دمشقي، أحد أعيان الجند في دمشق، ولي الجزية في دمشق وكان يسكن في زقاق الوزير قرب المدرسة القجماسية، توفي سنة 1145هـ/1732م. انظر: المرادي، سلك، ج2، ص 199.

(3) ابن كنّان، الحوادث، ص 143.

(4) ابن كنّان، الحوادث، ص 269. "نزهة علماء دمشق في جنينة البحرات بالسهم الأعلى".

(5) ابن كنّان، الحوادث، ص 498.

(6) ابن كنّان، الحوادث، ص 425.

الـــنفس فإنه إذا كانت المتنـــزهات كثيرة جداً وقريبة والنفقة فيها قليلة أمكن الكل الانشراح أسوة ببعضهم وكذا يمكن القول في الملبس..."[1]].

ومن مظاهر التسلية العامة عادة "السيران" التي يخرج بها أهل دمشق في مرحلة الدراسة، يذكر البديري قي حوادث سنة 1163هـــ/1749م ما يظهر بعض الأماكن الـــتي كـــان يتجه إليها الناس في نـــزهاتهم من النساء والرجال، فهو يصف ذلك بقـــوله: "وفي يوم الخميس ثامن عشر ربيع الأول خرجنا إلى سيران بناحية الشرف المطـــل على المرجة مع بعض أحبابنا وكان الوقت في مبادئ خروج الزهر وجلسنا مطلـــين على المرجة والتكية السليمانية وإذا بالنساء أكثر من الرجال جالسين على شفير النهر، وهم على أكل وشرب قهوة وتتن"[2].

ويلاحظ في الخبر مشاركة النساء للرجال في هذا النوع من وجوه التسلية، كمـــا يحـــدد البديري أماكن السيران التي اقتربت من الأنهار ومجاري المياه فيما يبدو، ويظهر أن التدخين والأكل والشرب كانت من مكملات ذلك النوع من الأنشطة.

وهـــناك المجـــالس والنـــزهات التي كانت خاصة بمجموعة من العلماء ويتمّ الدعوة والإعداد لها بشكل يجعل لها تقاليدها الخاصة، ومن ذلك ما يرويه ابن كنّان حـــين يقول: "وفي ذلك اليوم دعانا بعض الأصحاب إلى بستان يقال له بستان ابن القـــرندس، وكـــان في أيام الزهر"[3] وقد يُذكر اسم صاحب الدعوة[4] ويحدد ابن كـــنّان في بعض الأخبار أسماء المدعوين[5]. ويذكر مشاركة بعض التجار في تلك الدعوات "السيران' إلى جانب العلماء، ومن ذلك الدعوة التي وجهت للمؤرخ ابن كـــنّان ومعه مجموعة من الأصحاب، يقول عنها: "وفي يوم السبت كنّا مع جماعة

---

(1) عبد لرحمن بيك سامي، القول الحق، ص 67.

(2) البديري، حوادث، ص 140.

(3) ابن كنّان. الحوادث، ص 139.

(4) يقول ابن كنّان: "وفي ثالث عشر شهر شعبان كنا في الصالحية بحاكورة الرومي مع صاحبنا صادق آغا أرسل إلينا إلى المسير عنده"، الحوادث، ص 143.

(5) ابـــن كنّان الحوادث، ص 149. "وفيه كنا في سير لبعض أصحابنا بقصر حسين باشا المطل علـــى بانـــياس وكان معنا من الأصحاب عبد الرحيم جلبي الجوخي ومحمد جلبي الأطرقلي وعلي آغا الرومي... الخ".

من الأصحاب ونخبة من الأحباب في قصر ابن برويز بالجسر الأبيض، دعانا للسير المذكورالسيد محمد الخواجا السفار، وكان بعض التحار، ومن الأفاضل الشيخ عبد الرحمن الصناديقي، والشيخ أبو المواهب لحنبلي (ت: 1126هـ/1714م) المفتي[1] ونظمت في ذلك لمكان نظماً"[2].

لم تخلُ تلك النزهات التي يسهب ابن كنّان برصدها في مذكراته[3] من الفنون والمذاكرات الفنية ويحضرها: "من هم من أهل الفضل والظرف والشعر والبراعة والمشاركة في الفنون على جانب عظيم"[4] ومع الأشعار والإنشاد تكون المذاكرة في الموسيقى حاضرة، يقول ابن كنّان: "وكنا في بستان الباشا شمالي جامع السادات ومعنا العالم الأمجد حسن المغربل[5] وتذاكرنا في علوم عديدة في الإعراب والموسيقى والعروض ونظمنا..."[6].

وفي أحد النزهات التي قصد المشاركون فيها بستاناً دمشقياً، يبدو أن خروج الطلبة مع أساتذهم لم يكن شائعا، ولكن يشير ابن كنّان في يوم الثلاثاء 10 رجب 1148هـ/1735م أنه خرج إلى: "بستان الدوّاسات، قرب الربوة وذهبنا نحن وجماعة من الطلبة والشيخ المعيد، وعملنا درساً في المغني هناك في حرف الراء في بحث ربّ إلى المساء ومقدار مكث الدرس خمسة عشر درجة"[7].

---

(1) فقيه حنبلي تولى إفتاء دمشق، واشتهر بعدم تقربه من السلطة، ووقوفه إلى جانب العامة، وكان يعمل بالتجارة وله فيها فتاوى عدة توفي سنة 1126هـ . انظر عن حياته وفقهه ومشيخته في: البعلي، أبو المواهب بن عبد الباقي الحنبلي (ت: 1126هـ/1714م). فتوى في كتاب التجارة والشراكة والملكيات العامة، مخطوط رقم 10618، الظاهرية، مكتبة الأسد، دمشق، ق-ق: 12-62، عليها تواريخ متفرقة آخرها سنة 1124هـ/1712م؛ أبو المواهب بن عبد الباقي الحنبلي، مشيخة أبي المواهب الحنبلي، ط1، تحقيق محمد مطيع الحافظ ورياض مراد، دار ابن كثير، دمشق، 1988. المرادي، سلك، ج1، ص 76-68.

(2) ابن كنّان، الحوادث، ص 499.

(3) ابن كنّان، الحوادث، ص، ص 267، 269 (نزهة تضم علماء دمشق وطلبتها)، 362، 327، 328، 367، 383، 384، 433.

(4) ابن كنّان، الحوادث، ص 241

(5) سبق التعريف به، انظر هامش 20، وهو أديب كان يؤدب الأطفال ويكتب الصكوك، انظر: المرادي، سلك، ج2، ص 26.

(6) ابن كنّان، الحوادث، ص 453.

(7) ابن كنّان، الحوادث، ص 478.

تبدو أخبار ابن كنّان أخباراً منحازة إلى الأعيان أو النخبة، وهذا مرده إلى انتمائه إلى أحد الطرق الصوفية وكونه واحداً من فئة المدرسين وشيوخ الصوفية، فيما تغيب هذه الأخبار عن يوميات البديري التي يطغى عليها الطابع الشعبي، وهو ما تعكسه مادته التاريخية عن أحداث عصره، وبخاصة وصفه لمظاهر التسلية والفنون، التي يتضح فيها قربه من السوق وفعالياته، وهذا ما يبدوا جلياً في عرضه لأخبار بنات الهوى والجواري والمقاهي التي يرويها من باب النقد والشكوى أحياناً.

بالرغم من أن السيران والخروج للمتنزهات كان عادة ارتبطت بثقافة خاصة بها إلا أن مثل تلك العادات لم تكن لتنتشر أو تستقر في البنية الثقافية لولا إيجابية المناخ ووفرة الماء وخصوبة الأرض، مما أمدّ الدمشقيين بأجواء مشجعة على التنزه الذي أخذ طابعاً ثقافيا بالدرجة الأولى، ويشار إلى أن السيران أخذ مسمىً آخر مصغراً عنه أُطلق عليه في العامية الدمشقية مصطلح "الكسدرة"[(1)]. وما زال السيران والتنزه في عادات الدمشقيين بالرغم من تناقص المسطحات الخضراء[(2)]، واندثار الكثير من المتنزهات والحدائق وجفاف نهر بردى.

---

(1) كسدر أو كزدر الرجل: تمشى الهوينا، تسفح أو تنزه، وهي من التركية guezdirmek جعله يتنزه والمصدر كسدارة أو كزدره. انظر: ياسين عبد الرحيم، موسوعة العامية الدمشقية، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 2003م، ط1، ج4، 1315.

(2) بلغت مساحات المتنزهات في دمشق حتى عام 1982 نحو 634 ألف م2، أي ما يعادل 0,5% من مساحة المدينة. كما أن امتداد المصانع إلى غوطة دمشق أدى إلى القضاء على مساحات خضراء كبيرة من قرى حرستا وعقربا وقبر الست وغيرها، إلى جانب الامتداد العمراني الذي طغى على بساتين قرى الغوطة. حول المتنزهات والتخطيط العمراني لدمشق، انظر: صفوح خير، مدينة دمشق، دراسة في جغرافية المدن، دمشق، وزارة الثقافة، 1982م، ص ص 231-382.

III

اللهو الحرام بنات الهوى والغلمان

يأخــذ الحديث عن اللهو الحرام موقعه، في مجتمع مدينة دمشق، كونه واحداً من أوجه النشاط والسلوك المجتمعي، الذي يشف عن معاني متعددة، ويطرح أسئلة مخــتلفة ومــنها إلى أي درجة نجد حضور الشرع في النهي عن المنكر؟ وما موقع الحرام في ثقافة الترفيه وما الموقف العام منه؟ وكيف تعامل المجتمع مع ظواهره؟ وإلى أي حد قبل بها، وكيف تجلى رفضه له؟.

- بنات الهوى

في كــتب اليوميات، يبدو الأغنياء منعمين بخدمة الجواري، والفقراء صابرين، وفيها يفرض رسم على بنات الهوى، وفيها حديث عن أشهر المحظيات عند الولاة ونــوادر بــنات الهوى، ويلاحظ أن أخبارهن تذكر ويتبعها الشكوى من الغلاء ووقــوف الأسعار. كما نجد أن المصادر تستخدم أكثر من أسم فهناك بنات الهوى وبنات الخطأ والوقافات والمحظيات والزواني.. الخ.

وقــف المؤرخون أمام انتشار ظاهرة الجواري وبنات الهوى كثيراً ويبدو أنها كانــت من القضايا التي استهجنوها في العصر العثماني، ويظهر أن لتلك الفئة بيوتاً خاصة بهن، يقول ابن طولون في أحداث شهر جمادى الأولى سنة 885هــ/1480م، "وفــيه خرب بيوت بنات الخطأ بين جامع التوبة وجامع الجديد، بعد أن اشتريت القيــسارية مــن ابن الصقر التاجر بمبلغ ثلاثين أشرفية، ثم انتقلت بنات الخطأ إلى جوار المدرسة اليونسية بالشرف الأعلى..[1]"

ويمــضي ابن طولون في ذكر أخبار بنات الخطأ وتناول المسكرات فيقول في حوادث شهر جمادى الآخرة سنة 927هــ/1519م: "وفي يوم الإثنين سابع جمادى الآخــرة، كُــبس على أحد طلبة العلم، وجماعة مع امرأة من بنات الخطأ في بيت

---

(1) ابن طولون، مفاكهة، ج1، ص 20- 21.

بالقنوات وهم سكارى، فأطلق على مائة دينار، وجُرحت النساء بعد أن سودت وجوههم ووضع على رؤوسهم كروش الغنم وأركبوا حميراً مقلوبين...[1]".

ويشير ابن طولون إلى معاقبة كل من يثبت استهانتها بالأخلاق، وهو ما يؤدي إلى ختم البيوت التي يثبت تساهلها فيقول: "في يوم الأحد ثالث عشرة حصل لبنت زوجة محمد بن الحصيني من ابن صدقة محنة في زاوية ابن الحصني لصيق مصلى العيدين بسبب تساهلها وختم بيتها[2].

وبقدر ما يذكر أحمد بن محمد الأنصاري الشهير بابن الحمصي (ت: 934 هـ/1527م) الأخبار التي تبين فساد الأخلاق وانتشار الفسق ومنها خطف النساء في الأسواق[3]، إلا أنه أيضاً لا يغفل عن نقد الموقف الشرعي من المنكرات ومحرمات اللهو، فهو لم يكن يلقى في بعض الأحيان استجابة من ممثلي السلطة، ويتضح من نصه ارتباط بنات الهوى بمحرمات أخر، فهو يقول في معرض عرضه لأحداث شهر ذي القعدة من سنة 929هـ/1522م ما نصه:

[ثاني عشرية ورد مرسوم من السلطان عن قاضي دمشق بإبطال المحرمات، الخمر والحشيش والزواني واجتمعوا بالكلاسة[4] بالقرب من الجامع الأموي وتكلموا في ذلك مع قاضي القضاة شهاب الدين أحمد بن يوسف الرومي قاضي دمشق، فلم توافق أركان الدولة على إبطال ذلك لما عليه من المكوس للسلطنة وانفضّ الأمر على ذلك..][5]

وفي القرن الثامن عشر يقف البديري الحلاق على كثير من مشاهد الفسق، ومن جملة ما يرويه في أحداث سنة 1157هـ/1744م قوله: "وفي تلك الأيام كثرت بنات الخطأ يتبهرجن بالليل والنهار، فخرج قاضي الشام بعد العصر إلى

---

(1) ابن طولون، حوادث، ص 134.

(2) ابن طولون، مفاكهة، ج1، ص 371.

(3) ابن الحمصي، حوادث الزمان، ص 549. وفي رجب سنة 927هـ "تزايد الظلم، وخطف النساء من الأسواق وغير ذلك من القباح ..".

(4) أوقفها السلطان نور الدين محمود الشهيد سنة 555هـ/1160م وهي لصيقة بالجامع الأموي وكان تحت شباكها الحلقة الكوثرية. انظر: النعيمي، الدارس، ج1، ص 441؛ العلبي، خطط، ص 158.

(5) ابن الحمصي، أحمد بن محمد الأنصاري (ت: 934هـ/2527م) حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران، تحقيق عبد العزيز حرفوش، ط1، 2000، دمشق، دار النفائس، م 1، ج3، 568.

الــصالحية، فصادف امرأة من بنات الخطأ تسمى سلمون، تعربد في الطريق وهي ســكرى مكشوفة الوجه... فصاح جماعة القاضي عليها أن ميلي عن الطريق، هذا القاضي، فضحكت وهجمت على القاضي... وأرسوا منادياً ينادي كل من رأى بنتا من بنات الخطا يخرجها... مع الغلاء ووقوف الأسعار"[1].

تقتــرن أخــبار بنات الهوى بالفساد والظلم وانعدام الأمن، وغياب مفهوم "النهي عن المنكر" وهذا ما تعكسه حادثة طريفة ارتبطت بحكاية عشق بين واحدة مـــن بنات الهوى وغلام من الأتراك، حدث ذلك سنة1161هـــ/1748م وجاء خبر الحادثة عند البديري:

[... في تلــك الأيام زاد الفساد وظلمت العباد وكثرت بنات الهوى في الأسواق في اللــيل والــنهار، ومما اتفق في حكم أسعد باشا[2] أن واحدة من بنات الهوى عشقت غلامــاً من الأتراك فمرض، فنذرت على نفسها إن عوفي من مرضه لتقرأن له مولداً عــند الــشيخ رســلان، وبعــد أيام عوفي من مرضه فجمعت شلكات البلد وهن المومسات ومشين في أسواق الشام، وهن حاملات الشموع والقناديل والمباخر وهن يغــنّين ويصفقن بالكفوف ويدقن بالدفوف والناس وقوف صفوف وهن مكشوفات الوجــوه...ومــا تم ناكــر لهــذا المنكر، والصالحون يرفعون أصواتهم ويقولون الله اكبر.][3]

ويلاحــظ في الخبر أن هناك تقاليداً خاصاً "بالمومسات" وأنهن كُنّ يخرجن إلى الأســواق في مــواكب خاصة، وهذا ما جعل البديري يعد مثل ذلك السلوك أمراً منافياً للأخلاق العامة.

لم تلــق شــكوى الناس من الفساد وانتشار الفوضى إذنا صاغية دائما، ففي بعــض الأحيان ولأسباب غير واضحة يبدو موقف الولاة سلبيا من تلك الظواهر وهذا ما حدث سنة 1162هـــ/1748م عندما أخبر أسعد باشا العظم بخروج لنساء

(1) البديري، حوادث، ص 56.

(2) حكــم من بعده أسعد باشا العظم مدة خمس عشرة سنة، بدأت سنة 1156هـــ/1743م وانتهت في سنة 1170هـــ/1756م. انظر في: البديري، حوادث، ص ص 47-196 وانظر:
Rafeq, A. The Province of Damascus .1723 - 1783 (2.ED), Khayats, Beirut, 1970, P.35. And see Linda, Schilecher, Families in Politics Damascus Factions and Estate of the 18th and 19th Centuries, Berlin, 1985 .

(3) البديري، حوادث، ص 112.

وبنات الهوى إلى الأسواق وأنهن كن ينامن في الدكاكين والأفران والمقاهي وطلب إليه الأمر بإخراجهن ويورد البديري الحوار الذي دار في مجلس التأم للنظر في الشكوى بقوله:

[.. وقال له دعنا نعمل لهن طريقا إما بترحيلهن أو بوضعهن بمكان لا يتجاوزنه أو نتبصر في أمرهم، فقال – أسعد باشا –: إني لا أفعل شيئاً من هذه الأحوال ولا أدعهم يدعون عليّ في الليل والنهار، ثم أنفض المجلس ولم يحصل من اجتماعهم فائدة..][1].

ويبدو أن تمادي بنات الهوى بعد تلك الحادثة، وظهورهن في شوارع المدينة بشكل مناف للأخلاق، حرك العلماء الذين ظهر تأثيرهم واضحاً على أسعد باشا العظم أكثر من تأثير رجال الإدارة في ديوانه، وكان ذلك التحرك الذي استجاب له أسعد باشا يعكس طبيعة الدور الأخلاقي الذي مارسه العلماء، وكان ذلك سبباً في إصدار أوامره بضرورة إخراج بنات الهوى، والتنبيه على مشايخ الحارات بذلك، ويقول البديري:

[... وفي ذلك اليوم أمر الحاكم بأن يخرجوا بنات الهوى، وهن الشلكات من البلد إلى خارج البلد، وأظهر أنه يريد أن ينفيهن إلى بلاد أخرى ونبه على مشايخ الحارات أن من وجد في حارته ذو شبهة لا يلومن إلا نفسه...][2].

غير أن هذا التشديد على ضرورة إخراج بنات الهوى، لم يصمد طويلاً، وانتهى بالترخيص لهن بممارسة نشاطهن مقابل دفع ضريبة مالية أو رسم يدفع كل شهر، كما جعل عليهن قوة عسكرية يقودها "الشوباصي"[3]، ويتابع البديري خبره قائلاً:

---

(1) البديري، حوادث، ص 127.

(2) البديري، حوادث، ص 134.

(3) الصوباشي/supashi أو رئيس الشرطة، رئيس فرقة الجند السباهية وهو كبير موظفي الأمن في المدينة، كلف بمراقبة الأمن في دمشق وتطبيق أحكام الشريعة ومطاردة المجرمين. انظر: ابن طولون، مفاكهة، ج2، ص 77؛ عبد الكريم رافق، بلاد الشام ومصر من 1516–1798م، ط2، دمشق، 1968، ص 78؛ نعيسة، مجتمع، ج1، ص 224. جب، هاملتون. بوون، هارولد. المجتمع الإسلامي والغرب، ط1، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى، 2ج، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1990. ج1، ص 217.

[.. ومـــا بقي التشديد غير جملة أيام، إلا وقد رأينا البنات المذكورات يمشين كعادتهن في الأزقة والأسواق وأزيد، ورجعن إلى البلد ورتب الحاكم عليهن في كل شهر على كل واحدة عشرة غروش وجعل عليهن شوباصيا..][1]

وبرغم أن البديري يروي تلك الأخبار بقالب أدبـــي بسيط، إلا أنه يحمل صورة الـــسخط علـــى الفساد وانحلال الأخلاق، وفي غير مكان من حوادثه يشير إلى وجود المحظيات والسرايا والجواري عند أعيان دمشق، فهو يذكر أن سليمان باشا العظم كان "يملـــك ســـرية مقدمة على غيرها من الجواري تسمى زهرا "[2]، وتمدنا وثائق السجل الشرعي بعدد من الحجج الخصة بالجواري وغالبها في قضايا لعتق[3].

ويظهر أن الموقف الرافض لوجود بنات الهوى وأهل الفسق في مدينة دمشق، كـــان سببا في بناء منشآت دينية وعلمية في أماكن انتشار تلك الظاهرة ومن ذلك بـــناء المدرسة المرادية البرانية[4] التي شيدت في سوق ساروجة، ويشار هنا أيضا إلى وجـــود خان عرف باسم خان الهوى وكان يأوي إليه "أهل الفسق والفجور" وتمّ تحويله إلى مدرسة وجامع عُرفت باسم المدرسة المرادية الكبرى الجوانية[5].

- شرب الخمر

يظهر من خلال مصادر الدراسة أن تناول الحشيش وشرب الخمور انتقل من العهد المملوكي إلى العهد العثماني، لكن الأهم في العهد العثماني أن ثمة اعترافاً غير

---

(1) البديري، حوادث، ص 134، والشوباصي هو رئيس لعدد من الجند للمحافظة على الأمن.

(2) البديري، حوادث، ص 58.

(3) ســجل 139، حجــة 258، ص 112، 29 شعبان 1116هــ/1752م؛ سجل 115، حجة 246، ص 144، 10 شعبان 1159هــ/1746م (لدى مولانا اشهد اسعد بن محمد المنير.. على عتق جاريته العاملة عند الشيخ خليل الصديقي..)؛ سجل 150، حجة 244، ص 75، 29 ذي القعدة 1170هــ/1756م.

(4) أوقفهــا مــراد المرادي سنة 1108هــ/1696م وبنى معها مسجداً ولها باحة مستطيلة تحيط بغــرف عددها ثلاثون وفي المدرسة قبران هما قبر محمد بن مراد لمرادي (ت: 1169هــ/1755م) وقبر ابنه علي (ت: 1184هــ/1770م). انظر: المرادي، مطمح، ق34و؛ المرادي، سلك، ج4، ص 129؛ ابن كنّان، الحوادث، ص 8. و نظر: العلبي، خطط، ص 267.

(5) كانــت هذه المدرسة خاناً حوله مراد المرادي إلى مدرسة وهي تقع في سوق المرادية الذي بــناه مــراد باشــا في منطقة باب البريد جنوب المدرسة لظاهرية، وتشمل على 52 غرفة؛ انظر: المرادي، مطمح الواجد، ق35ظ؛ سلك، ج4، ص 130؛ العلبي، خطط، ص 268.

مباشر بالظاهرة باعتبارها شكلا من أشكال التمظهر الحضري؛ وكان تخريج ذلك الاعتراف بفرض رسوم عليها بحسب المصادر المحلية التي تبين أنه تمّ فرض رسوم أو مكــوس على شرب الخمر، لكن انتشار هذه العادة المحرمة كان فيما بعد سبباً في صــدور عدة أوامر بإبطالها، وهذا ما حدث في شهر صفر 927هـ/1520م، حيث نــودي بدمشق "بإبطال المحرمات من الخمر والحشيش والوقافات، وأبطل المكوس الذي كان أعده السلطان سليم عثمان على البضائع بالخان ودار البطيخ.."[1].

ومــن مشاهد الفسق وشرب الخمر المرافقة لأفراح المدينة وتزيينها ما حصل عند انتصار جيوش السلطنة العثمانية في رودس سنة 929هـ/1521م ففيها "دقت بشائر النصر وأطلق نفط كثير بقلعتها نهاراً ثم ليلاً، ونودي بالزينة سبعة أيام"، لكن مــا يأخــذه ابــن طولون هو الفوضى وإظهار المعاصي الذي صاحب مثل تلك المناســبات في أسواق دمشق خصوصاً في سوق باب الفرح "من شرب الخمر مع النــساء والصبيان مع إيقاد الشموع وكان غالب من مرّ عليهم إن لم يشرب منهم رشوا على ثيابه الخمر"[2].

ويــبدو أن الخمرة لا تفارق أفراح الدمشقيين ومناسباتهم ويظهر في أكثر من خبر المبالغة بالاحتفالات وإظهار الفرح حتى في المناسبات الخاصة، ففي يوم السبت 23 محرم 934هـ/1527م، "كانت زفة ولد والي القُحب والعُلوق الشهاب وحصل فــيها مناكــرة حــتى شُرب الخمر على رؤوس الأشهاد، والنساء حاسرات عن

(1) ابن طولون، حوادث، ص 122. ويشير البخيت إلى أن محصول بيت الحشيش وغيره السنة بلــغ 3600 آقجــة، انظر: محمد عدنان البخيت، العوائد المالية لمقاطعات دمشق الشام على ضوء دفترطابو (T.D.472) سنة 977هـ/1569م. في دراسات في تاريخ بلاد الشام، سوريا ولبــنان، مجلــد 3، منشور المعهد الفرنسي للشرق الأدنى، دمشق، 2008، ص 191، وانظر كذلك البخيت في دراسته الأولى عن دمشق:

BAKHIT, M.A. The Ottoman Province of Damascus in the Sixteenth Century, Library du Liban. Beirut. 1982.P141-142

ولا يــشير أحمد أق قندوز إلى أي نوع من تلك الرسوم التي كانت تفرض على بنات الهوى أو الخمر في التشريعات المالية العثمانية، وإنما يشير فقط إلى رسوم الدخان. انظر: أحمد آق قــندوز. التشريع الضريبي عند العثمانيين، ترجمة فاضل بيات، منشورات لجنة تاريخ بلاد الشام، الجامعة الأردنية، عمان، 2004م، ص 48.

(2) ابن طولون، حوادث، ص 154، ويتكرر تزيين مع ورود أخبار انتصارات السلطان سليمان سنة 936هـ/1526م، حوادث، ص 221.

معاصـــمهن وهـــن بالنقوش والخُضر يضربن بالدفوف والشبابة والمردان تنسج في العنبر وتدق الذهب وتمده..."[1].

لم تكـــن معارضة أو استهجان شرب الخمر بسيطة، فالخبر عن سيرة الشيخ مبارك عبد الله الحبشي يدل على رفض لمثل هذه الممارسات ومحاولة إعاقة أصحابها وثنيهم عن أعمالهم، فهو يقول: ".. أنه صار له مريدون وأمر بالمعروف وهي عن المنكر من إراقة الخمور وغيرها وقاموا عليه غير مرة (تجار الخمر) وكسر خماميرهم وقـــصدوا قـــتله ..." ولا يقف الشيخ مبارك عند هذا الحد فقد أقام هو وجماعته زاويـــة بالقرب من القابون التحتاني وصار هو وجماعته يرصدون الطريق على نَقَلة الخمر فيقطعون ظروفها ويريقونها ...[2].

ويشير ابن طولون (ت: 953هـــ/1546م)، إلى عادات لا تتوافق وأمر الشريعة ومـــنه شرب البوزة[3]، ويرد في خبرها أن صناعها كانوا من التركمان، ويبدو في الخـــبر أن هناك مكاناً خاصاً لشربها في دمشق أطلق عليه "الشراب خانة[4]"، وفي ذات الـــسياق يـــتابع ابن طولون الحديث عن الأشربة أو الأطعمة غير المشرع بها فيذكر في حوادث شهر ربيع الأول لسنة 885هـــ/1480م، ما يلي:

"وفي يـــوم السبت عشرينه مرّ شخص على زاوية الشيـخ العداس ومعه معجون عبارة عـــن الحشيـــشة مخلـــوط بدبس، فقام الشيخ عبد القادر النحاس من جماعة الفقراء وشخص من جهته، ورميا ما معه وأزلاه وكتب عليه إشهاداً بأنه لا يبيعه"[5].

وبالـــرغم من أن تناول الحشيشة، وشرب البوزة أمر مرفوض بعُرف العلماء، وهو أمر واضح من الناحية الفقهية، إلا أن المهم في سياق حديثنا، ويظهر من خلال النصوص الـــتي نـــوردها هو قدرة العماء والمجتمع على تكوين تيار رافض لكل مظاهر التسلية غير

(1) ابن طولون، حوادث، ص 201.

(2) ابن طولون، حوادث، ص 307.

(3) البوزة: هي الشراب المعروف المتخذ من الأرز أو الشعير أو الذرة، انظر: إبراهيم الكيلاني، مـــصطلحات تاريخـــيّة مـــستعملة في العُصور الثلاثة الأيّوبي والمملوكي والعثماني، جمعها وشرح معانيها. مجلة التراث العربي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق العدد 49، السنة 13، ربيع الآخر 1413هـــ/تشرين الأول أكتوبر 1992م، ص 23.

(4) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج1، ص 7.

(5) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج1، ص 8.

المـــباحة، ومـــن ذلك ما يشار إليه في العامية الدمشقية، وهو مشروب مسكر اسمه الشُّش[1]. وقد ألف مفتي دمشق محمد بن سلطان الحنفي "رسالة في تحريم الأفيون"[2].

وفي ذات الـــسياق يتابع ابن طولون حديثه عن شرب الخمر، الذي يبدو أنه كان شائعاً آنذاك فيذكر أن من أسباب وفاة بعض الأشخاص تناولهم الخمر فيقول: "وفي يـــوم الأحد ركب محمد بن عياش، الركّاب، فرساً بأجرة، وكان قد شرب الخمر، فسقط على الأرض، فداس الفرس في رأسه فقتله في طريق المزه، تجاه بستان الـــنوروزي، وفي اللـــيلة المذكورة قُتل سكراناً علي بن خريش المعمار بالقرب من الباب الحجر في طريق كفر سوسيا..."[3].

يـــؤكد نص ابن طولون في مفاكهة الخلان بأن شرب الخمر وانتشار الفساد وبـــنات الخطـــأ كانت من الأعمال المتزامنة في بعض المناسبات، فيقول: "ونودي بدمـــشق بإظهـــار الـــزينة لقـــدم قاصد السلطان، ومن معه من البلاد العثمانية، وتزايدت، ولم يكن عادة التزيين إلا بمرسوم شريف، وحصل على التجار مشقة مع كثرة الخمر والفساد وبنات الخطأ وخروج النساء للفرجة.."[4].

ويذكر نجم الدين الغزي في ترجمته لمحمد بن أحمد بن سلطان (ت: 950هـــ/ 1543م)، أنه ألف رسالة في تحريم الأفيون، وكان يسمي بيت القهوة الخمارة، وأنه لمـــا عـــاد مـــن مصر وسألوه عن أحد علمائها قال: "حدثت بمصر شرب القهوة يجـــتمعون علـــيها كاجـــتماعهم علـــى شرب الخمر"[5]. ويرتبط أكل الحشيشة بالمجاذيـــب، فهذا سويد المجذوب يعرفه أهالي حلب وعلماء دمشق، بأنه كان يأكل الحشيشة ويضعها أحياناً في "كُمه"[6]. ويشير المحبـــي في بعض تراجمه إلى استغراق بعض الناس "بالكيف" دون أن يوضح المقصود منه[7].

---

(1) نـــوع مـــن المسكر مثل اليشتكي والتمر بغاوي. (أهدى إليه مشروباً يقال له: الشُّش). انظر: إبراهيم الكيلاني، مصطلحات تاريخيّة، ص 23.

(2) المرادي، عرف، ص 29.

(3) ابن طولون، مفاكهة، ح1، ص 109.

(4) ابن طولون، مفاكهة، ج1، ص 139.

(5) الغزي، الكواكب، ج2، ص 13.

(6) الغزي، الكواكب، ج1، ص 212.

(7) المحبي، خلاصة، ج20، ص 69.

في نهايـــة القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر كانت المقاهي مكانا يرتاده الراغبون في السهر، المشفوع بتناول المسكرات والخمور، ويظهر أن من أسباب منع القهـــوة وإغلاق المقاهي انتشار عادة شرب الخمر فيها، ومع دخول دمشق تحت الحكـــم المصري (1831 - 1840) حدث تطور مهم، تمثل في إنشاء أول خمارة في الشام بأمر من إبراهيم باشا، وقد وصف صاحب مذكرات تاريخية ذلك بقوله:

[.. وبعده صدر أمر من إبراهيم باشا أن يصير خماره في الشام فأمر الديوان أنه يصير تنبـــيه عند النصارى واليهود وغير مواضع لأجل مزاد في ضمان رسم الخمارة فبقي المـــزاد حكـــم خمسة عشر يوم حتى انتهى حال التزام الخمارة بسبعمائة كيس وصار ضمانها من عيد الصليب وضمنوها نصارى ويهود وإسلام وأخذوا خان المصبنة الذي في الخـــراب وقاعة النشا وعملوهم خمارة وتشوف الإسلام بأسوأ حال لأنه شيء مثل هـــذا عملاه ما صار قبلا بالشام وتنظر الوارد على الخمارة مسلمين ونصارى ويهود وتنظر العرق والنبيذ مبسطين فيه بالقهاوي والشوارع ... ودكان في باب الجابية وفي ســـوق الخيل وفي باب مصلى وعملوا ميري (رسم) على الذي يرمي في بيته عنباً قُدر ثمـــن العـــنب الميري وأخذوا الزبيب صاروا يبيعوه من تحت يدهم وجمعوا من بيوت النـــصارى واليهود خوابـــي وأخذوا العرق والنبيذ لأجل المبيع وأعطوهم ربع الثمن وأخـــذوا من عندهم جميع الأوائل التي يطبخوا فيها العرق وصار تحرير - تدقيق - كلـــي علـــى الذي يبيع عرق أو نبيذ والذي يظهر أنه يبيع عرق أو نبيذ من غير أمر الخمارة يصير عليه زيادة كلية وقطعوا ثمن رطل العرق باثني عشر قرش ورطل الخمر بستة قروش وصار تحريج - تضيق - على العنب أنه ينـــزل جمعية في زقاق السلطاني بحـــارة النـــصارى وأنه حتى يكتفي الكرت - المسكرات - والخمارة] أخذ المتعيش ويـــصير شـــحته - قلـــة - في الـــسوق علـــى بـــيع العنب لأجل الأكل في كل الحارات..][1].

ومن خلال النص السابق يتضح أن شرب الخمر وبيعه وعرضه أخذ شكلا أو إطـــاراً قانونياً ووضعت رسوم مقدرة على عمليات البيع والتخزين، وهذا بطبيعة الحـــال لا يمكن فصلة عن تصاعد حضور غير المسلمين إبان الحكم المصري في بلاد الشام، والشيء اللافت في النص أن المسلمين أشركوا في المسألة مما يلقي أهمية على حـــضور الـــشريعة وحكمها في ذلك، كما يمدنا النص بمعلومات عن أماكن بيع

(1) مجهـــول، مذكـــرات تاريخية عن حملة إبراهيم باشا على سوريا، تحقيق أحمد غسان سبانو، دار قتيبة، د. ت. ص 66.

الخمـــور وعرضها وأسعارها، وتستمر عادة شرب الخمور نهاية القرن التاسع عشر وبدايـــة القرن العشرين، وتأخذ شكلا مغايرا لطابعها المستور في القرون السابقة إذ يقول محمد كرد علي في وصف مجالس الخمر:

[.. وقد فشت مؤخراً عادة ارتياد بعض الشباب أماكن الشراب، وموقعها غالباً بين الرياض والغياض، وعلى ضفاف الأنهار، وتكون أغلب تلك الاجتماعات متجانسة، فتـــراهم جماعات متشاكلين حول مناضد الشراب، يجتمع كل أليف على أليفه، وتجد جالساً إلى كل منضدة غالباً رجل من أرباب الصوت الحسن ينشد أصحابه الأناشيد الحـــسان. ومـــنهم من يختلف إلى زمرة الموسيقيين الفنانين، يصحبون آلاتهم كالعود والكمـــنجة والقانـــون والدائرة والناي ومنهم من يقتصر على بعض تلك الآلات. وتجـــري غالب الاجتماعات في أماكن خاصة. وأما المحال العامة للشراب فتحوي من كـــل شيء أحسنه كالمنشدين والمغنين والآلاتية، وتسمى تلك الأماكن الجنائن، تضم غالـــباً المـــاء والخضرة والشكل الحسن، وتبتدئ وقت الغروب وتنتهي عند منتصف الليل...][1]

ومـــا يتـــصل بالممنوعات التي لها صلة بالترفيه في دمشق انتشار عادة شرب الخمـــر، وقـــد الفت العديد من الرسائل الممانعة للدخان والدالة على تحريمه، برغم وجـــود رسوم خاصة به[2]، ويبدو أن انتشار المدخنين في المقاهي وتناولهم الدخان والخمر كان وراء حملات الكشف المتكررة على الأسواق والمقاهي والتي استهدفت منعه ووصلت أحياناً إلى إغلاق المقاهي.

يقـــول ابـــن كنّان: "وفي يوم الجمعة العاشر - ربيع الأول 1111هـــ/1699م - نادى الباشا على التتن أن لا يشربوه في الأسواق". ويبدو أن المناداة بالمنع لم تكن تلقى استجابة ملموسة، مما استدعى تفتيش الولاة على الأسواق متخفيين أحياناً، وفي أوقات مخـــتلفة. "يـــوم الجمعـــة طلـــع الباشا متخفيا إلى الصالحية، وكسروا بعض أقصاب الدخان..."[3] وقد نظر إلى الدخان على أنه داخل تحت نصوص التبذير والإسراف[4].

---

(1) كرد علي، خطط، ج1، ص 287.

(2) قندوز، التشريع الضريبي، ص 48، 50.

(3) ابن كنّان، الحوادث، ص 21.

(4) الخادمـــي، أبو سعيد محمد بن مصطفى (ت: 1176هـــ/1762م) رسالة في الدخان، مخطوط رقـــم 2086، مجموعة جاريت، جامعة برنستون، شريط مايكرو فلم، رقم 72، مركز الوثائق والمخطوطات الجامعة الأردنية، ق 148-149.

- حب الغلمان

يمكــن اعتبار حب الغلمان ممارسة متصلة مع اللهو الحرام، وهي في خصائص ناســها الــذين نملك عنهم بعض المعلومات، نجد أن المُحبِّين هم من طبقة العلماء والشيوخ، أما المحبوبين فلا نملك ما يشير إلى هوياتهم، ومع أن ذلك السلوك لم يرق إلى مــستوى العادة بين الشيوخ كلهم إلا أن تلك الممارسة لا تنفصل عن شرائح المجتمع الأخرى، التي من المتوقع أن ذلك السلوك انتشر بينها، بيد أن المصادر تـحظ رجــال العلم والشيوخ أكثر من غيرهم، وذلك يعود للمنهج التاريخي الذي يسلك طريق الاختيار ويهتم بصفوة الناس أكثر من العامة.

في معرض ذكر ابن طولون لوفاة الشيخ شمس الدين محمد القويضي الصالحي (ت: 949هـــ/1542م) يــشير إلى أن الشيخ القويضي: "كان يُتهم بحب الغلمان وبُلــي في آخر عمره باستعمال الأفيون وكان يُحسن اللعب على العود والكمنجا والطنبورة وينظم الشعر.." [1].

أما أبو السعود أحمد بن السعود الدمشقي (ت: 1056هـ/1646م)، فرغم أنه كـــان تاجراً ميسوراً وصاحب أوقاف وافرة إلا أنه "ابتلي بمحبة غلام وانفق عليه مـــالاً كــثيراً وكان الغلام كثير التجني عليه واتفق أهل صاحب الترجمة أكثروا في لومه وتعنيفه فلم يرجع عما كان فيه وأذاه ولهه وغرامه إلى قتل نفسه، قيل أنه أكل سبعة دراهم من الأفيون وعولج فلم يفد علاجه ومات ..." [2].

وعرف أن الشيخ أيوب بن أحمد الخلوتي (ت: 1071هـ/1660م)، أحد أبرز مشايخ الصوفية، كان يقع له في باب العشق أحوال مقرونة بكرامات ومن أشهرها مـــا حدث به بعض الثقات أن الشيخ حضر ليلة عند بعض خلانه وكان في المجلس غلام بارع الجمال فلما أراد النوم طلب الشيخ مضاجعته فأنكر عليه بعض الجلساء

---

(1) ابــن طولــون، حوادث، ص 350، ومما يذكره ابن طولون تخصيص خان خاص بالمخنثين والــشاذين جنسياً الذين أطلق عليهم مصطلح "العُلوق"، مع التزامهم بتقديم ضريبة قدرها كل شهر خمسمائة عثماني وتؤدى لزعيمهم بخلعة خاصة وعين لهم الخان المنجيكي شرقي جامع تنكــز". حــوادث، ص 152، وتعتبر ظاهرة حب الغلمان قديمة وشائعة وهناك نوادر كثيرة عــنهم، انظــر: داود بن عمر الأنطاكي (ت: 1008هـ/1599م)، تزيين الأسواق في أخبار العشاق، بيروت، ط1، 1972م، ج2، ص 370.

(2) المحبي، خلاصة، ج1، ص 118.

والتـــزم مـــراقبته في ليلته ... وتكرر منه فعل ذلك فألقى عنه التسليم ورجع عن إنكاره وهذا من صفاته البديلة.."[1].

ولم تقتـــصر الرغبة بالغلمان على تلك الصور، بل أن بعض الأولياء أنشدوا شـــعراً بهم، إذا مدح حسين بن أحمد الجزري (ت: 1033هـ/1623م)، غلام في دمشق رمدت عيناه فقال:

وما رَمَـدٌ في عـين حبـي لعلة
ولكـنني أنبـيكمُ بوجـوده
أراد يـرى مـا في محـياه مـن سنا
فآثـر فـيه جـرم شمـس خدوده[2]

ويـشير المحبـي، إلى أن أحمد بن محمد الحصكفي (ت: 1003هـ/1594م) وضع رسالة في "وصف نبذة من الغلمان"[3]. أما لطفي بن محمد بن يونس الكاتب الدمـشقي (ت: 1005هـ/1596م) والذي عرف بأدبه البليغ وسعة حفظه للشعر والأدب، فقد ترك القراءة "واشتغل بهوى نفسه وعاشر الفتيات والغلمان ومما اتفق أنـه تعشق ولدين للشرفي يحيى بن شاهين الصالحي، أحدهما يدعى إبراهيم والآخر درويـشاً وكانـا بارعين في الجمال وصرف عليهما جميع ما اقتناه من تراث أبيه وكـان يوقد بحضرتهما في مجالس المدام ثلاث شمعات من الشمع العسلي ويضع في كل واحدة ما يزيد على خمسين ديناراً فكلما ذاب منها شيء يسقط دينار فيتناوله أحد الغلامين ودام على هذا زماناً حتى فقد منه المال ... إلى أن صار في آخر عمره يقف في بعض أسواق دمشق يستجدي.."[4].

ومـن قصص ونوادر حب الغلمان ما حدث للشيخ أحمد بن محمد الشوبكي (ت: 1007هـ/1598م)، الذي قيل أن لصوصاً دخلوا عليه منـزله وأمسكوا لحيته وأرادوا قتله، ونسب "فعل ذلك إلى غلام رومي كان مال إليه ثم تركه ..."[5].

---

(1) المحبي، خلاصة، ج1، ص 430.
(2) المحبي، خلاصة، ج2، ص 83.
(3) المحبي، خلاصة الأثر، ج1، ص 278.
(4) المحبي، خلاصة، ج3، ص 307.
(5) المحبي، خلاصة، ج1، ص 281.

وفي القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي يعرض المؤرخ محمد خليل المرادي لهذه الممارسة التي يرى أنها ارتقت فيما يبدو إلى شكل الظاهرة، وارتبطت بالعلماء وكانت غير محببة إليه[1]. وجاء عند المرادي في معرض ترجمته للشيخ مكي بن محمد الجوخي (ت: 1192هـ/1778م) أنه أُغرم بحب غلام عراقي بغدادي كان يقيم في دمشق، وكان هذا الغلام يوصف بأنه "أسفر وجهه المنير وراق رونق جماله النـــضر" ومن شدة حب الشيخ مكي للغلام أنشد شعراً في وصفه أورد المرادي منه:

أفـــدي عـــراقيا تملـــك مهجـــتي

باهـــي الجمـــال كـــبدر تمّ مـــشرق

فـــنحوت غـــرباً أبتغـــيه ممّـــوهاً

عـــن عـــاذلي والقـــصد نحو المشرق[2]

ويظهر أن حب الرجال إلى مملوكيهم أو غلمانهم كان سبباً في غيرة نسائهم، إذ يذكر البديري "وفي تاسع عشر جمادى الأولى - 1168هـ/1754م - ظهر خبر بأن امرأة قتلت زوجها مع جماعة من الأشقياء بدعوة أنه ينام مع مملوكه، ولا ينام معها وبعد قتله دفنوه في دهليز البيت والقتيل ينتسب إلى الأكراد.."[3].

(1) المـــرادي، سلك، ج4، ص 51. ويذكر هنا أن الشيخ ابن قدامه المقدسي طالب العلماء "بعدم مجالـــسة أولاد الأغنياء لكونهم يبدون أحياناً في صور أقرب إلى النساء". ابن قدامة، فتيا في ذم الشبابه، ص 28.

(2) المرادي، سلك، ج4، ص 138.

(3) البديري، حوادث، ص 185.

IIII

الألعاب الشعبية

مارس الدمشقيون قبل العصر العثماني مجموعة من الألعاب ووسائل اللهو الشعبية التي استمرت فيما بعد، وتشير مصادر ما قبل الحكم العثماني، إلى عدة أنواع من الألعاب ومنها ما كان حكرا على الخاصة من الحكام والأمراء والأعيان، ومنها ما مارستها العامة، ومن ذلك سباق الخيل، وقد أنشئ للخيل سوق خاص بحاجياها تحت قلعة دمشق، قرب الميدان الأخضر الذي كانت تجري فيه السباقات مرتين في الأسبوع[1].

وعرف الدمشقيون ألعاباً جماعية مثل اللعب بالكرة والصولجان وهي ألعاب عرفها العرب قديما، وكان الميدان الأخضر المكان أكثر شهرة للعب بالكرة، وعدت الأعياد في العهد الزنكي والأيوبي من أكثر الأوقات التي تجري فيها هذه اللعبة[2]، وهناك اللعب بالقبع والبندق وقد حظيت هذه اللعبة باهتمام الأمراء من الزنكيين والأيوبيين[3] واستمرت في الحقبة المملوكية ومن بعد في العهد العثماني.

وتذكر التراجم الدمشقية عدداً ممن اشتهروا بلعب الشطرنج والرمي والنرد والدف ومنهم الشيخ محمد بن عراق (ت: 933هـ/1526م)[4]. وعرف جمال

---

(1) جان سوفاجيه، دمشق الشام، بيروت، 1972م، ص 35-40

(2) أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي (ت: 665هـ/1216م)، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، تحقيق محمد أحمد حلمي، القاهرة، 1956-1962م، ج1، ص 580.

(3) تتمثل لعبة القبع بوجود خشبة في الميدان المعد لها، وتتصل بدائرة من الخشب يحاول فيها الرماة والمتسابقون أن يقدموا بسهامهم عبر جوف تلك الدائرة لكي يمر السهم من خلالها ليصل إلى الهدف المعين، وأما البندق فهي لعبة تعتمد على عدة كرات من الطين أو الحجارة ترمى في الهواء ويحاول المتسابقون جمعها. انظر: ابن واصل، محمد بن سالم نصر الله (ت: 697هـ/1298م) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، 1953م، ج1، ص 260.

(4) الغزي، الكواكب، ج1، ص 59.

الـــدين بن محب الدين المعروف بالجنيد الدمشقي (ت: 1078هـــ/1667م)، بأنه كان فـــريد عصره في لعب الشطرنج ولم يكن في عصره مثله في معرفته والناس يضربون به المـــثل فـــيقولون لمن يحسن لعبه فلان يلعب مثل الجنيد"[1]، ومن غرائب الشيخ جمال والـــتي تدل على تعلقه بلعب الشطرنج أنه مات وله ولدان وجيء إليه بخبرهما وهو مع جماعة في بستان بالصالحية يلعب بالشطرنج فلم يُشعر أحداً وقام وأعطى المخبر دراهم وفوّض عليه أمر تجهيزهما وعاد إلى ما كان فيه وبالجملة فإنه من نوادر الزمان ..."[2].

وأمـــا عبد الباقي بن أحمد السمان (ت: 1088هـــ/1766م) فكان يجالس لكبار في لعب الشطرنج، وكان إذا لعب "ظهر منه بعض الطيش والدعوى وقد أنشد شعراً:

لـــئن أمـــسيت أدنى القـــوم ســـناً

فعـــــدّ فـــــضائلي لا يــــستطاع

كـــشطرنج تـــرى الألـــباب فـــيه

حـــيارى وهـــــو رقعـــــته ذراع

ويقول المحبـــي "كان مفردا في لعب الشطرنج وله فيه محنة زائدة"[3]. وهناك إشـــارة إلى أن لعب الشطرنج لم يكن مقتصراً على المدن ومجالس الأعيان، بل إنه كان ممارساً في البادية أيضاً[4].

ويـــرتبط البحث عن التسلية والألعاب الشعبية بضرورة الكشف عن الآلات الفنـــية التي كانت موجودة في بيوت الأغنياء، إذ يروي ابن كنّان في معرض وصفه لأحد مقتنيات بيت وجيهٍ دمشقي، أن في بيته "آلة الأرغلا"[5] ومن وسائل الترفيه

---

(1) المحبي، خلاصة، ج1، ص 493.

(2) المحبي، خلاصة، ج1، ص 494.

(3) المحبي، خلاصة، ج2، ص 276.

(4) المحبي، خلاصة، ج2، ص 222.

(5) ابـــن كـــنّان، الحـــوادث، ص 137. وهي آلة يونانية قديمة واستمرت في العصور الوسطى وكانـــت في البداية تصنع من جلود الجواميس ثم صنعت من الخشب على هيئة لوحة مفاتيح وحـــين يقـــوم العازف بالضغط على مفتاح منها يسمح للهواء أن يدخل إلى أنبوب طويل من الخشب فيتذبذب الهواء في الأنبوب محدثاً الصوت الذي يخرج من طرفه الآخر وكن قديماً يـــسمى الأرغانـــون ثـــم صـــار اسمه الأرغن.." انظر للمزيد: الخوارزمي، مفاتيح العلوم. ص 241.

والتسلية التي يصفها في مجتمعه "صندوق الدنيا الذي جاء من حلب".[1] وأتاح للدمشقيين رؤية بلاد النصارى، ومدن عثمانية مثل أدرنه واسطنبول.

في النصف الثاني من القرن 12هـ/18م يذكر البديري قدوم شخص من بلاد الاتراك سنة 1163هـ/1750م، يقال إنه: "جاء ومعه صحن من نحاس يضعه على عود ويفتله عليه ويقذفه إلى أعلى قامتين ويتلقاه على العود وهو يفتل وينقله من إصبع إلى إصبع وهو دائر يفتل ويلم فلوس من المتفرجين.. وهناك رجل آخر من أبناء الترك كان يصفق بأصابعه بضرب بالواحدة على الأخرى ويدق برجليه على الأرض دقاً محكماً ويغني بالتركي والعربي ويجتمع الخلق عليه ويعطونه فلوساً فصارت أولاد الشام الصغار تفعل كفعله وأحسن وذكر أنه دار في الدنيا مدنا كثيرة فلم يتعلم هذه الصنعة سوى أولاد دمشق واندهش من ذكائهم"[2].

ويشير قاموس الصناعات الشامية إلى حرفة الثعباني، وهو الذي يجترئ على أخذ الثعابين ويجمع منها كمية ويقلع أضراسها ويضعها في كيس من جنفاص ويطوف بها على القرى وفي بعض الحارات: "والأزقة في دمشق، وتارة يتطوق بها فيلحقه الأطفال والبسطاء من الرجال والنساء ويظهرها لهم، ويلعب أمامهم بها وبعد الانتهاء من الفرجة يدور المعدّ عليهم ويأخذ فمنهم من يعطيه ومنهم لا يعطيه"[3]. وأما العقاربي فهو الذي "يأتي بالعقارب حية فيكسر إبرها ويتركها تخرج ويدور على الحارات يفرج الأطفال عليها"[4].

وفي سنة 1254هـ/1838م، أخذت ثقافة الترفية والتسلية منحى جديداً، فقد بدأت المدينة تشهد أول مسرح بهلواني، وكان يتم العرض ثلاث مرات في الأسبوع، يومان للرجال ويوم للنساء، والمهم في ذلك أن المدينة شهدت أول إعلان ورقي، وقد جاء وصف ذلك عند صاحب مذكرات تاريخية، فيقول:

---

(1) ابن كنّان، الحوادث، ص 97. ويقول ابن كنّان: "وفيه جاء من بلاد حلب صندوق فيه صور البلدان، مثل أدرنه وإسلام بول ودمشق وحلب وغير ذلك، وفي وجه الصندوق مرآة تُنظر فيها تلك الأشكال، فتُرى مثل الحقيقة، وإنما هي نقوش، والمرآة تقوي البصر في المرئي، وفيه صور بلاد النصارى والكنائس والأنهار والبحور والجبال."

(2) البديري، الحوادث، ص 146.

(3) القاسمي، قاموس، ج2، ص 223.

(4) المصدر نفسه، ج2، ص 315.

[.. وفي سنة 1838م مسيحية حضر إلى الشام في الصيف أربعة خمسة أنفار إفرنج بلهوانية وأخذوا جنينة الأفندي التي في باب توما استأجروها ثلاثة أشهر وعملوا في دايرها ثلاثة طبقات خشب لأجل جلوس الناس وتركوا الوسط فاضي لأجل اللعب وصاروا يلعبوا بالجمعة يومين لأجل الرجال ويوم لأجل الحريم، ويوم الذي يلعبوا يلصقوا أوراق في جميع أسواق البلد في المصلبات في صفة اللعب الذي مرادهم يلعبوه ويكتبوا ورقة صغيرة يلصقوها جانب التصاوير مكتوب فيها بخط مشق أعلام إلى أهالي دمشق أن الفرجة على البلهوان في جنينة الأفندي الساعة بالثمانية من النهار الجالس، يعطي خمسة غروش والواقف غرشين، فتتوجه الناس تتفرج وجمعوا من البلد مبلغ ولكن اللعب الذي يلعبوه ونظراً لصورة اللعب الذي مصور في الورقة التي يلصقوها في شوارع البلد شي مثل السيما لأن البلهوان منهم يقف على ظهر الحصان رجله الواحدة على ظهر الحصان والثانية رافعها إلى الخلا ويديه واحدة ماسك فيها رمح والثانية سيف والحصان عمال يركد فيه بالساحة ويفتل مثل الدولاب.

لعبة ثانية: يحضروا اثنين يحملوا طرابيزا كل واحد من ناح على رؤوسهم ويكون وسط الطرابيزا كاس مليان عرق فيفز البلهوان يقلب ثقله من فوق الطرابيزا ياخذ كأس العرق يشربه ويرجعه إلى الطرابيزا.

لعبة ثالثة: يجيب البلهوان راسين خيل ويوضع كل رجل من رجليه على حصان ويركدوا راسين الخيل سوا بجانب بعضهم ورجليه عليهم وهم راكضين يصير يقوص نار دائمة يدك ويفرغ.

لعبة رابعة: يجيب جسر طوله نحو عشرة أذرع وغلظه مثل مطواية الحائك يرفعه أول الحال يوقفه على صدره والثاني يرفعه يوقفه على سنه ويصير يصفق في يديه. وينصب حبل من جلد ويلعب عليه أشكال وألوان وعلى الخيل يلعب أشكال وألوان حتى شعَّبت عقول الناس ولكن جميع طوائف البلد تفرجت الذي يكون حاله مقتدر لأن الفرجة غالية كما شرحنا ما عدا طائفة الروم ما أحد تفرج عنهم صار عليم توصي في الكنيسة أولاً من غلاوة الفرجة ثانياً على وصف الفرجة لئلا يكون شي مشبوه وتشعَّبت (تحيرت) عقول الناس..][1]

ويذكر محمد كرد علي في هذا السياق من الترفيه الشعبي أن من ملاهي الدمشقيين لعبة خيال الظل والعوام يدعونه "قره كوز"، وكان في أوائل القرن الحاضر من أشد العوامل تأثيراً في تهذيب الأخلاق وتقويمها، بما يلقيه أستاذ هذا الفن المشهور بدمشق السيد علي بن حبيب على ألسن تلك الخيالات من المواعظ

(1) مجهول، مذكرات تاريخية، ص 103-104.

الأخلاقية، بعبارات مليئة بالنقد، تفعل في قلب أشد الناس بلادة، وكان يصور في كلامه العادات السيئة المتفشية في عصره، ويظهرها في قالب ينفر الناس منها، ويصور ظلم الحكام وأصحاب النفوذ وأغلاطهم في صور نقد لطيف، وكان يحترمه عليه القوم ويعد أستاذاً كبيراً في الموسيقى تخرج به كل من ينتمي لهذا الفن بدمشق[1]. وفي زمن متقارب مع كرد علي يقدم أحمد حلمي وصفاً كاملاً لما يسميه "حفلات كره كوز"، فيقول:

[يجلس اللاعب خلف ستارة وأمامه منضدة – وهذه الستارة تسمى خيمة كره كوز – ويضرب المثل بوهنها لأنها تربط عادة بالخيطان. يجلس اللاعب خلف المنضدة وبيده عدة قضبان رفيعة وطويلة، ينتهي رأس كل قضيب بقطعة من الكارتون الملون بشكل رجل، ولباس وهندام خاص، له مفاصل ليديه ورجليه، أو بشكل امرأة أو طفل. وأمام اللاعب بعض الشموع مرصوفة إلى جانب بعض. فإذا مد القضبان المنتهية بأشكال الأشخاص والدمى المذكورة، أنشأت خيالاً على الستارة بالشكل المثبت على رأس القضيب... ومن أسماء تلك الدمى الشهيرة: كره كوز، عواظ، مدلل، ضابطية.. فإذا أراد اللعب يبدأ أولاً بأنغام خاصة، والسامعون كلهم في المقهى ينظرون ويسمعون. وهو وخيمته إلى زاوية من جوانب باحة المقهى. ينظرون إلى الخيالات المرتسمة على الستائر. وبعد الغناء يقص قصة ويبرز الأشخاص كأنما هم يتكلمون ويتنقلون، فهو بذلك أشبه بالسينما الناطقة...][2].

وينتقل العلاف إلى الحديث عن فن اللاعب وقدرته على تحريك الأشخاص المتعددين وتقليد أصواتهم، واحداً واحداً، بحيث يوهم المتفرجين بوجود حياة كاملة وراء الستارة، فيقول:

[.. ومن براعة اللاعب مهارته في تغيير لهجاته وصوته على حسب القصة التي تدور بين أشخاصها، فيبرز كره كوز متكلماً عنه، ويخاطب عواظ ويخاطب أشخاصاً خيالية كثيرة ببراعة ممتازة، بينما هو يشتغل وحده بمفرده، ويحرك الدمى بمهارة فائقة، فيكون من نتيجة تلك الخيالات القصصية بعض المواعظ والحكم... والناس ينظرون ويضحكون...][3].

---

(1) كرد علي، خطط الشام، ج ص

(2) العلاف، دمشق في مطلع القرن العشرين، ص 32.

(3) العلاف، دمشق، ص 33.

وحتى بداية القرن العشرين كان لمسرح خيال الظل أو ظل الخيال مجده الحقيقي في دمشق قبل ابتكار الفن السينمائي، وظهور الحركة المسرحية على يدي أبـي خليل القباني. وإذا كان الحكواتي قد أشبع بعض رغبة الساهرين للتسلية في المقاهـي، فإنه لم يكن قادراً بالقراءة وحدها ومهما أوتي من إمكانات تمثيلية على أداء الدور الذي يلعبه الكركوزاتي أو لاعب خيال الظل أو المخايل، وهي جميعاً أسماء لمسمى واحد.

ويشير القاسمي إلى أن عمل الكاركوزاتي يتم في القهاوي، حيث كان ينصب ستارة من قماش في زاوية القهوة عندما تكون مملوءة بالمتفرجين، وغالب من يتفرج عليه الأولاد الصغار، وهو يسمى الخيالي نسبة إلى لعبة الخيال[1]. ولكن عمل الكاركوزاتي يبدو أنه لم يكن يفي بمتطلبات العيش فكان يلجأ للعمل في حرف أخرى حسب ما يشير السجل الشرعي[2].

يحضر الكركوزاتي كل ليلة إلى مجالس التسلية ومعه شخوصه التي سوف تلعب أدوارها في التمثيل فكركوز كان غجرياً ووالده بطمان من زعماء الغجر، أما عيواظ فهو بن لأكبر تجار بورصة وهناك شخصيات أخرى كانت ترتدي أزياء تركية أدت فصولاً مختلفة من وحي الحياة اليومية، وذات طابع قصصي، ويقول منير كيال عن الكركوز: "لقي حظوة عند الأمراء لكونه مرآة يرى فيها الحكام المجتمع بعيوبه.."[3].

وكانت لكل شخص سماته الخاصة المميِّزة، والفنان بين ليلة وأخرى يتسلل بمهارة وذكاء نحو إعطاء رأيه في الأحداث الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، ويتفاعل الجمهور معه بانفعالات مختلفة كالضحك والبكاء، وتشير الدراسات[4] والوثائق[5] إلى وجود عدد من الكاركوزاتية بدمشق.

---

(1) انظر حول حرفة الكراكوزاتي: القاسمي، قاموس، ج2، ص 384.

(2) سجل 14، حجة 135، ص 56، 14 شوال 1096هـ/1684م. لدى مولانا ادعى حسن بن علي الكاركوزاتي الزجاج بمبلغ.."

(3) كيال، يا شام، ص 160-161.

(4) نعيسه، مجتمع، ج2، ص 721.

(5) سجل، 13، حجة 137، ص 76، 15 ذي القعدة، 1095هـ/1683م." استدعى خضر بن عطا الذمي الكاركوزي بأمر بيع..."

ويلعب الكراكيزي الدور الأول والأخير في حركات الرسوم وأشكالها، ويساعد المخايل جوقة موسيقية "تخت" تتصدر المكان إلى جوار الخيمة ومهمة الجوقة إراحة المخايل خلال تقديم الفصل والمشاهد والترفيه عن الحضور قبل صعود المخايل إلى الخيمة[1]. ويشير ابن كنان في حوادثه إلى ولع الدمشقيين بلعب المنقلة والشطرنج، "كما هي عادة أهالي دمشق.."[2].

(1) كيال، يا شام، ص 168؛ البحرة، ليالي دمشق، ص 18.

(2) ابن كنّان، الحوادث ص، 474.

V

الليل الدمشقي

لليل في التراث العربي نصيب وافر من السرد، يقول الثعالبي: "غطا الليل يغطو، إذا أَلْبَس كلَّ شيء ارتفع. وكذلك دجا يدجو"[1]. و"ليلة مدلهمَّة ومظلمة، وديجور وديجوج، والطِّرمساء الظلمة، والغيهب"، ومن أسماء أيام الشهر في الليالي خاصة "يقال: ثلاث غُرَر، وثلاث نُفُلٌ، وثلاث تُسَع، وثلاث عُشَر، وثلاث بِيض، وثلاثُ دُرَع، وثلاث ظُلَمْ، وثلاث حنادس، وثلاث دآد، وثلاث مُحاق[2].

وخصص ابن السّكيت[3] إحدى عشرة صفحة لبابي صفة الليل وأسماء نعوت الليالي في شدة الظلمة. من ذلك قوله: "الظلام أول الليل وإن كان مقمراً، وأتيته ظلاماً أي ليلاً، ومع الظلام أي عند الليل. ويقال أتيته أول الليل وهو من عند غيوب الشمس إلى العتمة. وأتيته ظلاماً أي عند غيوبة الشمس إلى صلاة المغرب، وهو دخول أول الليل، وأتيتُه ممسياً إذا أتيتَه بعد العصر إلى غيوب الشمس... الخ"[4].

والليل الدمشقي مليء بالسرد والحكايات لتي تحكى في جو أعطى للخيال الشعبي القدرة على أن يشطح شطحات عجيبة[5]. ولعل أبرز ما يمثل حصيلة

---

(1) الثعالبي أبو منصور بن إسماعيل النيسابوري، كتاب فقه اللغة، طبع بمطبعة الآباء اليسوعيين في بيروت، 1885م، ص 352-353.

(2) كان العرب يقسمون الشهر القمري، ثلاثاً، فالليالي الثلاث الأولى هي الغُرَر وهكذا. أما الليالي الدآد، فهي جمع (الدأدأ) وهي شديدة الظلمة.

(3) ابن السّكيت، أبو يوسف يعقوب بن إسحاق، كتاب مختصر تهذيب الألفاظ، بيروت، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين سنة 1897م "برخصة نظارة المعارف الجليلة في الأستانة عدد 103، ص 242.

(4) ابن السكيت، مختصر تهذيب الألفاظ، ص 242-243.

(5) نصر الدين البحرة، دمشق في الأربعينات، دار البشائر، دمشق، ط1، 2002، ص 86.

الليالي الدمشقية أنها أبدعت ما يسمى بمفهوم السير الشعبية التي تتم روايتها بشكل مسلٍ في ظلام الليل وخفائه وأسراره[1].

ويبدو الليل الدمشقي رحبا بشكل يتسع لأن يشهد وجود مجموعة من المضحكين والمسلين والحكواتيين الذين كانوا يذهبون إلى بيوت الأكابر ويقضون مجتمعين في مجالس تحكي السيرة أو تقدم الطرائف وتؤدي الألحان، ويؤكد ذلك ما جاء في ترجمة محمد بن أحمد الداخل الصالحي (ت: 977هـ/1569م)، الذي يوصف بأنه: "كان يتردد إلى الأكابر ويبيت عندهم الليالي"[2]، ويشهد الليل في مجالس أهل الأدب والفقه المذاكرات والمساجلات الشعرية، أو اللغوية والفقهية[3]. وقد نجد في الليل خبراً عن امرأة لا تحترم حرمة بيتها وتدخل الرجل إليها وتتساهل في الأخلاق[4].

- ليل الغانيات وأسرار العشاق

الليل مجال رحب لسرد العجائب والغرائب، التي لا تظهر كافة إلا في العتمة: الأشباح، والجن، والأرواح، والأنبياء، والأولياء[5]، وأصحاب الكرامات. هؤلاء الذين لا يظهرون إلا في سواد الليل، أو في جنبات مشابهة من النهار كالمغارات والكهوف والدهاليز وكوارات البيوت والليل الساحر هو مجال حكايات العشق بين الإنس والجن، حيث تزول حدود الأمكنة والحوادث، فيبدو العالم موصولاً بذاكرة ومخيلة غير محدودتين.[6] والليل هو

---

(1) م. لورتيه، ملامح سورية في القرن التاسع عشر القسم الثاني، عرض أحمد عبد الكريم، مجلة التراث العربي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق العدد 35 و36، السنة التاسعة، نيسان وتموز أبريل 1989م/رمضان وذي الحجة 1409هـ.

(2) الغزي، الكواكب السائرة، ج3، ص 49.

(3) انظر على سبيل المثال سيرة الملك الظاهر بيبرص حسب الرواية الشامية، تحقيق جورج بوهاس وكاتيا زخريا، المعهد الفرنسي للشرق الأدنى، دمشق، 2007.

(4) يقول ابن طولون: "في يوم الأحد ثالث عشرة حصل لبنت زوجة محمد بن الحصني من ابن صدقة محنة في زاوية ابن الحصني لصيق مصلى العيدين بسبب تساهلها وختم بيتها".. ابن طولون، مفاكهة، ج1، ص 371.

(5) البحرة، دمشق، ص 85.

(6) حمزة عبود، الليل، ص 9.

وعاء أسرار العشاق. وما من عاشق أو مغامر، لم يُفِضْ في وصف ليله، وخاصة الشعراء(1).

يبدو أن الغناء والشعر كان ملازما لليل الدمشقي قبل العصر العثماني وهو ما تشير أليه مصادر الحقبة المملوكية. التي تشير إلى امتلاك كل أمير جوقة من العازفين والمغنيات والجواري، ويظهر أن اختلاط الجواري والغانيات بقصور الحكام قد رفع من قدرهن حتى سرت عليهن تقاليد نساء الحكام وحريم الأحرار، فمنع عليهن الاختلاط بغير الطواشي والخصيان واستطاعت بعض الجواري الوصول إلى مواقع متقدمة والزواج من بعض الأمراء(2).

هذا الوضع للجواري والغانيات في دمشق استمر في العصر العثماني فليل لغانيات. يصلح لإخفاء ما اعتدنه تحت أجنحة الظلام. يقول النضر: وجَوْز الليل وسطه. وسَدَفه ظلماؤه وستره. وقد أسدف علينا الليل أي أظلم"(3).

أورد الهمذاني في معجمه "الألفاظ الكتابية" ثمانية وعشرين اسماً لليل والظلمة منها "الغسق والفحمة والعشوة والجَهمة والغبش والغطش... والهزيع"(4). ويذكر الهمذاني ستة وعشرين فعلاً لليل مثل "أظلم ودجا وأدجى وتغضف وعتم وأعتم واعتمّ وغبس واعتكر واطلخمّ وادلهمّ وأسدف وتدحدخ"(5).

---

(1) جمع الأستاذ نصر الدين البحرة أقوال الشعراء في الليل في كتابه دمشق في الأربعينات وعبر العصور، ص 86. ومن ذلك ما يقوله امرؤ القيس:

ولـيل كموج البحر أرخى سدوله	علـيّ بأنـواع الهمـوم ليبتلـي
فقلـتُ لـه لمـا تمطـى بصلبه	وأردف أعجـازاً ونـاء بكلكـل
ألا أيهـا اللـيل الطويل ألا انجل	بـصبح، وما الإصباح منك بأمثل

ويقول جرير:

أبـدّل اللـيل لا تـسري كواكبه	أم طال حتى حسبت النجم حيران

(2) ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص 165؛ السامرائي، التقاليد والعادات الدمشقية، ص 232.

(3) ابن السكيت، مختصر تهذيب الألفاظ، ص 244.

(4) الهمذاني، عبد الرحمن بن عيسى، الألفاظ الكتابية، اعتنى بضبطه وتصحيحه الأب لويس شيخو اليسوعي– ط 8، مطبعة الآباء اليسوعيين 1899م، بيروت، برخصة نظارة المعارف الجليلة في الأستانة العلية، ص 288.

(5) الهمذاني، الألفاظ، 289.

في العصر العثماني تحضر قصص الليل في السجل الشرعي لدمشق، فنجد الكثير من الحجج الخاصة، بشكوى أهالي بعض الأحياء من بعض الخارجين على أمر الشريعة، ممن يتسببون في إزعاج سكان المحلات، الذين يلجئون للقاضي الشرعي الذي غالباً ما يستجيب يتفاعل مع الشكوى ويقوم بالتحقيق فيها، ومن ذلك احتجاج سكان محلة: "الملك الظاهر لدى القاضي بسبب اجتماع أهل الفسق والفعل القبيح ليلا إلى الدخلة المذكورة في زقاق مدرسة العزيزية الواقعة بين مدفن الملك الناصر لدين الله صلاح الدين الأيوبي والدور التي هي الآن من جملة دار المولى محمد أفندي المرادي.."[1].

وتكررت مثل هذه القضايا في القرن التاسع عشر، ووقف أمامها علماء دمشق منها موقفاً واضحاً، مما كان يدفع القضاة إلى إصدار أحكام تقضي "بإخراج أهل الفسق والفجور من المحلات والتحريج عليهم".[2]

- سهر الأعيان

يمتاز السهر في دمشق بأنه أنواع تتبع المواسم، فمنه ما هو خاص بالشتاء أو الصيف أو الربيع، ذاك أن ليالي الصيف تختلف كثيراً عن ليالي الشتاء. وإذا كانت بعض الأسر تتواعد لقضاء أمسيات الصيف معاً في المتنزهات القريبة من دمشق، أو الذهاب أبعد قليلاً نحو مصايف وادي بردى كعين الخضراء وعين الفيجة وبسيمة وجديدة الشيباني والزبداني وبلودان ومضايا... إلخ، فإن أمرها يختلف في ليالي الشتاء الطويلة[3].

ففي ليل الشتاء الطويل يجتمع الجيران أو الأقرباء أو أبناء الحرَف في دار أحدهم، ويقصّون أوراقاً حسَب عددهم، ويُكتب في كل ورقة اليوم المعين للسهر مع نوع الحلوى الذي سيقدم للساهرين المتسامرين. وتوضع الأوراق في كيس،

---

(1) سجل 133، حجة 370، ص 188، 5 شعبان 1164هـ/1750م.

(2) سجل 129، حجة 234، ص 112، 3 رجب 1210هـ/1795م؛ سجل 290، حجة 123، ص 53، 14 شوال، 1237هـ/1821م، سجل 299، حجة 69، ص 45، 5 ربيع الأول 1241هـ/1825م.

(3) نصر الدين البحرة، ليالي دمشق.. في الأربعينات، مجلة التراث العربي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق العدد 76 - السنة 19 - تموز "يوليو" 1999 - ربيع الأول 1420، ص 12-17.

ويمـــد كلٌّ يده فيسحب وريقة، فيجد مكتوباً عليها مثلاً "يوم الخميس 10 كانون الـــثاني والحلوى كنافة مدقوقة" وهكذا تُعْرف مواعيد السهر عند المجتمعين كافة، وأنواع الحلوى. وتهيأ خلال السهرات الشتائية ألعاب التسلية، ويحضر من يغني مع آلـــته، وغالـــباً ما تكون لعود... ويقتلون ليالي الشتاء على هذا المنوال حتى نهاية الفصل.[1].

ويبدو أن طبيعة الطقس كانت تتحكم في مواعيد السهر فإذا كان الجو ماطراً وبـــارداً، فـــإن ذلك ما يحول بين لقاء الأصدقاء، ثم إننا نجد في الشعر المتبادل بين الادبـــاء ما يشير إلى ذلك، يقول المرادي في ترجمة مكي الجوخي (ت: 1192هـــ/1778م)، وكتب إلي مرة وقد أعاقه المطر عن زيارتـا:

أيـــــا مـــــولى لـــــه شـــــوقي
ومـــــالي عـــــنه مـــــصطبرُ
مـــــــرادي أن أزوركـــــــمُ
ولكـــــن عـــــاقني المطـــــرُ[2]

أما في الصيف فيقدم ابن كنّان الصالحي (ت: 1153هـــ/1740م) وصفاً لليل العلمـــاء وتـــرتيب ســـهراتهم، ويظهر من الوصف الذي يقدمه أن سهر الأعيان والعلمـــاء يطول حتى الفجر ويتخلله الإنشاد الذي يجلب الطرب، ويتعدى وصف مجـــريات السهر إلى وصف مكانه، ولا يخلو الوصف من الصور الفنية التي يقدمها بسرد فني جاء فيه:

[.. في لـــيلة الأربعـــاء تاســـع الـــشهر، سهرنا عند صاحبنا الأعز الأمجد الشيخ بلبان الـــصالحي الحنبلـــي بـــدار بمحلة حارة المقدّم وكان أكثر أعيان الصالحية، فكان نائبها القاضـــي صـــادق بن هدايات وكان أكثر أعيان الصالحية... وكانت السهرة نحو ثماني ســـاعات، وأنـــشد الشيخُ مصطفى جلبـــي الصالحي بصوته قصيدة بارعة... جواهر فـــنونها ســـاطعة، فاطـــرب المجلس طرباً، وأنحاز السأم عنا سراباً. فاهتز المجلس اهتزاز النـــشوان، واطـــرب القلب حتى كاد أن يهيم إلى الطيران، وكان الجلوس بقاعته الغناء والغـــادة البيضاء، تتال بنقوش الأذهان، ترفل في حُلل مسبوغة بمحاسن الألوان. فلما

(1) البحرة، ليالي دمشق، ص 18.
(2) المرادي، سلك، ج4، ص 137.

دخلناها نادتنا برحبها الرحيب، وأطارت أنظارنا إلى علوها المناهض للسماع، واللامس للكف الخضيب، وكأن شبابيكها آذاناً لاستماع رياحها الخافقة، وقماريها نجوم النسايم أو عـيون الـنعايم، بعين النظر إلينا وامقة، وشمعتها المنيرة في السّرب كالصباح المتطير بأشعته الساطعة... فهي كالروضة الغناء بألوان نقوشها الكاملة الإحكام..] [1].

- سمر الأولياء

في موازاة السهر والطرب والانتشاء مع الأعيان وممثلي الحكم، هناك أيضا سمر مـع الصالحين والأولياء ولكنه خالٍ من الطرب الذي ينتشي له القلب ومما جاء في وصفه:

[.. وفي لـيلة السبت رابع عشرين رجب، كنّا عند صاحبنا سي رجب مع جماعة من الخلاّن وتوابع من الإخوان، وسهرنا عنده تلك الليلة، وكان السمّر في ذكر الأولياء والصالحين، ومكثنا عنده إلى بعد طلوع الشمس، واستكثرنا خيره وشكرنا برّه [2]].

ومن خلال وصف لجلسة سمر نظمها أحد الأتباع للشيخ ابن كنّان الصالحي نجد أن المجلس يخلو من اللهو والموسيقى والهرج، على خلاف عادات أهالي دمشق، وينقل ابن كنّان وصفا لسمر الأولياء فيقول:

[.. وفي يـوم الأحـد كنّا في سهرة عند أخينا وتابعنا السيد أحمد المستوي، وكانت مـشتمله على ذكر الأولياء والصالحين، خالية من اللهو والمرج ولله الحمد، وتكلّف كلفـة باذخـة جزاه الله خيرا، وكنا نحو سبعة أنفار، حتى خالية من الغناء والسماع ولعب المنقلة والشطرنج، كما هي عادة أهالي دمشق..] [3].

- ليل الحرملك

يوصف سكان دمشق بأنهم" يحبون أن يظهروا بلباس لائق وأن يعيشوا برفاهية وأنهم يحبون حريتهم" [4] ووفقا لهذا الوصف ينحى المجتمع إلى حب الجمال والترفيه، واقتـناء "الأثاث الفاخر" [5] ومع ذلك، تندر أخبار النساء في المصادر التاريخية، بيد

---

(1) ابن كنّان، الحوادث، ص 296.

(2) ابن كنّان، الحوادث، ص 471.

(3) ابن كنّان، الحوادث ص، 474.

(4) لـوران درافيو، وصف دمشق في القرن السابع عشر، ترجمة أحمد أيبش دار المأمون ط1، دمشق 1982م، ص 69.

(5) المصدر نفسه، ص 70.

أن بعـــض مـــشاهدات الرحالة والدراسات التراثية تفيد أنه في الدار نفسها والتي كانت تشهد سهرات الرجال في الشتاء في قسم السلاملك، كانت النسوة يجتمعن في غرفة قسم الحرملك، فيتحلقن حول مدفأة الحطب التي تلعلع ألسنة النار فيها، أو مـــنقل مـــتوهج الجمر[1]. وتبدأ سهرة النساء بلعب البرجيس أو الورق ويستمتعن بالـــبرجيس مـــتعة خاصة. وفي ختام اللعبة فإن المغلوبة تؤدي ما يطلب منها، من رقـــص أو غـــناء أو تهريج. وقد يستمعن بحسب ملاحظات الرحالة Russell إلى حكواتية مسنة إلى نهاية السهرة[2].

ثم يتبارين في قول الأمثال. ويتندرن برواية النكات والفكاهات[3]. ولا يفوت الـــساهرات، التحدث عن الأخريات في ما يعرف عندهن بالمقلاية "المقلاة" إشارة إلى عيوب أولئك النساء ومساوئهن.[4].

ومـــن بين ألعابهن، أن تغادر إحداهن الغرفة في وقت مناسب، ثم تدخل بغتة، وقد رفعت ملاءتها بيديها الاثنتين الممدودتين حتى قصاهما فوق رأسها، حيث تبدو وكأنهـــا طـــويلة على نحو غير عادي، والمنديل مُسْدَل فوق الملاءة كالعادة. عندئذٍ تـــرتعش الحاضرات للمفاجأة... ثم ما يلبثن أن يستوعبن الموقف. ويبدأ الحوار بين هذه المرأة، والساهرات في حركة تمثيلية، في سؤال عادي وتعليق على الجواب غير عادي. ثم تقول، ويداها مازالتا مرفوعتين، والملاءة عالية فوق رأسها:

- أنـــا ذاهبة إلى الحج... من ترافقني؟ تقول إحداهن: أنا معك. إذا كانت هذه عجوزاً، أجابتها:
- نعم... إذا أخذتك، كنت بدلاً من "المحرم" لأنك مثل الرجال عجوز مكرعبة[5].

---

(1) نعيسه، مجتمع، ج2، 728.

(2) انظر:

Russell. Alex. The Natural-History of Alepoo,2Vol, 2nd,London 1792, v 2,251.

(3) انظر:

Voleny, G.F. Travels Through Egypt and Syria Trans. New York. 2vol. 1798, p. 67.

(4) كيال، يا شام، ص 184.

(5) العلاف، دمشق في مطلع القرن العشرين، ص 231-232.

الفصل الرابع

القهوة والمقهى

I

القهوة بين التحريم والإباحة

عـــرفت القهوة قبل العصر العثماني في اليمن، في منطقة بر سعد الين - مدينة زيلـــع اليوم - وفي الحبشة وبلاد الجبرت - الصومال وما جاورها - ثم انتقلت إلى

الحجاز، وبلاد الشام والأناضول ومصر فشمال إفريقيا.. الخ[1].

وتنـسب المـصادر إلى اليمني علي بن عمر الشاذلي (ت: 821هـ/1419م) الفـضل في اكتـشاف القهوة في مدينة المُخّا اليمنية[2] أما في عدن وبحسب المؤرخ

---

(1) حول القهوة في مصر انظر دراسة:

Nelly Hanna. Coffee and Merchants in Cairo 1580-1630. in: Michel Tuchscherer.le commerce du café avant l´ère des plantations coloniales. Institut francais d´archéolobie orientale 2001, p. 91-101.

وحـول القهوة في الثقافة العربية الإسلامية، انظر: محمود البكر، القهوة العربي والموروث والأدب الـشعبي، بيـسان للنـشر، بيروت، 1995م. وانظر سعد بن خلف الغضبان، ترياق السمر عند العرب رؤية من زاوية أدبية في القهوة وأدبياتها، الرياض. 1995م. وهناك العديد مـن الدراسات عن القهوة في الثقافة العربية ومنها: عبدالله الحسيني، غاية الأمنية في القهوة البنـية، القهـوة فـي عيون أهل الاجتماع والأدباء والقانون ولشعراء، مكتبة الجيل الواحد، مسقط، 2007م؛ محمد طاهر الكردي، أدبيات الشاي والقهوة والدخان، الدار السعودية، ط 1، جدة، 1984م.

(2) المُخَا/Mocha مدينة ساحلية يمنية تقع على ساحل البحر الأحمر، اشتهرت لأنها كانت السوق الـرئيس لتـصدير القهـوة بين القرنين الخامس عشر والسابع عشر. وطبقا لرواية الرحالة جيرونيمو لوبو الذي أبحر في البحر الأحمر عام 1625م عرفت المُخَا كمدينة صغيرة وذات شهرة ضيقة لكن منذ أن سيطر العثمانيون على معظم أجزاء الجزيرة العربية أصبحت المُخَا مدينة هامة بالرغم من أنها لم تكن مكان إقامة الباشا العثماني، الذي يبعد عنها مسيرة يومين من صنعاء. اكتسبت المدينة أهميتها من القانون العثماني الذي طالب جميع السفن التي ترسو بها بدفع ضريبة للمرور إلى البحر الأحمر. ومن أهم معالمها، الجامع الذي ينسب إلى الشيخ أبو الحسن "علي بن عمر بن إبراهيم بن أبي بكر بن محمد دعسين القرشي الصوفي الشاذلي "وقـد تـرجم له المؤرخ" الشرجي"، بقوله: "وكان له مكارم وفضائل يعين الفقراء والوافدين بمالـه وجاهـه، وكان له زاوية يشتغل بالعلم ويتوافدون إليه طلابه وأصحابه توفي سنة 821هـ/ 1418م، وقبره مقصود للزيارة". انظر: الشرجي، أحمد بن أحمد الشرجي الزبيدي (ت: 893هـ/ 1575م) طـبقات الخواص أهل الصدق والإخلاص، دار الكتاب المصري واللبناني، بيروت، د. ت، ص 233؛ الورثلانـي، الحـسن بن محمد (ت: 1125هـ/1713م) نزهة لنظر في فـضل علـم التاريخ، تصحيح، محمد ابن أبي شنب، مطبعة بيير مونتانا الشرفية. الجزائر، ص 268. ويقول الورثلاني: "أن الشيخ علي أمر أتباعه الصوفية بشربها ليستعينوا بها على الـسهر لأجـل العبادة". وانظر: شوكت الشطي، نظرات في القهوة والشاي، مطبعة الجامعة الـسورية، بدون تاريخ (نسخة مكتبة المعهد الفرنسي بدمشق)، ص 3؛ شاكر لعيبي، العمارة الذكـورية، فن البناء والمعايير الاجتماعية والأخلاقية في العلم العربي، دار رياض الريس، ط1، بيروت، 2007م، ص 134. وانظر حول المخا وسير القهوة دراسة:

Eric Geoffry. La diffusion du café au proche-orient arabe par l´intermédiaire

الجزيـــري (ت: 977هـــ/1569م) فالذي أدخل القهوة إليها هو المفتي الشيخ اليمني جمال الدين أبـــي عبدالله المعروف بالذبحاني (ت: 875هـــ1470م)[1].

أثـــار دخول القهوة مدينة دمشق مطلع القرن السادس عشر الميلادي/العاشر الهجـــري اجدل الفقهي حولها[2]. ويشير نجم الدين الغزي إلى كيفية انتشار القهوة في الحواضـــر العربية، وينسب الفضل في انتشارها إلى الطرق الصوفية وتحديدا إلى الطـــريقة الـــشاذلية وأبـــو بكـــر العـــيدروس الشاذلي (ت: أوائل القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي) الذي عدّه الغزي مبتكر القهوة فيقول:

[... وهـــو مبتكـــر القهـــوة المتخذة من البن وكان أصل اتخاذه لها أنه مر في سياحته بشجر البن على عادة الصالحين فاقتات من ثمره حين رآه مزروعاً مع كثرته فوجد فيه تجفـــيفاً للـــدماغ واجتلاباً للسهر وتنشيطاً للعبادة فاتخذه قوتاً وطعاماً وشراباً وأرشد أتـــباعه إلى ذلـــك ثم انتشرت في اليمن ثم إلى بلاد الحجاز ثم إلى الشام ومصر وسائر بلاد المسلمين...][3].

يناقض نص الغزي سابقا، ما ذهبت إليه الباحثة راندي ديغوليهم في أن الشيخ سعد الدين علي بن محمد العراق[4] هو الذي جلب القهوة إلى دمشق سنة 1540م،

---

des soufis: myth et réalité.cette étude est dans le livre: Michel Tuchscherer.le commerce du café avant l´ère des plantations coloniales. Institut francais d´archéolobie orientale 2001.p7-15.

(1) الجزيري، عبد القادر بن محمد (ت: 977هـ/1569م)، عمدة الصفوة في حلّ القهوة، تحقيق عـــبدالله الحبـــشي، منشورات المجمع الثقافي، أبو ظبي، ط1، 1996م، ص-ص: 45-47. وانظـــر: أروى الخطابـــي، تجارة البن اليمني ق11-13هـــ/17-19م؛ رسالة ماجستير غير منـــشورة، جامعـــة صـــنعاء 1992م؛ عباس السعدي، البن في اليمن دراسة جغرافية، مركز الدراسات البحوث اليمني؛ رسالة ماجستير، جامعة صنعاء، 2004م، نسخة مودعة في مركز إيداع الرسائل في الجامعة الأردنية.

(2) حول مقدمات ظهور القهوة في دمشق وغيرها انظر:
Abdul-Karim Rafeq.The Socioeconomic and Political Implications of the Introduction of Coffee into Syria.16th-18th Centuries. In: Michel Tuchscherer.le commerce, Ibid .p127-131.and see: K.N.Chaudhuri. art" KAHWA".EI2.Vol, IV, pp 449-455.

(3) الغزي، الكوكب، ج1، ص 114.

(4) كـــان حـــياً سنة 947هـــ/1540م دخل دمشق وهو في طريقه إلى الروم ونزل بخلوة الشيخ مجمد الإيجي عتنى بشرح كتب الحديث ويشير الغزي أنه كان مولعاً بالأنغام وان والده منعه

كمـــا أن نصوص المصادر الأخرى تدل على أن الدمشقيين عرفوا القهوة قبل ذلك التاريخ[1]. إذ تقدم إشارة ابن طولون (ت: 953هـ/1546م) في حوادثه عن عادة تقـــديم القهوة في الموالد النبوية[2]، مدخلاً دينياً رافق حضور القهوة في المناسبات الدينـــية، ومع ذلك يختم ابن طولون نصه في مفاكهة الخلان، بتصوير الجدل الدائر حـــول انتشار عادة شرب القهوة، والتي يبدو أنها أثارت آنذاك جدل علماء الفقه والشريعة، مما دعا قاضي دمشق إلى الدعوة لتركها والابتعاد عنها يقول:

[.. ونـــادى القاضـــي الكبير يوسف بن حسام الدين الرومي على الدكاكين بإبطال شرب القهوة لا بجمعية وغناء وإدارة الزبادي الصيني والكشف عليهم غفلة ثم أنه لما كبـــسهم فـــوجدهم في الـــدكاكين علـــى الهيئة المذكورة فضرب كل من وجده في الدكاكين علقة..[3]].

يمـــضي ابـــن طولون في إيراد الجدل حول السؤال عن مشروعية القهوة ويستند إلى إجابات فقهية علماء من خارج دمشق وبخاصة الحجاز وينقل عنهم أن القـــول في حكم القهوة على وجهين أحدهما: "أصل في التحريم"، وهو قول للعلامة عين الأطباء بمكة نور الدين أحمد بن محمد بن خضر العمري الكازروني الـــشافعي نـــزيل مكة[4]، وكان تأليفه له سنة سبع عشرة وتسعمئة. وقد سبق الكازروني إلى ذلك مجموعة من الفقهاء ومنهم مكي ابن الزبير العدوي: وسّمى تألـــيفه: "قمـــع الإمّارة بالسوء عن الشهوة، بيان حرام شرب القهوة"، وتبعه

من شرب القهوة. انظر: الغزي، الكواكب، ج2، ص 185.

(1) انظـــر: رانـــدي ديغـــويلهم، القهـــوة في دمشق ورسالة الشيخ جمال الدين القاسمي. ترجمة محمـــد ولـــيد حافظ، مجلة التراث العربي، العدد 67، 1997م، دمشق اتحاد الكتاب العرب، ص 38-50.

(2) ابن طولون، حوادث، ص 256.

(3) ابن طولون، حوادث دمشق، ص 357، وحول الجدل الدائر آنذاك يسرد ابن طولون مواقف الفقهـــاء فـــي دمشق والحجاز من القهوة والأحكام الصادرة بحقها. ص 358- 362. وحول انتشار القهوة اليمنية في دمشق مطلع القرن السادس عشر. انظر كتاب:

Ralph S. Hattox, Coffee and Coffee houses: The Origins of Social Beverage in The Medieval Near East, Seattle, 1985.

(4) مفسر ومحدث، توفي بعد سنة 923هـ/1517م له تفاسير عدة ومنها تفسير مختصر يقال له تفسير الأخوين. حاجي خليفة، كشف الظنون، ج2، ص 1116.

البدري حسن ابن العلامة عفيف الدين عبد الله بن كثير الحضرمي الأصل المكي الشافعي، وسمى مؤلفه: "قمع الشهوة عن شرب القهوة"، وشيخ القراء العلامة خطيب المدينة الشريفة، وإمام محرابها الشمسي محمد بن زين الدين عبد الرحمن القطـــان الـــشافعي، وسمى مؤلفه بــ: "إزلة القدم والهفوة ممن يتعاطى شرب القهوة"[1].

ويـــبدو أن الجدل حول القهوة كان شائعا آنذاك، إذ يورد ابن طولون صورة سؤال ورد في تحريم القهوة من الديار المصرية، بعد أن منع من شربها مفتي الشافعية ســـنة ثمان عشرة وتسعمئة، ويبين ابن طولون موافقة علماء دمشق على رأي مفتي الشافعية بمصر ويذكر أسماء الموقعين على الفتوى[2].

ويظهر من المصادر أن الجدل حول القهوة في كثير من الحواضر العربية، وأنه نـــال قـــسطاً من الجدل الذي كان يدور في موسم الحج سنة 920هــ/1514م، إذ يفيد ابن طولون أنه لما حج شيخ الشيوخ نور الدين علي المحلي الشافعي[3] في تلك الـــسنة رُفـــع إليه سؤال في أمر القهوة، فأجاب بالتفصيل، فقال: "إن كانت تضر بالعقـــل فلتحريمها سببان، وإن لم تكن مضرّة فلتحريم تعاطيها على الوجه المعروف سبب واحد. وحاصلة القول بالتحريم"[4].

وأمـــا القـــول الثاني في القهوة فهو: "أصل في الإباحة"، للعلاّمة الأديب فخر

---

(1) ابن طولون، حوادث، ص 289.

(2) ابـــن طولون، حوادث، ص 289. يقول ابن طولون: "كتب عليه بالتحريم شيخنا البرهان ابن أبـــي شـــريف الـــشافعي، وشيخ القرّاء شرف الدين عبد الحق بن محمد السنباطي الشافعي، وقاضـــي القـــضاة الـــسري عبد البر ابن الشحنة الحنفي، وشيخ الشيوخ البرهان إبراهيم بن موســـى الطرابلسي، والقاضي نور الدين علي بن ياسين الطرابلسي، أيضاً الحنفيان، وقاضي القضاة الشرفي يحيى بن إبراهيم الدميري المالكي، وشيخ الشيوخ شهاب الدين أحمد بن محمد المالكي، والقاضي شمس الدين محمد ابن حسن اللقاني المالكي، وقاضـــي القضاة شهاب الدين أحمد بن علي الحنبلي، وقاضي القضاة بعده الشهابي أحمد بن المنجا الحنبلي..".

(3) مـــن علمـــاء مصر المشهورين في القرن 10هــ/16م، أخذ عنه كثير من علماء عصره في مصر والشام في علم الحديث، انظر عن تلامذته في: الغزي، الكواكب، ج 1، ص 12، 199، ج2، ص 36، 80، ج3 ص 79، 140.

(4) ابن طولون، حوادث، ص 290.

الدين أبـــي بكر ابن العلامة الشرفي إسماعيل ابن أبـــي زيد المكي الشافعي، الذي يـــدل مسمّى مؤلفه على ما وقع في الجدل من هفوات وزلات، ومؤلفه هو: "إزالة الهفوة بتحريم شرب القهوة". وهو المؤلف الذي اشتهر فيما بعد بين الذين ألفوا في تحريم القهوة باسم: "إجابة الدعوة بنصرة القهوة"[1].

وبيان ابن طولون للجدل السائد حول القهوة، لم يحل دون أن يقدم رأيه فـــيقول: "وأنا ممن شربها و لم ير الضرر منها، لكن النفس تنفر من شربها لقول بعـــض مـــشايخي إنها تشبه لقاعة الرذائل، وتضر السّوداوي وتنفع البلغمي ... والـــذي أديـــن الله بـــه أنهـــا مباحة، وتحرم على من تضرّه أو يضيف إليها ما يحرّمها"[2].

استغرق الجدل حول القهوة وقتاً طويلاً من النصف الأول من القرن السادس عـــشر، إذ يـــشير ابـــن طولون إلى أن القضاة أخذوا على عاتقهم متابعة وتعقب شـــاربـــي القهـــوة، ففي سنة خمسين وتسعمائة نادى القاضي الكبير يوسف بن حسام الدين الرومي[3]: "على دكاكين القهوة بأنها لا تُشرب بجمعية وغناء وإدارة بالـــزبادي الصيني، والكشف عليهم على غفلة"، ثم أنه لم يكتف بذلك بل تعقب مرتادي المقاهي و: "كبسهم، فوجدهم في الدكاكين على الهيئة المذكورة، فضرب كل من وجده في الدكاكين علقة علقة"[4].

واســـتفتوا فـــيها مفتي دمشق الشيخ قطب الدين محمد بن سلطان الحنفي[5]،

---

(1) ابن طولون، حوادث، ص 290.

(2) ابن طولون، حوادث، ص 290.

(3) لا تذكـــره المـــصادر، ويشير ابن جمعة المقار إلى أن قاضي دمشق في تلك السنة هو أمين أفندي، في حين يذكر صاحب مخطوط ذكر دمشق الشام، أن القاضي هو سنان أفندي. انظر: المقار، الباشاة والقضاة، ص 13، مجهول، ذكر دمشق الشام، مخطوط رقم 7369، الظاهرية، مكتبة الأسد، ق29.

(4) ابن طولون، حوادث، ص 357 .

(5) ولد سنة 870هـ/1465م أخذ العلوم عن شيوخ عصره، برع في العلوم وله كتاب في الفقه، ورسالة في تحريم الأفيون. ولي القضاء بمصر زمن قانصوه الغوري، ثم مع العثمانيين تولى الإفـــتاء الحنفـــي. توفي 950هـ/1543م. انظر: الغزي، الكواكب، ج2، ص 12؛ المرادي، محمـــد خليل، عرف البشام فيمن ولي فتوى الشام، ط2، تحقيق محمد مطيع الحافظ ورياض مراد، دار ابن كثير، دمشق 1988م، ص 29.

فأفتى بتحريمها على هذه الهيئة، وقال: ينبغي للأفندي القاضي أن ينادي بمنع بيعها، لأن ما يُتوصل به إلى الحرام فهو حرام.

هــذا الموقــف المتشدد ضد القهوة قاده الشيخ شرف الدين يونس العيثاوي الــشافعي[1]. ولكــنه لم يكتف بذلك، فقد أراد عضد موقفه بتأييد القاضي الذي كــتب لــه رســالة "عُملــت في تحريم القهوة"[2]: "إن ثبت ما نُسب إليها من الأوصــاف، فهــي محرمة تناولها إذا بلغ المرء حد السُكر، وهو أن يهذي متناولها. وتعدى تحريم القهوة إذ قصد من تناول قليلها اللهو والطرب ... وأما إذا اجتمعوا علــيه كاجتماعهم على شرب الخمر كما هو المعتاد في هذه البلاد، فلا شك أيضاً في حرمتها، سيما إذا كان بإدارة الكأس ومزمار التغني واللهو بالمزامير، فحينئذ إلى أصل كيفيتها أصلاً". وخلص قاضي دمشق في رسالته إلى القول بحق القهوة: "بأن مفاسدها أكثر من مصالحها، ويجب على ولي الأمر المنع عنها عملاً بالأحوط"[3].

هذا الموقف الذي تبناه الشيخ العيثاوي الذي وصف بأنه: "متشدد متصلب في الــشرع" أيــده قاضي دمشق، وليس ذلك فحسب، بل إن مفتي دمشق محمد بن سلطان يقول:

> **[الحمــد لله وكفــى، وسلام على عباده الذين اصطفى، وبعد: فقد وقفتُ على هذه الرســالة الأنــيقة ومــا حوته من البلاغة والمعاني الدقيقة. فأما ما أشار إليه من أمر القهوة، فإنها من جملة المصائب التي عمت البلوى بها في هذا الزمان: وانعطافهم على شــربها علــى الصفة المذكورة في السر والإعلان. فمن قال بجواز شربها على الوجه المذكور لم يكن في قلبه مثقال ذرة من إيمان، وأما ما نقله عن السادة الأعلام وشيوخ مشايخ الإسلام فيتعين القول والعمل بقولهم والاهتداء بهديهم[4]]**

ويطالب مفتي دمشق محمد بن سلطان الحنفي الولاة باتخاذ موقف أكثر حزما

---

(1) هــو شــرف الدين يونس بن عبد الوهاب بن أحمد بن أبي بكر الدمشقي الشافعي المعروف بالعيثاوي (ت: 978هـ/1570م) صنف الجامع المغنى لأولي الرغبات في معرفة الخلافيات وشــرح الــنفحة الوردية في النحو. رد الفال فيما قال وتكذيبه بأصدق مقال. شرح الورقات لإمام الحرمين في الأصول. انظر الغزي، الكواكب، ج3، ص 222.

(2) ابن طولون، حوادث، ص ص 257.

(3) ابن طولون، حوادث، ص 358.

(4) ابن طولون، حوادث، ص 358.

من القهوة وشاربيها بقولة: "وينبغي على ولي الأمر، أيد الله به الدين وقمع به الجهلة المتمردين، منع من يتعاطى شربها على الوجه المذكور هنالك، وردعهم وزجرهم بالضرب والحبس وغير ذلك. بل لو أشهر النداء بإبطالها أصلاً لنال إن شاء الله الدرجات العُلى، لأن العلماء قد أجمعوا على أن شربها على الوجه المذكور تركه واجب، وما دامت بين أيديهم لا يتركون ذلك، فما لا يُتوصل إلى الواجب إلا به فهو واجب. ويتعين على مولانا الأفندي أن تكون جميع أحكامه على ما تقتضيه الشريعة المطهرة دون القانون والفراسة: فإن العمل بالشريعة فيه صلاح الدين والدنيا وسعادة الدارين"[1].

ويروي ابن طولون في حوادثه سنة (917هـ/1511م)، ما يشير إلى منع القهوة في مكة المكرمة كما يبين أن طريقة شربها وتعاطيها من البعض يشبه مجالس الخمر، إذ يقول:

> [... وقفتُ على محضر بسبب تحريم القهوة في سنة سبع عشرة وتسعمائة ملخصهُ: أنه لما أقام المقام الشريف السلطاني الملك الأشرف قانصوه الغوري الجاب العالي السيفي خير بك المعمار العلائي ناظر الحسبة بمكة المشرفة. وباش المماليك السلطانية وشاد العمائر الشريفة فيها. فباشرها ملازماً لأنواع العبادات. فتفق له ليلة الجمعة ثالث عشري ربيع الأول من هذه السنة أنه لما صلى العشاء طاف وانصرف إلى العشاء طاف وانصرف إلى منزله، فوجد في جانب الحرم ناساً مجتمعين، جمعهم السيفي قُرقماس الناصري بسبب عمل مولد النبي صلى الله عليه وسلم. فحين وصوله إليهم طفوا فوانيسهم، فأنكر ذلك وكشف أمرهم فوجد عندهم شراب القهوة يتعاطونه على هيئة شرب الخمر بكاس يُدار عليهم، والمدير له السيفي قُرقماس المذكور][2].

يمضي ابن طولون السرد عن القهوة وقصة دخولها وانتشارها في الحواضر العربية مطلع الأزمنة الحديثة، ويظهر جلياً من الأخبار أن شرب القهوة ارتبط بذهنية التحريم لما كان يصاحبها من ضرب للدفوف والموسيقى وممارسة الألعاب الشعبية، ففي الخبر أن خير بيك العلائي السيفي لما سأل عن القهوة قيل له: "هذا ما يسمى القهوة، تطبخ من قشر حب يأتي من بلاد اليمن يسمى بالبن، وقد كثر هذا الشراب بمكة وصار يباع بها، ويجتمع عليه الرجال والنساء بدف ومزمار، وفي

(1) ابن طولون، حوادث، ص 359.

(2) ابن طولون، حوادث، ص 360.

المكان الذي يباع فيه يلعب بالشطرنج والمنقلة والكنفجة، وغير ذلك مما هو ممنوع شرعاً"[1].

وقد أوجبت الحالة التي رافقت انتشار القهوة في الحجاز ضرورة اتخاذ تدابير فقهية وحسم الجدل حول مشروعيتها، ويظهر أن الانتشار السريع للقهوة استدعى دعوة مجلس شرع في مكة المكرمة للانعقاد وإعطاء رأي في أمرها كما يخبر ابن طولون حين يقول: "فلما سمع ذلك - يقصد خير بيك[2] - تذكر قول الله تعالى: ﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾[3]، ونحوه من الآيات والأحاديث. وأصبح جمع قضاة الإسلام وعلماء الأنام وأهل الصلاح والتصوف والزهد والتعفف، وغيرهم ممن يُقتدى بقولهم وفعلهم من المذاهب الأربعة.." [4].

يروي ابن طولون تفصيل المجلس الذي انعقد في مكة قائلاً: "فلما استقر المجلس أحضر الأمير خير بك المشار إليه القهوة في موكب كبير والكأس معه، ثم فاوضهم بأن اجتماع الناس عليها على هذه الهيئة حلال أم حرام؟ فأجابوا كلهم بأن اجتماع الناس عليها على هذه الهيئة حرام اتفاقاً، يجب إنكاره على كل قادر عليه بحسب قدرته. وأما حبها المسمى بالبن فحكمه حكم سائر النبات من أن الأصل فيه الإباحة الأصلية، لقوله عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ

---

(1) ابن طولون، حوادث، ص 360.

(2) كان خاير بشا أحد الأمراء المقدمين في مصر المملوكية ولما فتح السلطان سليم مصر عينة والياً على مصر وهو أول والٍ بذلك والي عثماني حكمها بين عامي 1517 - 1523م. انظر: ابن طولون، مفاكهة، ج1، ص 31.

(3) سورة المائدة، الآية 2.

(4) وممن حضر المجلس المشار إليه أعلاه: "قاضي القضاة صلاح الدين ابن ظهيرة الشافعي، وقاضي القضاة نجم الدين المالكي، وتعذر حضور قاضي القضاة شمس الدين الرشيدي الحنفي لضعف أوجب انقطاعه عن المسجد الحرام من مدة، والشيخ شهاب الدين أحمد الطيبي فاتح بيت الله الحرام، والأخوان خطيبا المسجد الحرام وجيه الدين عبد الرحمن وشرف الدين يحيى الشافعيان، والشيخ عفيف الدين عبد الله بن أبي كثير اليماني الحضرمي الشافعي، والعلامة شمس الدين الخطيب المصري ثم الدمشقي الحنفي، والعلامة ناصر الدين ابن المرحوم النجمي دولت باي المصري نزيل مكة الحنفي، والعلامة عبد النبي المغربي الدمشقي المالكي، والشيخ محب الدين محمد بن يعقوب المالكي. حتى حضر من يخالف في تحريمها ويشربها عناداً، كالنوري ابن ناصر الشافعي، والشهبي ابن البخاري إمام الحنفية..". ابن طولون، حوادث، ص 360.

اسْــتَوَى إِلَى السَّمَاء فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[1] وإن كان يحصل مـــن مطبوخ قشره ضرر في البدن أو العقل أو يحصل به نشوة ولذة وطرب ولهو فإنه حرام، ولو استعمله الإنسان بمقره في داخل بيته، والمرجع في ذلك إلى قول الأطباء"[2].

ولمـــا سمـــع الأمير خير بك أن الأمر في شأن هذا الشراب مرجعه إلى الأطباء العـــارفين بصناعة الطب، أحضر الشيخين النوري أحمد العجمي الكازروني وأخاه العلائـــي علي[3]، وسألهما عن هذا البن الذي يُتخذ من قشره هذا الشراب، فذكر أنه بارد يابس مفسد للبدن المعتدل، فاعترض عليهما شخص من الحاضرين ممن له إلمـــام بعلم الطب، وقال: إن البن المذكور في "منهاج البيان" لابن جزلة، وأنه محرق للبلغم. فقال الطبيبان: إن البن المذكور في "منهاج البيان"[4] ليس هو هذا، فإن هذا جـــزء مفرد بسيط، وذلك مركب من أبازير. ولو كان مباحاً فقد جرّ إلى معصية، وكل طاعة جرت إلى معصية سقطت، وإذا دار الأمر بين المحرم والمبيح قدم المحرم. وأقاما شهادتهما بالصيغة المعتبرة لدى القاضيين المصدر بهما"[5].

ثم ذكر جماعة من الحاضرين في المجلس أن القهوة المذكورة ذُكر لهم عنها أنها حـــلال، فاســـتعملوها بـــناءً على ذلك مع الإباحة الأصلية، فحصل لهم تغير في حواســـهم وأنكروا هيئاتهم، وحصل لهم بذلك الضرر في أبدانهم، وأقاموا شهادتهم

---

(1) سورة البقرة الآية 29.

(2) ابن طولون، حوادث، ص 361.

(3) أحمد بن الفقيه محيي الدين يحيى بن محمد بن تقي الكازروني المدني وأخو علي. سمعا علي الـــزين المراغـــي في سنة اثنتي عشرة وهما من أشهر علماء مكة والمدينة المنورة. انظر: الـــسخاوي، شـــمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت: 902هـ/1497م) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار الجيل، ط1، بيروت، 1992م، ج2، ص 244.

(4) مخطوط منهج البيان فيما يستعمله الإنسان لابن جزلة المتوفى سنة 493 هـ/1099م، ويمكن أن يـــصنف ضمن كتب الصيدلة. فهو يذكر الأعشاب والنباتات ومالها من فوائد طبية؛ وذلك وفق الترتيب الأبجدي. والكتاب مقسم إلى أبواب بنفس الترتيب. فإذا تناول باب الكاف، مثلا، ذكـــر الكافور بأنواعه المختلفة المنتشرة في العالم؛ ثم خصائصه مفرداً، ثم خصائصه داخل مركب مع مواد أخرى. ثم يورد الكالنج والكازوارنية ... إلخ. وتضمن الكتاب فهرس بأسماء الأدوية والمراهم وتركيباتها وفوائدها. حاجي خلفة، كشف، ج2، ص 1870م.

(5) ابن طولون، حوادث، ص 361.

بذلك عند الحاكمين المشار إليهما[1].

ويتابع ابن طولون ذلك الخبر بقوله: "ثم صرح الحاكمان المنوه بهما بحرمتها، وكذلك الجماعة الحاضرون، وتم الأمر على ذلك وتحققه الأمير خير بك. فأشهر النداء بمكة ومسعاها وطرقها بالمنع من تعاطي القهوة وتهديد من يتعاطاها. وانفصل المجلس ضحوة يوم الجمعة ثالث عشر ربيع الأول من السنة.. وكتب في هذا المحضر قاضي القضاة الشافعي ما صورته: الحمد لله، توكلتُ على الله، الأمر كما شُرح وبُيِّن. وكتبه الفقير إلى الله تعالى محمد صلاح الدين ابن ظهيرة[2]، خادم الحرم الشريف والشرع المنيف، لطف الله به. وكذلك كتب القاضيان"[3].

ويستمر الجدل حول القهوة في دمشق بعد عصر ابن طولون الصالحي[4]، إذ يشير نجم الدين الغزي (ت: 1061هـ/1650م) إلى أن الخلاف في أمر القهوة بدأ أوائل القرن الهجري العاشر، فيقول في ترجمة الشيخ أبي بكر الشاذلي العيدروس: "واختلف العلماء في أمرها حتى ذهب إلى تحريمها جماعة ترجح عندهم أنها حرام وآخر من ذهب إليه لشام والد شيخنا الشيخ شهاب الدين يونس العيثاوي ومن الحنفية بها القطب محمد بن سلطان... والأكثرون ذهبوا إلى أنها مباحة وقد انعقد الإجماع بعد ما ذكرناه على ذلك، وأما ما ينظم إليها من المحرمات فلا شبهة في تحريمه، ولا يتعدى تحريمه إلى تحريمها حيث هي مباحة في نفسها وأما مبتكرها فإنه في حد ذاته من سادات الأولياء.."[5]، ومن الذين أنكروا شرب القهوة الشيخ يونس بن عبد لوهاب العيثاوي (ت: 976هـ/1568م)، الذي يروى عنه أنه "كان ينكر القهوة البنية وصمم على إنكارها وألف فيها رسالة وكان يُعلن الإنكار على شربها على المنبر وكان يأمر بالمعروف ورافقه على إنكار القهوة قضاة

---

(1) ابن طولون، حوادث، ص 362.

(2) صلاح الدين ابن ظهيرة الشافعي، قاضي قضاة مكة ت: 927هـ/1520م.

(3) ابن طولون، حوادث، ص 362.

(4) حول القهوة في القرن السابع عشر انظر:

Cloette Establet et Jean-Paul Pascual, Café et Objets du café dans les inventaires de pelerins musulmans vers 1700, . in: Michel Tuchscherer. le commerce du café avant l´ère des plantations coloniales. Institut francais d´archéolobie orientale 2001, pp. 143-151.

(5) الغزي، الكواكب، ج1، ص 114.

زمانه..."[1].

واستكمالاً للحديث عن القهوة، وإبطالها، فهو ما نجد ذكره في ترجمة محمد بن الأول الحسيني (ت: 963هـ/1555م)، الذي شغل منصب قاضي دمشق، وهو الذي وافق الشيخ محمد بن سلطان في تحريم القهوة البنية "ونادى بإبطالها يوم الأحد سابع ربيع الأول سنة 953هـ ثم عرض إبطالها على السلطان سليمان خان[2] فورد أمره الشريف بإبطالها في شوال من السنة المذكورة.."[3]، ولم يقتصر منع القهوة على دمشق فقط فقد منعت بحلب، على يد القاضي صالح جلبي[4]، الذي منعها أيضاً عندما دخل دمشق قاضياً، وكان وجه التحريم عنده أنها تقدم بطريقة الدوّر المراعى في شرب الخمر وغيره، ويروي المؤرخ الغزي أنه كان جالساً عند القاضي، وسأله أيشربونها في الدور، "فقلت نعم والدور كما شاع باطل وأنشده:

قهوة البن أضحى　　بها الحمى غير عاطل
لكنهم شربوها　　بالدور والدور باطل

ومن الشعر الذي قيل في القهوة، ما نظمه الشيخ عبد اللطيف ابن أبي كثير المكي (ت: 941هـ/1534م) حيث نظم موشحاً في القهوة لما زار دمشق قال فيه:

قهوة البن مرهم الحزن　　وشفا الأنفس
فهي تكسو شقائق الحسن　　من لها يحتسي
شاذلي[5] المح لها أمس　　وابن ناصر أعاز

---

(1) الغزي، الكواكب، ج3، ص 222.

(2) بويع السلطان بالخلافة بعد أخيه وعمره 47 سنة وحكم بين عامي 1099-1102هـ/1687-1691م وتفي في أدرنة بسبب المرض وكان حكمه سببا في إعادة هيبة الدولة العمانية في أعين دول أوروبا.

(3) الغزي، الكواكب، ج2، ص 39.

(4) هو جلال صالح أفندي، كان قاضيا في دمشق سنة 955هـ/1548م. انظر: المقار، الباشاة، ص 14؛ مجهول، ذكر دمشق الشام، ق29.

(5) المقصود هو الشيخ أبو بكر الشاذلي العيدروس (ت: 914هـ/1805م) من آل با علوي ولد في بلدة تريم بمنطقة حضرموت وتوفي في عدن، وهو مبتكر القهوة له كتاب: "الجزء

والمـــساوي في المطهر الأقدس احـــــــتلاها عـــــــيان

وفحـــول الـــيمن أولو اليمن كأنهـــــــا تحتـــــــسي

قـــال فـــيها ما قال في زمزم شـــــــيخنا العـــــــالم

ولـــذي الباســـور والهم قال نفعهـــــــا حاســـــــم

فقـــل لامـــرئ لهـــا حـــرم أيهـــــــا الـــــــواهم

أنـــت تفـــتي بمقتـــضى الظن لـــــــك لا تـــــــأتي

شـــربها بالقـــياس والإجماع مـــــــستحل مـــــــباح

فهـــي تنقـــي الإشـــباع والكـــــرب والـــــرياح(1)

ومـــا ورد في السؤال عن أمر القهوة ما سُئل عنه المفتي الشيخ محمد بن محمد المولى أبو السعود (ت: 982هـ/1574م)، جاء ذلك عند الغزي يقول: "وسئل عن شـــرب القهـــوة قبل أن يكمل اشتهارها بعد ما قرر له اجتماع الفقه على شربها، فأجـــاب بقوله: ما أكبّ أهل الفجور، على تعاطيه، فينبغي أن يجتنبه من يخشى الله ويتقـــيه، وهـــذا ليس فيه تصريح بتحريمها بل يقتضي أن الأولى تركها حذراً من التـــشبه بالفجار والكلام في القهوة الآن انتهى على حلّها في نفسها وأما اجتماع الفقـــه على إدارها على الملاهي والملاعب وعلى الغيبة والنميمة فإنه حرام بلا شك وقد أجبت عن سؤال صورته(2):

أيهـــا الفاضـــل الـــذي جمع العلم وحـــاز التقـــى فأصـــبح قـــدره

افتـــنا أنـــت هـــل تقـــول حلال أم حـــرام على الورى شرب القهوة

عند ذلك ردّ الشيخ أبو السعود شعراً بقوله:

أيهـــا الـــسائل الـــذي جاء يرجو عـــندنا أن نبـــيحه شرب القهوة

اللطيف في عم التحكيم الشريف". انظر: الزركلي، الأعلام، ج2، ص 66.

(1) الغزي، الكواكب، ج2، ص 180.

(2) الغزي، الكواكب، ج3، ص 35-36، ومن المتشردين في أمر شرب القهوة كان الشيخ الحلبي محمـــد بـــن خلـــيل بن قنبر (ت: 971هـ/1563م). "وكان شديد النكير على شراب القهوة". انظر: الغزي، الكواكب، ج3، ص 58.

قهوة البن لا تكون حراماً ... أنها لا تفيد في النفس نشوة

غير أن الذي يجيء بيوتاً ... هي فيها تدار عادم نخوة

إذ يرى المرد والمعازف والنرد ... وكل يلهو فيتبع لهوة

ثم لم يقو أن يغير منكراً ... خشية أن يُعد ذلك هفوة

أو يجيبوه بالإهانة والسوء ... ويجفونه بأعظم جفوة

أو يخلي شيطانه لهواه ... لهوه في تلك البيوت والفوه

كل هذا مخالف لطريق ... خطء المصطفى وعرج نحوه

فاجتنبه ودع طوائف تدعوك ... إليه ولو بتأكيد دعوة

لا تطعهم ولو رضوا منك خطوة ... فتطيع الرجيم في كل خطوة

وإذا شئت شرب قهوة بُن ... حسوة قد أردت أو ألف حسوة

فليكن ذاك وسط بيتك مهما ... لم تشب حفوها بموجب حبوه

واذكر الله أولاً وأخيراً ... وتوثق منه بأوثق عروة

قاله ابن الغزي نجم ابن بدر ... يرتجي من رب البرية عفوه[1]

وبذلك يتضح أن الشيخ أبا السعود، أباح شرب قهوة البن في البيوت، وعارض شربها في بيوت خاصة، يجتمع مع شربها لعب النرد والموسيقى، وبالرغم من المرونة التي أبداها أبو السعود، إلا أن الجدل حول القهوة عاد وشكل جزءاً من السجال الثقافي في القرون 17 – 19م، ومرد ذلك الجدل الانتشار السريع للمقاهي واجتماع الملاهي فيها مما استدعى التنبيه بمنعها في بعض السنوات.

وليس أدل على حضور القهوة في الثقافة في القرن السابع عشر الميلادي أنها دخلت في أسماء المؤلفات والمصنفات، إذ ألف عبد الجواد بن شعيب الخوانكي (ت: 1063هـ/1626م)، رسالة في الاستعارة سماها "القهوة المدارة في تقسيم

(1) الغزي، الكواكب، ج3، ص 36، ومن الرسائل التي ألفت عن القهوة "رسالة في القهوة للشيخ محمد بن عبد القادر بن أحمد اليمني (ت: 1015هـ/1606م)". المحبي، خلاصة، ج4، ص 11.

الاستعارة"[1]. وتكشف أوامر السلاطين عن حدة الجدل الذي ظل يثار حول القهوة، والذي ظهر عبر رسائل فقهية وفتاوى شرعية، فقد وقع الأمر السلطاني برفعها من الأسواق في جميع أرجاء السلطنة العثمانية، بأمر من السلطان مراد بن أحمد (ت: 1049هـ/1639م) وجاء الأمر "بتبطيل القهوات في جميع ممالكه والمنع عن شرب التبغ"[2] ويبدو أن ذلك المنع كان بسبب اضطرابات ومحاولة انقلاب كان يدبر لها ضد السلطان مراد أثناء سفره". وكان تفسير سبب الانقلاب هو كثرة اجتماع الناس في المقاهي.

وتُظهر لنا مذاكرة فقهية جرت بين علماء دمشق الشام في القرن 12هـ/18م، الجدل حول مشروعيتها وحرمتها الذي ظل مستمراً ولم ينته في القرن السادس عشر، لكنه انحصر في أربعة آراء، هي حسب مخطوط محمد الخادمي: "طال الخلاف في القهوة على أربعة، حلها وحرمتها وطهارتها ونجاستها"[3].

في نهاية القرن التاسع عشر، بدا أن القهوة لم تعد مسألة شراب وأماكن مثيرة كما كانت سابقاً، ولم تعد تطرح على أنها مشكلة أمام رجال الدين أو الأدب، بل على العكس انصب اهتمام العلماء آنذاك على الجانب التاريخي لها، وخصوصاً لمن كانوا يبحثون في التقاليد الشعبية. وضمن هذا المنظور التاريخي أنشأ الشيخ جمال الدين القاسمي (ت: 1333هـ/1914م) رسالته في القهوة عام 1904[4].

وترى راندي ديغويلهم أن الشيخ القاسمي مثله مثل الذين كتبوا عن القهوة، لم يبق غير مبال بالشراب فهو يحذر بوضوح من أن شرب القهوة بطريقة متكررة يؤثر في التمثل الغذائي للجسم، ويُنقص شربها المتعاقب الشهية ويسبب الأرق، ويُفقد الإحساس بالتعب الجسمي، وأخيراً يتسبّب في عجز

---

(1) المحبي، خلاصة، ج2، ص 301.

(2) المحبي، خلاصة، ج4، ص 339.

(3) الخادمي، أبو سعيد محمد بن مصطفى (ت: 1176 هـ/1762م) مناظرة علماء دمشق في أمر القهوة، مخطوط، شريط رقم 72، مركز الوثائق والمخطوطات الجامعة لأردنية، نشخة مصورة عن مجموعة جاريت رقم 2086، جامعة برنستون. ق49أ.

(4) القاسمي، جمال الدين بن محمد الدمشقي (ت: 1333هـ/1914م) رسالة في الشاي والقهوة والدخان، بيروت، 1322هـ/1904م.

جنسي[1].

ولكنه بالمقابل يؤكد تأثيرات الشراب الإيجابية، ولاسيما خصائصه المنعشة للفكر لأجل الدراسة أو لصلاة. ومع ذلك، فإن القاسمي، حسب حساب الطبيعة الإنسانية، ولم ينكر التسليات التي كانت تستمر إلى الصباح في صحبة هذا المشروب، منوهاً بصحبة الرفاق في الوقت ذاته. ويتحدث الشيخ عن مزية أخرى للقهوة، فإذا أخذ إلى الحد المهضم بعد وجبة غنية فهي تخفف الشعور بالامتلاء وتساعد على الهضم[2].

ويعترف الشيخ جمال بأثر القهوة في التمثيل الغذائي فينصح بعدم إساءة استعمالها، بل بتذوّقها بكميات صغيرة، ولايعتقد أنها تصنّف في المشروبات المخدرة كالهيروين، ولايولي أيضاً أهمية لكونها اسماً من أسماء الخمر[3].

وتخلص ديغويلهم إلى أن القهوة، حسب رأي الشيخ القاسمي، شراب مقبول جداً بل مبارك بسبب خصائصه التي تثير النشاط، ولأجل هذه التأثيرات يجب البحث عنها من أجل أن تعين في المقام الأول على قيام الليل، وفي المقام الثاني لتنشيط الجسم والفكر. فهي تعين على التفوق في العمل الفكري وتسهّل الانتباه والفهم والقدرة على التحليل، لذا فهي شراب أهل الأدب والمدرسين والعلماء، وباختصار شراب أهل اللّه[4].

(1) ديغويلهم، القهوة في دمشق، ص 44.

(2) القاسمي: رسالة، ص 14و 18.

(3) المصدر السابق، ص 2و 16 و17.

(4) ديغويلهم، القهوة في دمشق، ص 48.

II

انتشار المقاهي وبُنيتها

لم تكد القهوة تصل دمشق، مع المتصوفة والحجاج والتجار، حتى غدت تقدم في منازل الدمشقيين، وتدار في مجالس المتصوفة، فهي تعينهم على السهر وقراءة الأوراد الطويلة، ولكنها مالبثت أن انتقلت إلى الأسواق، فصار هناك من يقف لبيعها، وتخصص البعض في صنعة دلالة القهوة في السوق، وهذا دليل انتشارها السريع الذي رافقه اهتمام ببناء بيوت خاصة تحولت تسمياتها واضطربت من بيوت قهوة إلى المقهى، مرورا بالخمارة وغيرها، فكيف حدث ذلك؟

- إشهار القهوة في دمشق وبناء المقاهي

بالرغم من الجدل الذي أثير حول مشروعية القهوة أو عدمها في نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر، إلا أنها في القرن السابع عشر غدت من عناصر الضيافة التي يقدمها الأعيان في مجالسهم[1]، ومع أننا لا نملك الكثير من وصف لآنية التقديم التي تقدم بها، إلا أنه يبدو أنها كانت تقدم في دمشق بالزبادي كما في غيرها من الحواضر التي عرفتها[2] ويمكن بيانها في المبحث القادم.

يكشف نص ابن طولون عن انتشار عادة تناول القهوة في أكثر من مكان، ويذكر محمد الأرناؤوط أن حوانيت القهوة بدأت تبيع القهوة خارج البيوت سنة 948هـ/1540م[3]، وترى بريجيت مارينو أن أقدم مقهى شُيِّد في دمشق هو الذي

---

(1) المحبي، خلاصة، ج1، ص 261 (ترجمة الشيخ أحمد بن عمر القاري).

(2) المحبي، خلاصة، ج3، ص 119. وحو تطور أكواب تقديم القهوة انظر دراسة:
Edward j. Keal. The Evolution of the Coffee Cups in Yemen. In: Michel Tuchscherer.le commerce du café avant l´ère des plantations coloniales. Institut francais d´archéolobie orientale 2001 .p35-50.

(3) حول القهوة في دمشق وبيعها وانتشارها انظر: الأرناؤوط، محمد، معطيات عن دمشق وبلاد الشام الجنوبية في نهاية القرن السادس عشر، وقفية سنان باشا، 1993م، دمشق، دار الحصاد، ط1، ص 101.

بـــناه مراد باشا وضمنه ضمن وقفه عام 1003هـــ/1595م قرب الجامع الأموي[1]، فـــيما يرى الأرناؤوط استناداً إلى وقفية أحمد باشا[2] أنّ تأسيس المقاهي سبق ذلك التاريخ وحدد موقع المقهى الأول في سوق الأروام[3]، كما أوقف سنان باشا ثلاثة مقـــاه علـــى منشآت دينية تقع اثنتان منها في حي العمارة[4] وثالثة في حي باب مصلى[5] جنوب دمشق[6].

ومـــن مقاهي القرن السادس عشر، بيت القهوة الذي شيده عبد اللطيف بن محمـــد محب الدين ابن أبـــي بكر (ت: 1023هـــ/1614م)[7]، ويشير المحبـــي إلى أحـــد المقاهـــي التي مرّ بها وشاهدها، وجاء عنده: "ومما اتفق لي أني كنت ذا مرة جالساً بالمكان المعد لبيع القهوة المسمى بالقهوة الجديدة تحت قلعة دمشق..."[8].

تشير المصادر إلى أن القهوة صارت تباع في بيوت خاصة بها في دمشق أوائل القـــرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي[9]، إذ جاء في ترجمة محمد بن أبـــي

---

(1) بـــريجيت ماريـــنو، مقاهي دمشق وأصحابها في القرنيين الثامن عشر والتاسع عشر، مجلة دراسات تاريخية، العددان 79-80، كانون أول 2002م، ص 222.

(2) كـــان أحمـــد باشـــا والـــياً على دمشق، سنة 944هـــ/1537م، وبنى التكية الأحمدية، انظر: دوروتيه زاك، تطور وبنيان مدينة مشرقية إسلامية، المعهد الفرنسي للشرق الأدنى، ترجمة قاسم طوير، مراجعة نزيه الكواكبي، ط، 1، 2005م، دمشق، ص 137.

(3) عـــرف أيضاً بسوق السباهية، شيد السوق في سنة 962هـــ/1554م وتوسع وعرف فيما بعد بسوق الجديد، وكانت التوسعة سنة 1195هـــ/1781م . انظر: زاك، تطور وبنيان، ص 137.

(4) كان حي العمارة الذي يقع إلى الشرق من الجامع الأموي، في القرن السابع عشر أحد الأحياء التـــي تقع داخل السور، وفي القرن التاسع امتد الحي وفاض بالبناء إلى خارج السور فصار الجـــزء الخارجـــي يعـــرف بالعمارة البرانية وهي اليوم تقع بين السور القديم وشارع الملك فيـــصل، فيما عرف الجزء الداخلي بالعمارة الجوانية، انظر: دوروتيه زاك، تطور وبنيان، الخارطة المرفقة. وانظر نعيسة، مجتمع مدينة دمشق، ج1، ص 79.

(5) باب مصلى يبدأ منه شارع الميدان جنوباً وينتهي بباب الله، وهو بداية لما سمي فيما بعد بحي المـــيدان الـــذي كـــان في القرن السادس عشر يضم ميدان الحصى والميدان الأخضر وباب مصلى، انظر: دوروتيه زاك، تطور وبنيان مدينة مشرقية إسلامية، ص 103-104.

(6) محمد الأرناؤوط، معطيات. ص 23-33

(7) المحبي، خلاصة، ج3، ص 19.

(8) المحبي، خلاصة، ج3، ص 226.

(9) ويخالف هذا الرأي ما ذهب إليه محمد الأرناؤوط إلى أن انتشار القهوة خارج البيوت بدأ سنة 948هـــ/1540م. راجع الأرناؤوط، معطيات، ص 101.

بكـــر اليتـــيم (ت: 1005هـــ/1596م)، أنه كان "يتكسب ببيع القهوة بالسويقة المحروقة[1] وكانت غايته جمع الصالحين" وكان مكان البيع فيما يبدو بجانب حوش تجتمع به بنات الخطأ "فاستأجره - محمد اليتيم - وأخرجهن منه واتخذ فيه مسجداً وكان إذا أذن المؤذن دعا الناس على صلاة الجماعة فيه وهذا هو المكان الذي بنيت به المرادية[2]".

ويشير المحبـــي في ترجمة مراد باشا والي دمشق (ت: 1020هـــ/1611م)، إلى أنـــه عمر وكالة حسنة وأمر أن يسكن فيه تجار سوق السباهية[3] فنقلوا إليه، حتى مات، وأعيدوا إلى السوق المعروف بهم الآن ثم عمر إلى جانبه سوقاً آخر ونقل إلـــيه تجـــار ســـوق الـــذراع[4] والمـــتولى له على عمارة السوق الأول، القهوة والوكالة.."[5].

وفي النصف الثاني للقرن السادس عشر الميلادي واستنادا إلى المؤرخ نجم الدين الغـــزي (ت: 1061هـــــ/1651م) أصبحت القهوة تشرب خارج البيوت، ويعود الفضل في إشهارها بدمشق إلى علي بن محمد الشامي (ت: 963هـــ/1555م) الذي جاء في ترجمته أنه "أشهر شرب القهوة بدمشق فاقتدى به الناس وكثرت من يومئذ حوانيتها، قال ومن العجب أن والده كان ينكرها وخرب بيتها بمكة..."[6].

---

(1) أشار ابن الحمصي في تاريخه إلى سويقتين سويقة ساروجه وسويقة القاضي وهما ضاحيتان مملوكيـــتان. انظر: ابن الحمصي، حوادث الزمان، ص ص 46، 310، 217، 555؛ العلبي خطط، ص 441.

(2) المقصود هنا مسجد المرادية أو مراد باشا. المحبي، خلاصة، ج3، ص 321.

(3) لـــم يـــرد له ذكر في كتب الخطط ولا عند ابن عبد الهادي في نزهة الرفاق في شرح حالة الأســـواق، ولم يشر له ابن طولون ولم يذكره العلبي في خطط دمشق. ولعل المقصود سوق السنانية الذي كانت تصنع به العلب. انظر: ابن عبد الهادي، نزهة الرفاق في شرح الأسواق، فـــي رســـائل دمـــشقية، حققها، صلاح الدين الخيمي، دار ابن كثير ط 1، دمشق، 1988م، ص 90.

(4) يقع خلف الجامع الأموي من جهة القبلة وكان حسب ما يقول ابن عبد الهادي: "يباع فيه البزّ مـــن الحريـــر والكتان والثياب الرفيعة" انظر: ابن عبد الهادي، نزهة الرفاق، ص 73. وقد احتـــرق السوق سنة 1121هـــ/1709م وأعيد بناؤه سنة 1124هـــ/1713م. انظر: ابن كنّان، الحوادث، ص 185، 193.

(5) المحبي، خلاصة، ج4، ص 356.

(6) الغزي، الكواكب، ج2، ص 198.

وحين زار ابن كبريت محمد بن عبد الله الموسوي (ت: 1070هـ/1659م)، وكتب عن محاسن دمشق، أعجب إعجاباً شديداً بمقهى النوفرة وقال عنه: "ومن محاسنه الفوار الذي على باب جبرون[1]، فإن ماءه يرتفع نحو قامة ونصف في غلظ الساق دائماً وأبداً.."[2]. وهو يشير هنا إلى نافورة الماء التي منحت بيت القهوة الذي كان بجانبها اسمها وهو مقهى النوفرة الذي ما زال عاملا حتى اليوم.

وحين زار الرحالة الفرنسي جان تيڤنو دمشق وبيع 1074هـ/1664م، لاحظ أن مقاهيها منتشرة بأعداد كبيرة، وأشار إلى أنها تتميز بوفرة المياه، وان أجمل المقاهي تلك التي كانت منتشرة في الضواحي ومنها قهوة السنانية التي كان يطلق عليها "القهوة الكبرى" لاتساع ساحتها، وكانت تزينها نوافير الماء الدافقة في بحرتها الكبيرة، وهناك مقهى آخر قد يفوقها أناقة بالقرب من باب السرايا، وأشار تيڤنو إلى قهوة النهرين التي كانت موجودة قرب باب الزرابلية عند نهاية الجانب الطويل للقلعة وبين أنها كانت تضم جدولي ماء يشكلان جزيرة صغيرة مكسوة بالزهور والنباتات[3]. ويتابع الرحالة الغرب إعجابهم بمقاهي دمشقي، فهذا هنري موندريل يشير إلى مقاهي دمشق وهو معجب بها حين يقول: "وفي طريق عودتنا على المنزل شاهدنا حماماً بديعاً للغاية وعلى مقربة منه قهوة تستوعب أربع أو خمسمائة شخص، إنها مظللة بالأشجار، لكن عندما تسقط أوراق الأغصان تظلل الحصر ولهذه القهوة فسحتان لاستقبال الرواد إحداهما تلائم الصيف والأخرى الشتاء"[4].

---

(1) هو الباب الخارجي لمعبد جوبيتر والباب الشرقي للجامع الأموي وما زالت معالمه باقية إلى الجهة الشرقية من محلة النوفرة وهو يفصلها عن حي القيمرية وأطلق عليه تسميت أخرى ومنها باب الساعات وهو اسم شاع في القرن السادس الهجري. انظر: الشهابي، معالم دمشق، ص 43-44؛

(2) ابن كبريت، محمد بن عبد الله الموسوي (ت 1070هـ/1659م)، رحلة الشتاء والصيف، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، تحقيق محمد سعيد الطنطاوي، ط2، 1385هـ/1965م، ص 217.

(3) انظر:

Jacques Ghislain de Maussion de Favières; Damascus Baghdad. Capitals and Lands of Caliphs. Translated From the French by; Edward j Banks. Dar al Mashreq, Beirut 1972, p.31.

(4) انظر:

Maundrell, Henry: A journey From Aleppo to Jerusalem. In 1697, pp 174-4

في القـــرن الثاني عشر/الثامن عشر، غدت المقاهي جزءاً من فعاليات السوق والمـــرافق العامـــة في دمشق، وظهر المقهى بصفته مرفقاً عاماً يرتاده الناس للترويح والتـــرفيه عـــن أنفسهم. وتشكلت مع مرور الزمن ثقافة خاصة بالمقاهي[1]، ومما اشتهر منها في النصف الأول من القرن 12هـ/18م قهوة خبيني "الواقعة في بستان الشرف المطل على المرجة"[2]، وقهوة الخزارتية في محلة القنوات وقهوة المناخلية[3].

ويبدو أن تشييد المقاهي ووقفها استمر وتنافس من أجله الولاة وكبار رجال الإدارة، إذ يـــشير البديري إلى أن من جملة مبرات فتحي الدفتري (ت: 1159هـ/ 1746م) "وحـــسناته تعمـــيره ووقفه قهوة"[4] لا يحدد مكانها، وفي خبر آخر يشير البديـــري إلى وجود مقهى خلف الجامع الأموي دون ذكر لاسمه[5]، ولعله النوفرة، وفي شـــهر جمادى الأولى من عام 1167هـ/1753م رمم الحاج أسعد باشا العظم أحـــد أهـــم الـــولاة والبـــناة الطامحين[6] مجموعة منشآت على نفقته قرب مقهى الخريـــزاتية[7]: وكذلك الدكاكين المجاورة ومجاري الماء التي تغذي المنطقة. ويشير البديري في أحداث سنة 1168هـ/1754م إلى قهوة بسوق الخيل كانت لدرويش آغـــا الكردي[8]، وفي عام 1169هـ/1755م، "عمر أسعد باشا قهوة الشاغور التي هـــي مقابلـــة للشيخ السروجي، وبتلك الأيام عمرت أيضاً قهوتان بباب السريجة

---

(1) حول ثقافة الترفيه في الحضارة العربية وأثرها في الغناء والموسيقى أنظر دراسة، الشرمان، "ثقافة الترفيه"، مصدر سابق.

(2) ابن كنّان، الحوادث، ص 431، ومكان القهوة اليوم في ساحة الحجاز تقريباً.

(3) انظـــر حـــول المقاهـــي والمجـــالس الـــشعبية: مهند مبيضين، أهل القلم ودورهم في الحياة الثقافـــية فـــي مدينة دمشق في المرحلة 1121-1172هـ/1708-1758م. منشورات المعهد الفرنسي للشرق الأدنى. وزارة الخارجية الفرنسية، قسم الدراسات العربية، دمشق، 2005م، ص 193-197.

(4) البديري، حوادث، ص 80.

(5) البديـــري، حوادث، ص 134. ويشار إلى أن هناك مقهى خلف الجامع الأموي اليوم يعرف باسم مقهى النوفرة ويوجد مقهى آخر مقابل للجدار الشرقي للجامع يمسى مقهى خبيني أيضاً.

(6) حول حكم أسعد باشا العظم انظر البديري، حوادث، ص 65-219

Shamir, Shimon. Asa'd Basha Al-azm and Ottoman Rule in Damascus 1743-58. "B.S.O.A.S.", Vol. 26,1963, pp 1-20.

(7) البديري، حوادث ص 181.

(8) البديري، حوادث، ص 185.

وقهوة أمام "باب مصلّى"[1] وهناك مقهى آخر في سوق الخيل[2] ويفهم من إشارة البديري أن الأكراد كانوا يرتادونه[3].

ويشار إلى أن المقاهي لم تنتشر فقط في أماكن المتنــزهات والحدائق وبخاصة منطقة المرجة، أو بجوار الجامع الأموي، بل يشير ابن كنان إلى وجود مقهى في حي الصالحية مقابل محكمة الصالحية بجوار المدرسة الجهاركسية عند منـــزل الشيخ عبد الغني النابلسي (ت: 1143هـ/1730) وقد تهدم المقهى بفعل اعتداءات العسكر في أحداث شهر ربيع الثاني سنة 1143هـ/1730م وفي ذات الأحداث يذكر ابن كنان "القهوة التي في السكة شمالي العقيبة.." [4].

ويشير السجل الشرعي إلى أن درويش بن أحمد الحمصي استأجر ثلاثة عشر حانوتاً للقهوة في باطن دمشق قرب الجامع الأموي. وكان تلك الحوانيت من جملة أوقـــاف لم تحددها الحجة الشرعية[5]، ويبدو أن الأوقاف مثلت مصدراً ممولاً لبناء المقاهـــي، ســـواء من قبل الولاة أو الأعيان، ويلاحظ أن غالبية المقاهي شيدت في الأسواق أو في داخل المدينة وعند أبوابها القديمة.

ومـــن المقاهي التي يكشف عنها السجل الشرعي في القرن الثامن عشر ويمدنا بمعلـــومات عن مستثمريها والعاملين فيها وأجورهم، مقهى باب السريجة[6]، الذي اســـتأجره محمـــد بن علي الديري بأجر قدره أحد عشر بارة[7] في الشهر[8]. كما

---

(1) البديري، حوادث، ص 190.

(2) حدد ابن عبد الهادي موقع هذا السوق بأنه تحت قلعة دمشق، ابن عبد الهادي، نزهة الرفاق، ص 81.

(3) البديري، حوادث، ص 185.

(4) ابن كنان، الحوادث، ص 412.

(5) سجل شرعي 130، حجة551، ص 273، 15، جمادى الآخرة 1164هـ/1750م.

(6) لـــم يرد اسم السريجة في المعاجم العربية، وهو تحريف للمصطلح السرياني سريجتا، ويعني الغرارات وهي نوع من القفف الكبيرة التي تصنع من سعف النخل والخوص وتستعمل لنقل الحجـــارة والتـــراب، وتعـــود تسمية الحي إلى العصر المملوكي حيث أشارت المصادر إلى وجـــود ســـوق بـــاب الســـريجة وهو غير سوق السروجيين. انظر ابن عبد الهادي، نزهة الأسواق، ص 78، ص 89؛ الشهابي، 48.

(7) الـــبارة وهي وحدة نقدية قديمة ضربت سنة 1620م، وكان القرش يساوي أربعين بارة خلال فترة الدراسة بينما البارة تساوي 10 قطع أو فلوس. البديري، حوادث، ص 75.

(8) سجل شرعي، 149، حجة 9، ص 4، 23 شوال 1169هـ/1755م.

استأجر معتوق بن درويش القهوجي من سليم بن خليل آغا "القهوة الكائنة بظاهر دمشق بمحلة السويقة"[1].

ويستمر انتشار المقاهي في القرن التاسع عشر، إذ يشير ميخائيل الدمشقي إلى مقهى الدرويشية في سياق الأحداث التي جرت بدمشق عام 1813م[2]. ويذكر صاحب مذكرات تاريخية عن حقبة حكم إبراهيم باشا المصري (1830 - 1840م) وجود ثلاثة مقاه كانت "تشرب فيها الخمرة والنبيذ وهي قهوة علي منين وقهوة باب شرقي، وقهوة باب توما"[3].

في عام 1867م وضع نعمان قساطلي (ت: 1338هـ/1920م) كتابه: "الروضة الغناء في دمشق الفيحاء"، وهو حين يتحدث عن المقاهي يشير إلى وجود مقاه كازينوهات، ويحددها في سوق الخيل والمرجة الصوفانية خارج باب توما، ويبيِّن قساطلي في نصه أسعار القهوة وطبيعة المقهى الذي عبر عنه كمرفق عام، فقد تجاوز حدود التسلية في كونه مكاناً ضابطاً للهيئة الاجتماعية، ومعبراً عنها ومكاناً لاجتماع الفتوة والعسكر وهو مجال رحب لاستعراض القوة إذ يقول:

[وثمن فنجان القهوة عشرون بارة في بعض القهاوي وعشر بارات في البقية" وهو يبين أنه في سنة 1872م، تجددت مقاه كثيرة في المرجة "فصار الناس يجتمعون بها ليلاً ونهاراً في الفصول الثلاثة وفي بعضها نهارا في فصل الشتاء، وكان للقهاوي اعتبار كلي في الأيام السالفة لان جماعة الانكشارية كانوا يجتمعون بها ويصورون عددهم الحربية فوق الوجاق وكانوا يعتبرون تلك الصور كراية يحامون عنها وكان من قتل قتيلا ووصل إلى وجاق القهوة سلم..][4].

ويشير محمد سعيد القاسمي (ت: 1284هـ/1876م). إلى حال المقاهي وانتشارها وأنواع الخدمات التي تقدم والأشربة ووجوه التسلية في أحياء دمشق فيقول: "كل محلة لا تخلو من عدة قهاوي، والقهاوي التي ضمن البلدة يكون رواجها كثيراً في الشتاء، وفي فصل الصيف غالب الأهالي ينتشرون لجهة القهاوي

---

(1) سجل شرعي 147، حجة 23، ص 12، 10 ذي القعدة، 1168هـ/1754م.

(2) الدمشقي، ميخائيل (كان حياً 1841م)، تاريخ حوادث جرت بالشام وسواحل بر الشام والجبل، تحقيق محمد محافظة، دار ورد، ط 1، عمان، 2004م، ص 153.

(3) مجهول، مذكرات تاريخية، ص 66.

(4) قساطلي، الروضة لغناء، ص 71.

كـــثيراً والتي تروج في زمن الصيف، كما أنها في فصل الشتاء يُزهد بها لشدة البرد، وهـــي الموجــــودة في جهة المرجة، على شاطئ نهر بردى، فيقعدون بها، ويتناولون القهــــوة والمرطبات، كالليموناظة وشراب الورد والتوت وغيرها، ويشربون التنباك والـــسيكارات، ويلعـــبون بـــتلك الملاهــــي المــــشروحة أعلاه، والبعض ممن يتعاطى المـــسكرات – والعـــياذ بالله تعالى – يذهب لجهة الباب الشرقي في حارة النصارى، حـــيث يوجد هناك قهاوي متعددة تعرف بالجناين، في باب توما، وقاصدوها يتعاطون القهـــوة مع الأراكيل والمسكرات". ويظهر القاسمي أن المقاهي كانت متفاوته "في مظهـــرها ومــــوقعها وقـــيمها.. والبعض من القهاوي يكون أجرة الدخول إليها، والمكث بها بعشرين بارة، والبعض بعشر بارات، وبخمس بارات أيضاً..."[1].

وبحــــسب دراسة تيسير الزواهرة فإن عددها زاد، وانتشرت في عدد كبير من محــــلات دمـــشق[2]. ويلاحظ الزواهرة أن ملاك المقاهي كانوا في تلك المرحلة من كبار الأعيان[3]. وبرغم أن الزواهرة لا يقدم حصرا دقيقا لعددها، إلا أن ما يرويه عـــبد الرحمن بيك سامي في وصف أحوال المقاهي في نهاية القرن التاسع عشر بعد عـــام (1890م) يظهــــر أن القهـــوة انتشرت وتوزعت مقاهيها في مختلف الأحياء وبأعداد كبيرة مع وجود فارق في أسعارها وفي طرزها إذ يقول:

> [.. في دمـــشق، مـــا ينيف على مئة وعشرين مقهى بين كبير وصغير، وهي منتشرة بأنحـــاء المديـــنة، ومـــا كان على الطراز القديم منها فكثير وثمن فنجان القهوة، خمس بـــارات، وأمـــا في المقاهي الحديثة أو المنظمة تنظيماً جديداً فثمن الفنجان من عشر بارات إلى العشرين، وأكثر المقاهي الحديثة أنشئت في المرجة فيجتمع فيها الناس ليلاً ونهاراً في فصول السنة الثلاثة وهي الربيع والصيف والخريف وهي ذات فناء مفتوح أو مغلق ...][4].

---

(1) القاسمي، قاموس، ج2، ص 367.

(2) من المحلات التي وجدت فيها المقاهي في القرن التاسع عشر بحسب دراسة الزواهرة، محلة مئذنة الشحم ومحلة باب مصلى والصالحية والميدان والقيمرية التي وجد فيها أكثر من مقهى ومحلـــة بـــاب الجورة والشاغور وباب توما وسوق ساروجا. انظر: تيسير خليل الزواهرة. تـــاريخ الحـــياة الاجتماعية في لواء دمشق، من 1255-1282هـ/1840-1864م، منشورات جامعة مؤتة، الكرك 1995م، ص 74-75.

(3) الزواهرة، تاريخ، ص 74.

(4) عبد الرحمن سامي بيك، القول الحق، ص 93.

عندما نتجاوز القرن التاسع عشر إلى القرن العشرين، وتحديدا حتى عام 1918 حيث نهاية الحكم العثماني، يمكن الحديث عن مقاهٍ ظهرت واشتهرت آنذاك، ومنها قهوة التايبين الواقعة عند مفرق المزّة من ربوة دمشق، وشيد هذا المقهى حمزة المسلماني الملقب بأبي أحمد، على أرض عائدة لآل شحادة، وأخذت الزبائن تتردد إليه من مناطق الربوة وكيوان والمزّة ومختلف مناطق دمشق للصيت المكتسب للأركيلة الشامية العريقة في ذلك المقهى. وكان من ميزات هذا المقهى عدم وجود ألعاب القمار في صالته، فكان صاحبه يكتفي بما يدر عليه من ربح من تقديم الشاي والقهوة والزهورات والأركيلة فقط [1].

أما تسمية المقهى بالتائبين فيبدو أنها لاحقة على تشييد المقهى، فبحسب قتيبة الشهابي تعود التسمية إلى لقطة سينمائية في فيلم قدّمه الفنانان دريد لحام ونهاد قلعي، وعنوانه: "امرأة تسكن لوحدها"، في السبعينات من القرن الماضي. ويظهر في الفيلم لقطة تصوّر بعض أفراد العصابة وهم يجلسون في مقهى شعبي، بينما يقوم دريد ونهاد بمراقبتهم خلسة، ثم يقوم دريد بالاتصال بشرطة النجدة ويطلب حضورهم إلى المقهى الذي هو به، ويسميّه "قهوة التايبين" ومنذ ذلك اليوم التصق هذا الاسم الطريف بالمقهى، حتى جرى هدمه لإقامة جسر عقدة الربوة حوالي عام 1976م[2].

وهناك قهوة خَبيني الواقعة بآخر سوق القباقبية، تجاه النوفرة، وأصل الاسم قديم، أطلق في القرن الثاني عشر الهجري على قهوة كانت تقع غربي التكية المولوية[3]، ثم شاعت هذه التسمية الشعبية الطريفة بين الناس في زمن الاتحاديين الأتراك. فعندما كانوا يعمدون إلى البحث عن الشبّان بدمشق لسوقهم إلى الخدمة العسكرية إبّان الحرب العالمية الأولى المعروفة بحرب (السفَرْبَرلك)، وذلك على أساس مبدأ القُرعة (أو النُمرة كما كانت تسمى) على نطاق أثمان دمشق وأحيائها، كان ضابط مفرزة السوق (الشاويش) يعتمر قبّعة طويلة من اللباد، فسمّي لذلك بـ (أبي لبّادة)، وكان اسمه يقترن بالخوف والهلع لدى الشبّان، إذ كان الذهاب إلى معارك بعيدة يعني الموت الزؤام.

---

(1) هاني الخيّر، طرائف وصور من تاريخ دمشق، مؤسسة النوري، دمشق، 1989م، ص 146.
(2) الشهابي، معالم دمشق، ص 458.
(3) ابن كنّان، الحوادث، ص 431، ومكان القهوة اليوم في ساحة الحجاز تقريباً.

والطـــريف في الأمر أن الناس في الأسواق كانوا يتصايحون بكلمة "عبايه ... عـــبايه!" كرمـــز لتنبيه الناس باقتراب مفرزة السوق لكي يهربوا. وشاع عن هذه القهـــوة أنها سميت بذلك لأن الشبان الهاربين من وجه المفرزة كانوا يلجؤون إليها طالبين الملاذ قائلين لمن بها: "خَبيني".

والواضـــح أن الأمـــر لا يعدو التفكّة والخيال الشعبـــي، أما اليوم فتطلق التـــسمية مجـــازاً على القهوة الواقعة بآخر سوق القـاقبية[1]. وعندما زرنا هذا المقهـــى أخـــبرنا صـــاحبه أن التسمية جاءت لأن لعسكر التركي ومن بعده الفرنـــسي لما كانوا يطلبون الشبان للخدمة العسكرية أو لملاحقة الثوار، كان هـــؤلاء الـــشبان يلجؤون للمقهى، وكانت نوافذ المقهى لها حماية من حديد، لكنها تفتح بشكل أبواب، وعندما يلجأ الشبان لـمقهى كان يجري تهريبهم من أبواب الحماية التي لا يظهر أنها تفتح، وكان العسكر يدخلون فلا يجدون أحداً ممن يتتبعونهم[2].

أمـــا قهـــوة خُود عليك - أي خُذ عليك وأوسع لي مكاناً - والتي تقع في مـــنطقة الـــشادروان[3]، فكانت على حافة ضفة نهر ثورا، وكان يلتقي على هذه الحافة العشرات من محبـــي السيران "ليصنعوا الشاي ويشربوه على مقربة من الماء، وهو تقليد شامي أصيل"[4].

وفي نواحـــي الـــربوة كان الدمشقيون يذهبون إلى قهوة خود عليك ومعهم معدّات الشاي كاملة وأحياناً على دراجة ومعهم "ببور" الكاز، و"براد" الشاي أي الإبريق، والإبريق الصغير الذي يوضع أعلاه ويُخمر فيه الشاي، وقد يكون سماور ثم الكـــؤوس وباقي الآلة. وفي أي وقت يمر المرء يلقى أولئك الذين يوسّع بعضهم لـــبعض في مقهـــى "خـــود علـــيك". ويذكر نجاة قصاب حسن أن الجالسين فيه "يتفـــرعون" أي يخلعـــون الثياب الخارجية المرهقة، فكأنهم في منازلهم ويرتاحون

---

(1) ابن كنّان، الحوادث، ص 43؛ الشهابي، معطيات، ص 459.

(2) من زيارة للمقهى في صيف عام 1997م، وما زال المقهى عاملاً حتى اليوم.

(3) الأصـــل في التسمية الشادوران وهي كلمة فارسية معناها الميزاب، أي مسيل الماء، وسيمت المنطقة بذلك لوجود منابع ماء ومساقط صغيرة . الشهابي، معالم، ص 346.

(4) الشهابي، معالم دمشق، ص 460-462.

وينعمون برطوبة النهر وتعبير "خود عليك" مستعمل إلى اليوم في العامية الدمشقية بنفس المعنى، أي أفسح المجال لي لأجلس بجوارك"[1].

ويدل اسم قهوة الله كريم الواقعة بجوزة الحدباء قرب جامع يلبغا على مرحلة تاريخية ذات دلالة سياسية، هذه القهوة كما يفيد قتيبة الشهاب استناداً إلى روايات معاصرة لها في العقد الأول من القرن العشرين كان يجلس فيها المتقاعدون من ضباط الجيش العثماني بعد الانقلاب على السلطان عبد الحميد عام 1908م، فكانت ملتقاهم المفضل، وكانو عندما يمرّ بقربهم ضابط شاب يلبس بزته العسكرية المهيبة ذات الشارات والأوسمة المذهبة، يتحسرون على أيامهم الخوالي ويقولون مع تنهيدة عميقة: "إيه ... الله كريم"، أملاً وتعللاً بعودتهم إلى الخدمة ورجوع أيام العز السابقة برجوع السلطان عبد الحميد[2].

ويذكر فخري البارودي في مذكراته أنه: "بعد خلع السلطان عبد الحميد، أحال الاتحاديون على التقاعد قسماً كبيراً من الضبّاط الذين ناصروه، وكان الضباط المتقاعدون في دمشق يجتمعون في (مقهى البُغا)، قرب جامع يلبغا الواقع بين محلتي البحصة وسوق الخيل، فلما انضمّ إليهم الضباط الحميديون المتقاعدون تزايد عددهم، حتى أصبح ذلك المقهى خاصاً بهم تقريباً. وكانوا يجلسون فيه طوال النهار، حتى إذا مرّ أمامهم ضابط حديث يتبادلون النظرات ويرددون: "الله كريم" أملاً منهم في أن يعود عبد الحميد إلى العرش ويعودوا إلى مناصبهم. ولكن عهد عبد الحميد لم يعد، ولم يبق لهم من آمالهم سوى عبارة "الله كريم" التي أصبحت اسماً للمقهى ولا وجود للقهوة اليوم، فقد أزيلت منذ نصف قرن أو أكثر"[3].

حتى اليوم هناك العديد من المقاهي المنتشرة التي تعود في مواقعها إلى الفترة العثمانية وإن تغيرت في أسماؤها، مثل مقهى الكمال الصيفي، ومقهى الهافانا والمقهى السياحي الذي تغير وبُني مكانه مصرف تجاري، وغيرها من المقاهي الموجودة حتى اليوم إلى الشرق من مبنى سكة الحديد الحجازية وهي في مجملها مقاه صيفية.

---

(1) نجاة قصاب حسن، حديث دمشقي، دار طلاس، ص 1988م، ج1، ص 40.

(2) الشهابي، معالم دمشق، ص 462-463.

(3) فخري البارودي، مذكرات البارودي، بيروت - دمشق 1951-1952م، ج1، ص 77.

- **بنية المقاهي وزبائنها**

بـــدأت المقاهـــي كمكـــان عام، تجتذب العامة، في مطلع القرن العاشر الهجـــري/الـــسادس عشر الميلادي، ومع مرور الوقت صارت القهوة حاضرة في مجـــالس الخاصـــة ودخلت في سجالاتهم ومناظراتهم الأدبية، إذ رافق انتشار بيوت القهوة في أحياء دمشق دخولها في أشعار المجالس الأدبية المنظومة، فقد دعا أحـــد الأعـــيان بعض العلماء إلى مجلس، فمس أحدهم ثلجاً كان على المائدة فانشد:

شـــيخنا المقـــري وهـــو الـــناس
والـــذي بالأنـــام لا تعـــاس
مـــس ثلجـــاً وقـــال المـــاس هـــذا
قلـــت المـــاس عـــندنا ألمـــاس

ثم ارتجل قائلاً:

غنـيت بالـثلج عـن سوداء حالكة
مـن قهوة لم تسكن في الأعصر الأول
وقلـت لمـا غـدا خلـي يعـنفني
في طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل[1]

لم تكن المقاهي لتجذب إليها عامة الناس أو العسكر وحسب بل أن كثيراً من العلماء وشيوخ الصوفية كانوا يرتادونها. وغدت بيوت القهوة مجلساً لزوار دمشق من علماء المدن الإسلامية: فمحمد الاضطراري المغربـــي المالكي (ت: 1016هـ/1607م)، نـــزيل دمـــشق كـــان عامياً "وكان يجتمع إليه العوام بالجامع الأموي وغيرهـــم فـــيأخذون عنه علم التوحيد ويحدثهم بالحقائق، وكان يجلس في بيوت القهـــوة كثيراً ويجتمع الناس حوله فيها ويأخذون عنه وكان يظهر من أتباعه أشياء كثيرة منكرة ..."[2].

(1) المحبي، خلاصة، ج1، ص 307.
(2) المحبي، خلاصة، ج14، ص 287.

يبدو المقهى بناءً ذكورياً بامتياز من خلال مرتاديه، وقد ارتاده الدمشقيون للترفيه والتسلية، وهو إما أن يكون عاماً مفتوحاً في حديقة أو "جنينة" أو ساحة عامة كما هو حال "مقهى خبيني" خلال مرحلة الدراسة[1]. أو يكون عبارة عن بناء مغلق كما هو حال المقاهي التي انتشرت في الأسواق العامة وخلف الجامع الأموي وما زال بعضها عاملاً حتى اليوم.

وفي الربع الأول من القرن العشرين، أخذ رواد المقاهي تتنوع في دمشق وزالت النظرة السلبية لجلاسه، كما بدأت المرأة تظهر فيه، وبخاصة السائحات، إلى جانب المثقفين والسياسيين الدمشقيين أو من مدن سوريا الأخرى، وبخاصة في مقهى النوفرة خلف الجامع الأموي ومقهى الكمال الذي كان من أبرز رواده الشاعر العراقي أحمد صافي النجفي وخليل مردم بيك وهناك مقهى الهافانا قرب جسر فكتوريا الذي اشتهر في عقدي الأربعينات والخمسينات، وإلى جانب الهافانا والكمال والنوفرة اشتهر مقهى الروضة قرب مبنى مجلس الشعب السوري حالياً، والذي كان يجلس فيه النواب والأدباء وأهل الفن[2].

لا يوجد كثير عن أوصاف بناء المقهى في المصادرة المتوفرة بين أيدينا، غير أن الطابع العام له هو وجود ساحة ومكان لإعداد المشروبات الساخنة ويكون مطلاً على صالة أو فناء خارجي، إلى جانب ركن خاص بتحضير الشيش (الأركيلة)، واستناداً إلى وثيقة تعود لأوقاف أسعد باشا العظم والي دمشق يمكن القول أن بناء أحد مقاهي أسعد باشا يمكن أن يقدم صورة قريبة عن طبيعة وشكل المقهى الذي كان قد بني في منطقة سوق ساروجا وكان بحسب الوصف مكوناً من: "طابقين مجهزين بمرافق المياه ينفتحان على فناء مغطى في كل طابق غرف خاصة بالزبن"[3].

وترى رندي ديغويهلم أن وجود غرف متنوعة يدل على أنه كان للبناء استعمالات متعددة، فهو يستخدم مقهى في ساعات طويلة من النهار والليل، لكن

---

(1) عبد الرحمن سامي بيك، القول الحق، ص 92.

(2) لعبي، العمارة، ص 148-149. يذكر عمر كوش في مقابلة معه قبل وفاته ان بعض النواب في مجلس الشعب احيانا يتركون ماكتبهم ويجلسون في المقهى، ويذكر بعض الفنانيين الذين يزورون المقهى باستمرار. مقابلة بتاريخ 2009/2/4م.

(3) ديغويلهم، القهوة، ص 41.

الغـــرف كـــان لها استعمال آخر، فلربما كانت تؤجر للوافدين أو الزوار العابرين، وبـــذلك يرافق المقهى دور آخر وهو الفندق، كما أن الغرف قد تستعمل للقاءات عاطفية[1].

(1) المصدر نفسه، ص 41.

III

النظرة للمقاهي
وفنونها وثقافاتها

لم تكن مقاهي دمشق التي توزعت في غالب أحيائها، مجرد مكان للترفيه والتسلية أو بناء عام وحسب، بل غدت مكاناً تجتمع فيه مختلف فئات المجتمع ويتجلى فيه الفعل اليومي[1]، دون ضوابط أو مرجعية، وعبر فضاءات المقاهي المفتوحة يتحول المكان إلى مجال بصري وسمعي يجد فيه الأفراد تعبيراً عن ثقافتهم، وساعد على هذا الإقبال رغبة الدمشقيين وولعهم بالتنزه والسيران، وهو ما ساهم بنقل القهوة إلى الحدائق والجنائن الخاصة والعامة، ولم يقف أمرها عند هذا الحد بل إن بعضها كان يقدم المسكرات وهو ما جعلها عرضة للنقد من قبل العلماء، كما أنها حسب مشاهدات الرحالة المستشرقين، فإن مرتاديها لم يعودوا من الرجال فقط، بل صارت النساء ترتادها ثم صار منظر النساء اللواتي يدخنَّ النرجيلة مألوفاً فيها.

- النظرة الأخلاقية للمقاهي

من خلال المصادر يتبين لنا أن النظرة إلى المقاهي أخذت مسارين: الأول يرى أن جلوس العلماء فيها يزيل الهيبة بسبب الاختلاط بالعامة، والثاني يرى أن جلوسهم في المقاهي يُظهر التقرب من العامة ويدلل على تواضعهم، والنظرة الأولى تكشف عنها ترجمة المرادي (ت: 1206هـ/1791م) للشيخ إبراهيم الجباوي حين يقول: "وكان الشيخ من الأولياء وأرباب الدولة وذهب للروم مراراً... كان متغفلاً يجلس على حوانيت القهوة ودابته فوقها رقعة الاعتبار وهيئة المدرسين فيصير العوام

(1) بن عبد العالي، عبد السلام، ثقافة الأذن وثقافة العين. دار توبقال للنشر، الطبعة الثانية، الدار البيضاء 2008م، ص 84.

وغيرهـــم يهـــزؤون به لأجل ذلك... وكان يجلس على حوانيت الأسواق. وكان يدور معهم في الشوارع مما أزال الاعتبار وهيبة المدرسين عنه"[1]، أما البديري فيرى أنه كان متواضعاً قريباً من العامة[2].

ويقف القاسمي، محمد سعيد (ت: 1284هـ/1876م). من المقاهي نظرة سلبية وقــد حمل على بعض مقاهي باب توما التي أخذت شكل الجنائن وانتقد الإسراف فيها يقول: "وعلى كل حال، فلا يدخل تلك القهاوي من كان ذا شهامة أو عقل أو ديــن، حــيث إنهــا مجمع الأسافل والأراذل، ويخبر الكثيرون بأن الداخل إليها يصرف نحواً من عشرين قرشاً، وهذا إذا تمسك بحبل الاقتصاد، وإلا إذا كان جواداً خيراً فإنه لا يكفيه المئات من القروش، نسأل الله السلامة، وحسن العاقبة. ويرحم الله الشيخ العلمي حيث يقول في نصيحته:

واحــذر دخــولك للقهــوات إن بها

جــل الفــواحش مــع كذب وغيبات

كــم قهــوة أصــبحت للهــو جامعةً

وكـــم بلايـــا لأهـــلِ الـــديانات

كمحـــنة شـــغلتهم عـــن بـــيوتهم

وعـــن صـــلاة وأوراد وطاعـــات[3]

وفي مقابـــل النظر إلى المقاهي على أنها وسيلة تسلية وترفيه للناس، نُظر إليها أيـــضاً باعتبارها مصدراً للفوضى وانعدام الأمن: ويبدو أنه في لحظات فلتان الأمن كانـــت المقاهي الخاسر الأكبر؛ لأنها تعرضت إلى الإغلاق في أكثر من حالة، يقول البديـــري: "... نـــادى أســـعد باشا حاكم الشم أن كل من شرب القهوة شنق وصلب ثم أمر برفعها من سائر قهاوي الشام وأسواقها.."[4].

---

(1) المرادي، سلك، ج1، ص 42.

(2) البديـــري، حوادث، ص 193، حيث لا يظهر البديري أية مؤاخذه لشيخ الجباوي في جلوسه في المقاهي. وحول آل الجباوي انظر: ابن كنّان، الحوادث، ص 498.

(3) القاسمي، قاموس، ص، 368.

(4) البديري، حوادث، ص 130. وقارن مع ابن طولون، حوادث دمشق، ص 357.

استمرت تلك النظرة السلبية إلى المقاهي ومرتاديها حتى بداية القرن العشرين وغالباً ما تمّ ربطها بالجهل أو غياب الدين، لكن في الوقت نفسه تقدم قصص الحكواتي التي تقال في المقاهي جانباً من القيم النبيلة مثل الكرم وحماية الجار والتضحية، وتنعى أوصافا مثل الخسة والبخل والخيانة إذ يصف كرد علي أحوال المقاهي ومرتاديها بقوله:

[.. ومن العادات القديمة التي نشأت من الأمية أيضاً سماع القصاص في المقاهي... وكان يجتمع في المقهى عدد يختلف بحسب المحل والقصاص، ويدعون القصاص "الحكواتي"، يتصدر في صدر المكان ويقرأ لهم غالباً القصص التي يرغبون فيها مثل رواية عنترة والزير وأبي زيد وهي روايات حماسية، تمثل الشجاعة والكرم والأنفة والحمية والوفاء والصدق والمروءة والجرأة وحفظ الذمام ورعاية الذمار والجار، إلى آخر ما هنالك من مكارم الأخلاق ينسبونها إلى أبطال الرواية، ويجعلون نهاية النصر لهم والدائرة على مناوئيهم، ويصفون الخصوم بالجبن والكذب والبخل والرياء والغدر والخيانة والنكث بالعهد، إلى آخر ما هنالك من مفاسد الأخلاق، مما يربي نفوس السامعين على حب الفضائل ويحبب إليهم العمل بها، ويبغض لهم النقائض ويحملهم على البعد عنها، وغالب من يجتمعون لسماع تلك الأقاصيص من طبقة العوام، وهم متصفون ببعض تلك الفضائل][1].

- تسلية المقاهي وحرفها

توفر المقاهي مدخلاً لدراسة الفنون الشعبية، لارتباطها بعادات وتقاليد تزامنت مع تقديم القهوة فيها وفي الجلسات العامة، أو من الحرف والصنائع التي عدت جزءاً من عملها وعلى رأسها صنعة الحكواتي، والتي ما زالت مستمرة إلى اليوم.

والمقهى هو الميدان الذي يمضي الرجال فيه ساعات غير قليلة، يلعبون النرد حيناً، أو الورق أو الضومنة "الدومينو" حيناً آخر[2]. وقد ظهر كمؤسسة اجتماعية مهمة في الحي الدمشقي، فقلما خلا حي من مقهيين أو ثلاثة على الأقل. وحوت مدينة دمشق أكثر من مئة مقهى تتفاوت حجماً وأهمية. وربما انزوى بعضها في مطارح لا ينتبه إليها إلا أبناء الحي أنفسهم. وضمت بعض المقاهي مكاناً للحلاق،

(1) كرد علي خطط، ج1 ص 286.

(2) العلاف، دمشق في مطلع القرن العشرين، ص 233.

الـــذي يأتيه الزبائن من صالة المقهى وأحياناً يتم الحجز وترتيب الدور لهم بالتعاون مـــع الـــنادلين الذين ينادون الزبائن كلما فرغ الحلاق من زبون، وكل ذلك يشير لشكل العلاقات الاجتماعية داخل مجتمع المقهى كما هو حال مقهى الروضة اليوم الذي يقدم به "ماهر بيرقدار" خدمة الحلاقة للزبائن[1].

كانـــت التـــسلية تـــتم بلعب المنقلة أو الورق، ويرافق ذلك سماع القصص الـــشعبـــي، وشرب القهوة والشاي[2] وفي أوائل القرن العشرين دخلت إليها "آلة الحكـــي أو الحاكـــي" التي يسمع الناس من خلالها الاسطوانات الموسيقية. ويشير القاسمـــي في قاموس الصناعات الشامية إلى أن شخصية القهوجي في المقهى توصف بوصف يتعدى كونه "قيم القهوة ومديرها" إلى ما يجعله أحد الشخصيات المساهمة في الترفيه والتسلية في مجتمع المدينة[3].

ومما يرتبط بالقهوة خدمة الدلالة التي يشير السجل الشرعي إلا أن هناك من كان مـــسؤولاً عـــن مباشرة خدمتها، ومما جاء فيه تعيين: "أحمد صادق بن أحمد في نصف خدمة الدلالة والوزان للأفران بدمشق وكامل خدمة الدلالة للبن بدمشق"[4].

تُعد شخصية الحكواتي من الناحية الفنية والثقافية، من أهم الشخصيات العاملة في المقاهـــي ولهـــا دور رئيس في إدارة المقهى، إذ يلزم الحكواتي أن يكون حافظاً للقـــصص، والملاحـــم والـــسير البطولية من التراث[5]. وإذا كانت بعض المقاهي

---

(1) مـــن زيـــارة لمقهـــى الروضة بتاريخ 2009/1/24م، والحلاق اسمه ماهر بيرقدار وكبير النادلين يـــنادونه أبـــو حكـــم، ويلاحـــظ في مقاهي دمشق اليوم أن حساب المشروبات منفصل عن خدمة الأراكيل وهو ما يبين أن هنالك من يتعهد خدمة تقديم الأركيلة، غير الذين يقدمون المشروبات.

(2) عبد الرحمن سامي بيك، القول الحق، ص 57.

(3) بالـــرغم مـــن أن نص القاسمي متأخر نسبياً عن فترة الدراسة إلا أنه يؤشر على طبيعة دور المقاهـــي كمرافق للتسلية والترفية والفنون الشعبية، يقول في وصف مهنة القهوجي: "ثم إن القهوجـــي يحـــتاج إلـــى أشـــياء لايـــتم أمر القهوة إلا بها، وهي عدة القهوة كنبات وكراس وطـــاولات، مـــع أصناف الملاهي من نرد وضومنا وشدة ورق وياردو ... وتقديم الأراكيل بمن يرغب الشرب بها..." القاسمي، قاموس، ج2، ص 367.

(4) سجل شرعي 79، حجة 519، ص 193، 14 رجب 1142هـ/1729م.

(5) ســـجل شـــرعي 130، حجـــة 551، ص 273، 15 جمادى الآخرة 1162هـ/1750م؛ لبديري، حوادث، ص ص 181، 36، 145، نعمان قساطلي، الروضة الغناء في دمشق الفيحاء، بيروت، ط 1، 1879م، ص 110؛ القاسمي، قاموس ج2، ص 299، وانظر: مارينو. مقاهي، ص 234.

الـصغيرة، تخلـو مـن الحكواتي، فإنه في بعض المقاهي كان سبباً لجذب الزبائن والـشهرة، كمقهى الوفرة الذي ما يزال للحكواتي رشيد الحلاق أبو شادي الذي يقـص القـصص دور فيه حتى الآن[1]. ومن مشاهير حكواتيي هذا المقهى يذكر الدمـشقيون عبد الحميد الهواري (1885 - 1956م) الشهير بابـي شاكر المنعش، والذي خلفه في الحرفة أبو شاكر صنوبر ثم أبو حاتم إبراهيم[2].

وإذا كان الساهرون يطربون يومذاك، وهم يصغون إلى الحكواتي، وهو يروي في أداء وحـركات تمثيلـية سيرة الزير سالم بروايتها الشعبية الشامية[3] وعنترة العبسي أو الظاهـر بيبرس أو حمزة البهلوان وعلي الزيبق وأبـي زيد الهلالي وسيف بن ذي يزن، فـإنهم من جانب آخر، كانوا يختلفون في الانتصار لهذا الجانب أو ذاك من شخصيات السيرة التي يسمعونها، وكان بين الحكواتية من يتخلى عن مكانه المخصص له في سدّة عالـية، فينـزل إلى الجمهور وقد أمسك بيده خيزرانة أو سيفاً، يلوح بها أو به، ضارباً مناضد الحضور، وهو يروي السيرة، في انفعال حار يريد نقله إلى الآخرين[4].

كـان الدمـشقيون في اختلافهم إلى المقاهي يتخيرون الحكواتي الذي توافق بـراعته وسـرعة بديهـته واسلوبه في الإلقاء وتصعيد حبكة الأحداث وحلها مع مـزاجهم، ويميلون إلى وسائل التشويق التي كان يلجأ إليها الحكواتيون، وقدرتهم على إنهاء الرواية، واختيار الموقف المناسب للبطل، وذلك بأن يستغل الفرصة ويحبك القصة في السيرة ويُصعد أحداثها إلى ان يتوقف عند عقدة يكون فيها بطل السيرة في موقف حرج[5].

ولم تكـن حرفة الحكواتي مقصورة على فئة معينة فإبراهيم بن محمد الشهير بالقاضـي الغزال (ت: 1088هـ/1766م)، برغم عمله كاتباً بالمحاكم، إلا أنه كان يمارس الغناء وكان بحسب ما يصفه المحبـي:

---

(1) لعبي، العمارة الذكورية، ص 147؛ البحرة، ليالي دمشق، ص 16.

(2) لمـا المـسالة، روائي لزمن الماضي هل يشبه اليوم، جريدة الثورة، 2 تشرين أول 2008م، العدد 13728، ص 7.

(3) حول سيرة الزير سالم الشعبية برواياتها الدمشقية وبلغتها الشعبية، انظر: مجهول، سيرة الزير سالم حسب إحدى المخطوطات السورية، المعهد الفرنسي للشرق الأوسط، دمشق، 2005م.

(4) البحرة، ليالي دمشق، ص 17.

(5) كبال، يا شام ص 17.

[.. حـسن المطارحـة لذيـذ المصاحبة كثير المجون والمداعبة صاحب نوادر عجيبة وحكايات مطربة..][1].

ومن أهم حكواتية دمشق في القرن الثاني عشر/الثامن عشر الميلادي، سليمان بن حشيش الحكواتي (ت: 1155هـ/1742م) الذي يبدو أنه كان ملماً بأكثر من لغـة وقد حظي باحترام المؤرخ الشعبـي أحمد البديري الحلاق، وأطلق عليه صفة المربـي، إلى جانب احترافه فن الحكاية، بخلفية صوفية ومما جاء عنه:

[.. تـوفي أبـونا ووالدنا وأستاذنا ومربينا سليمان بن الحشيش الحكواتي، كان فريد عـصره ووحـيد أوانه، وكان يحكي سيرة الظاهر وعنترة وسيف ونوادر غريبة في التركي والعربـي...][2].

أمـا الـنموذج الآخـر، فهو الذي يجتمع في ثقافته الإلمام بالشعر، وفهم أسـرار الـبلاغة، وحفظ أوراد المتصوفة. ويمثله أحمد بن عمر الحكواتي الحموي (ت: 1193هـ/1780م)، الذي يوصف بأنه:

[... نظـم الأشـعار والأزجال والموشحات والقصائد، وعمل في الكيمياء، ثم لازم المتـصوفة، وقرأ الدروس الخاصة في بيته، إلى جانب عمله في بيوت القهوة مع إبداء النوادر واللطائف.."[3].

ومـن الـذين يـشير إلـيهم الـسجل الشرعي "الحاج مصطفى بن فتح الله الحكـواتي"[4]. وبحـسب وصف أحمد حلمي العلاف للحكواتي نهاية العصر العثماني ومطلـع القرن العشرين فإن دور الحكواتي في التسلية يبرز أكثر في ليالي شهر رمضان، ويبدو أن انتشار الأمية ساعد على رواج ذلك النوع من التسلية الشفاهية المروية[5].

وإلى جانب الحكواتي ظهر ضاربو الآلات الموسيقية، الذين يتضح أنهم انتشروا في مقاهي دمشق وسمعهم العامة والخاصة وكان منهم اليهود والنصارى[6]. ويشار

---

(1) المحبي، خلاصة، ج1، ص 48.

(2) البديري، حوادث، ص 34. ويشير البديري إلى أنهم قدموا من حلب وكانوا من اليهود.

(3) المرادي، سلك، ج2، ص 155؛ القاسمي، قاموس، ج1، ص 112، وانظر سجل 143، حجة 732، ص 426، 15 ربـيع الأول 1134هـ/1721م "ادعـاء الحـاج مصطفى بن فتح الله الحكواتي على ابنه".

(4) سجل شرعي، 34، حجة 733، ص 426، 1134هـ/1721م.

(5) العلاف، دمشق، ص 78.

(6) البديري، حوادث، ص 95.

إلى انتشار عادة شرب "الأركيلة" في مرحلة الدراسة وظهر التغزل "بالاركيلة" في الــشعر العامي، وهذا ما يظهر في قصيدة عامية نظمها مجهول وأرخت في عام 1178هــ/1764م ومما جاء فيها:

وجاريـــة لطهمــاز ربـــية	مهـــندة التأصـــيل اعجمـــية
شــغفت بهــا زمــنا ثم عــادت	بهجــراني لهــا كالأجنبـــية
ومــن مــا سورة الدخان أضحى	فــؤادي هايمــا صــافي الطــرية
شكت جوحا وحنت نحو قوت	إذا مــا نحـــن ســرنا بالـــسوية
وهمــت بهــا وهمــت بــي وكنا	واضـــحت ذات بعـــد منكـــية
ولمـــا قـــيل دخـــاني وتبغـــي	وفـــرغنا الجـــراب والجـــرية
شــكت جــوحا وحنت نحو قوت	واضـــحت ذات بعـــد منكـــية
ولي نطــق يجــود بكــل مــشعر	ولي نغــم حكــا الــناي الشجية
ورأســي مــذهب لــون تــبر	مــن التنــباك والــنار تتقــيه
نــشأت بحجــر طهمــاز وأني	فـــتاة ذات حـــسن فارســـية
أنـــا النـــركيلة الحـــسنا نطقـــاً	أنـــام كــل ذي فطــن زكية(1)

لم تكـــن المقاهي في دمشق عامرة صيفاً فقط، بل اعتاد الدمشقيون ارتيادها شتاء أيضاً، وكانت مع مرور الوقت تتحول إلى ما هو أشبه بمنتدى اجتماعي يلتقي بـــه العـــوام والمثقفون والسياسيون وأعيان المجتمع، ولعل ذلك التغيير الذي أصاب وظـــيفة المقهـــى، وذلك بأنه لم يعد مجرد مكان للهو هو انعكاس لتحول جرى في حياة المجتمع الدمشقي منذ مطلع القرن العشرين وحتى اليوم. ويشير كرد علي إلى ذلك بقوله:

[.. ومـــن العـــادات الشائعة تعاطي القهوة والشاي في المقاهي العامة شتاءً، وأنواع المـــرطبات صيفاً، والتدخين بالتبغ والنارجيلة على الدوام، وتكون صورة اجتماعهم حـــسب طبقاتهم، ويرتادون أماكن سمرهم هذا، بعد العشاء حين الانتهاء من مزاولة

---

(1) مجهـــول، قـــصيدة فـــي مدح الأركيلة، مخطوط رقم 6945/3884 الظاهرية، مكتبة الأسد، دمشق، ق34ب، والقصيدة في 28 بيتاً.

الأشـــغال وطلب الراحة. وأحاديثهم غالباً تدور على السياسة وفي موضوعات علمية واجتماعـــية يمـــتدحون فلاناً لمكرمة أتاها، ويذمون فلاناً لنقيصة بدرت منه. ارتقت أحاديثهم في هذا القرن إلى الخوض في هذه الشؤون العامة، ولم تكن في القرن الماضي تـــتعدى أحاديث البطون والفروج إلا قليلاً. ومنهم من يقضي سمره ببعض الألعاب الشائعة كالشطرنج والبلياردو والدومينة والداما والنرد وألعاب الورق على اختلاف أشكالها وأسمائها...][1].

لا يـــوجد الكثير في المصادر عن حديث المقاهي وأوصافها بيد أن الذكريات الشخـــصية تساعد على ملء هذه الفجوات. وعلى سبيل المثال، ووفقاً لذكريات أحد الدمشقيين، ففي مقهى كريستين، في حي المرجة بدمشق، الذي اكتسب تسميته من الراقصة والمغنية الأرمنية، كان الاستمتاع برقص مدام كريستين والاستماع إلى أغانـــيها في المقهى (الذي يملكه زوجها) شيئاً محبوباً جداً بين البرجوازيين، في حين لايملك الآخرون تكاليف الدخول[2].

(1) كرد علي خطط، ج1 ص 287.

(2) ديغويلهم، القهوة في دمشق. ص 3.

الفصل الخامس

الحمامات.. عوالم ذكورية وخصوصيات أنثوية

مــثل الحمام الدمشقي عاملاً فاعلاً في ثقافة الترفيه، فهو من جهة خدمية مكان للنظافة العامة، لكنه من الناحية الثقافية يؤدي وظيفة تواصلية بين مختلف شــرائح المجــتمع الدمــشقي، ومن ناحية ترفيهية هو المكان الذي يمارس فيه الدمــشقيون نوعاً من الترفيه عبر مساحة مادية مرت عليها أزمنة متعاقبة حتى أخــذت سماتهــا البنائية التي تمدنا بقيمة اجتماعية وثقافية على مستوى التمثيل الثقافي لحياة المجتمع.

تظهــر الحمامــات الدمــشقية هنا كمجال للترفيه، ومحل اهتمام وعناية المــؤرخين والباحــثين، إنها المجال الحيوي الذي نظر من خلاله مؤرخو المدينة وكتاب الخطط والرحلات إلى المجتمع، وهي برغم عموميتها في الوظيفة إلا أنها تــشكل حالة نادرة من الخصوصية التي استطاعت المرأة الدمشقية أن تتساوى فيها مع الرجل.

لا يمكــن لمؤرخ الثقافة أن يتجاهل الحمام، وبالتأكيد تمدنا أسماء الأقسام العمــرانية البراني والوسطاني والجواني بدلالات قابلة للتأويل، وعلى هذا تأخذ بعض مفردات الحمام وأدواته من الأشربة والطاسه والجرن والمشلح.. الخ تمثلاتها الثقافــية وهي بالتأكيد تعتمد على تفرقة نوعية تؤدي بها الأدوات والمفردات دوراً يحــدده مجال الاختيار الذي يرغب بالراحة والترفيه سواء عند الرجل أو المرأة.

في دمــشق يكــون الباحث أمام تراث بنائي كبير من الحمامات، أغلب مــا ذكــر مــنها في طــريقه للزوال أو التخلي عن دوره، وقلة منها مازالت عاملة، لكن موروث الحمام غني برواياته وحكايته وحتى في دوره الاجتماعي والثقافي.

I

الحمامات الدمشقية

في المصادر والدراسات التاريخية

يذكر المؤرخون الدمشقيون الحمامات بشكل مفصل[1]، فقد أشار ابن عساكر (ت: 571هـ/1175م)، إلى سبع وخمسين حماماً[2]. وذكر ابن شداد (ت: 684هـ/1285م) في كتابه الأعلاق الخطيرة ما جاء عند ابن عساكر وزاد عليها حتى بلغت خمسة وثمانين حماماً، وأضاف إليها الحمامات التي انتشرت خارج سور المدينة، وبذلك وجد في عصر ابن شداد نحو مئة وسبعة عشر حماماً.

وبلغت الحمامات عند أبي علي الأربلي (ت: 726هـ/1328م)، مئة وسبعة وثلاثين حماماً منها أربع وسبعون داخل دمشق، وفي القرن العاشر الهجري، ذكر ابن عبد الهادي (ت: 909هـ/1503م) في رسالته "عدة الملمات" مئة وواحداً وثمانين حمام، في دمشق وغوطتها[3].

وفي العصر العثماني لقيت الحمامات اهتماماً من جانب الولاة، إذ يذكر معاصر ابن عبد الهادي، عبد القادر النعيمي الدمشقي (ت: 927هـ/1520م)، في كتابه الدارس في تاريخ المدارس ستة وثلاثين حماماً. أما محمد بن طولون الصالحي

---

(1) شيدت الحمامات في بلاد الشام خلال الفترة الأموية(41-132هـ/661-750م) وركز الأمويون على إقامة العديد من المنشآت العامة في البادية ومن أبرزها حمام قصير عمره، الذي أجريت حوله العديد من الدراسات ومن آخرها دراسة، كلود فيير غيغ وغازي بيشه بمشاركة فريدرك إمبر، رسومات قصير عمره حمام أموي في البادية الأردنية، المعهد الفرنسي للشرق الأدنى، عمان بيروت دمشق، 2007م، ص 21.

(2) قام منير كيال بإحصاء عدد الحمامات في مصادر الخطط وتاريخ دمشق، وحصرها. انظر منير كيال، الحمامات الدمشقية وتقاليدها، دمشق، 1964م، ص ص 8-58.

(3) ابن المبرد، يوسف بن عبد الهادي (ت: 909هـ/1503م) كتاب عدة الملمات في تعداد الحمامات، تحقيق، صلاح محمد الخيمي، دار ابن كثير، ط 1. دمشق بيروت، 1988م، ص 36-53.

(ت: 953هـ/1546م) فذكر أحد عشر حماماً من حمامات الصالحية، وفي نفس الحي أشار ابن كنّان الصالحي (ت: 1153هـ/1740م) عشرين حماماً إضافة إلى ثلاثة في المنازل.

ومن أوجه عناية الولاة بالحمامات ما يشير إليه محمد أمين المحبي (ت: 1111هـ/1699م) من أن مصطفى باشا[1] "عمّر الحمام الموجود في سوق السروجية"[2]، وهناك الحمام الذي بناه إبراهيم باشا ابن عبد المنان (ت: 1043 هـ/1633م) "قرب تربة السلطان صلاح الدين بن أيوب، بجانب داره التي كان يسكنها" وقد أوقف الوالي لمذكور ريع الحمام على تدريس الفقه[3].

ولم يقتصر الاهتمام بالحمامات من ناحية البناء والترميم فقط، في العصر العثماني، فالمحبي يشير إلى رسالة في الحمام ألفها الحكيم داود بن عمر الأنطاكي (ت: 1008هـ/1599م)، والتي تداولها علماء دمشق[4].

ويذكر ابن كنان الصالحي في النصف الأول من القرن 12هـ/18م، أخباراً متصلة بالحمامات من حيث أسماء منشئيها أو عمليات الإصلاح والبناء التي حدثت لها، ومنها حمام الخراب الذي أفتتحه إسماعيل باشا العظم سنة 1141هـ/1728م وجاء في الخبر: ".. وفي يوم الجمعة أول محرم فُتح الحمام في محلة الخراب الذي أنشأه الباشا وطلع في غاية الحسن والنظارة"[5] ويشير ابن كنان إلى حمام ملكة

---

(1) هو لالا مصطفى باشا تولى دمشق سنة 971هـ/1563م اشتهر باهتمامه بالتعمير والترميم ومن عمارته "خان مصطفى لالا تحت قلعة دمشق"، وظل واليا حتى سنة 976هـ/1568م. انظر: لمقار، الباشاة والقصاة، ص 15.

(2) المحبي، خلاصة، ج1، ص 18، وقد وصفه ابن كبريت عندما زار دمشق بقوله: ومن محاسن دمشق حمام مصطفى باشا، فإنه لا نظير له في تلك الأقطار ولا مداني من حسن المباني:

زين الشام وحق العمد	حُسن حمام كثير العدد
لا ترى في سائر الدنيا له	ثانياً لا والإله الأحد
حار عقلي لجحيم جنّة	بل نعيم فيه عيش رغد

انظر: ابن كبريت، رحلة الشتاء والصيف، ص 224.

(3) المحبي، خلاصة، ج2، ص 30.

(4) المحبي، خلاصة، ج2، ص 42.

(5) ابن كنن، الحوادث، ص 389.

الذي عده" من أحسن حمامات الشام"[1]. ويذكر أربعة عشر حماما في حوادثه[2].

ويتابع بعض الحمامات من حيث جهات الوقف التابعة لها وقيمة الاستثمار فيها، ومن ذلك متابعته لحمام ملكة في سنة 1136هـ/1723م بقوله: "وفيه تمّ الحمام شمالي الدرويشية وقبلي السرايا وغربي الأخصاصية وهو وقف على الحرمين الشريفين واستأجره المستأجر بإحدى عشرة ماية مدة سنة وأوقفه آغة البنات بالروم"[3].

وذكر نعمان قساطلي عام 1860م ثمانية وخمسين حماماً في أنحاء دمشق وكان أشهرها حمام الخياطين وحمام القيشاني وحمام النوفرة وحمام المسك الذي وصف آنذاك بأنه "أتقن الحمامات وأجملها"[4] إلى جانب حمام الخراب وحمام البكري وحمام الشيخ رسلان، وورد عنه عبد الرحمن سامي بيك الذي زار دمشق سنة 1890م، ثمان وخمسون حماماً، كانت منتشرة في تلك السنة" وكان أشهرها حمام القيشاني وحمام الخياطين وحمام النوفرة..."[5].

وعني الباحثون المعاصرون بدراسة الحمامات، فقد أشار ميشيل إيكوشار وكلود لوكور في دراستهما إلى أن دمشق عام 1940م، كان يتوزعها ستون

---

(1) ابن كنان، حوادث، ص 361. وفيه قلع بلاط في مقصورة الحمام الجديد، شمال الدرويشية، والسبب أنهم أحموا الحمام بزيادة، وهو من أحسن حمامات دمشق".

(2) الحمامات التي ورد ذكرها هي: حمام الباسطية وحمام الحاجب وحمام إسماعيل العظم بالخراب وحمام سليمان العظم وحمام الخياطين وحمام الذهبية وحمام ركاب وحمام السكري وحمام وحمام السلسة الصغير وحمام السلسلة الكبير وحمام عُليمة بالعفيف وحمام الكاس وحمام المرادنية بسوق مدحت باشا وحمام ملكة. انظر ابن كنان، الحوادث، ص ص 31، 39، 40، 178، 237، 300، 359، 378، 385، 389، 416، 456، 500. ومما يذكره عن حمام المردانية: "وفي أوله -محرم 1148- فتح الحمام الذي أنشأه سليمان باشا على غربي قيسارية بهرام شؤقي السنانية عند سوق الجديد.." ص 465.

(3) ابن كنان، حوادث، ص 359.

(4) نعمان أفندي القساطلي، الروضة الغناء في دمشق الفيحاء، مختارات، سلسلة كتاب البعث، الكتاب الأول، 2008م، ص 69.

(5) عبد الرحمن سامي بيك، القول الحق، ص 94. وهذا الحمام تحول اليوم إلى مقهى يقابل مقهى النوفرة.

حماماً[1]، وفي عام 1947م، ذكر صلاح الدين المنجد ثمانية وعشرين حماماً عاملاً[2]، وأشار منير كيال عام 1964م إلى وجود تسعة وعشرين حماماً عاملاً[3] وقد بحث يوسف نعيسة (1986م) في وجود الحمامات وانتشارها، معتمدا على كتاب منير كيال[4]، إلى جانب ما رصده لعدد من الحمامات الوارد ذكرها في السجلات الشرعية[5].

وتابع أكرم العلبي (1989م) دراسة الحمامات الدمشقية عبر القرون، إلى جانب المسح الذي قام به العلبي حول الحمامات التي كانت موجودة وما زال بعضها عاملا حتى اليوم. قد اختار الحمامات التي كانت تعود إلى مئة عام من لحظة إعداد دراسته (1989م) وميز ستة عشر حماماً عاملاً[6].

---

(1) ميشيل ايكوشار وكلود لوكور، حمامات دمشق، ترجمة، ممدوح الزركلي، ونزيه الكواكبي، ج1، 1985م، مطبوعات نقابة المهندسين، دمشق، ج1، ص 61- 63.

(2) كيال، حمامات، ص 57- 58.

(3) المصدر السابق، ص 60- 107.

(4) نعيسة، مجتمع مدينة دمشق، ج1، ص 122- 123.

(5) المصدر السابق، ج2، ص 124- 127.

(6) أكرم العلبي، خطط دمشق، دار الطباع، 1989م، ص . ص 493- 538.

II

بنية الحمام وأقسامه

لا تتبع الحمامات تصميماً هندسياً موحداً في مظهرها الخارجي، فأجزاء الحمام متنوعة التصميم وتتلاءم غالباً مع شروط الأرض التي بنيت عليها. غير أن ترتيب حجرات الحمام، أخذ في طابعه الجانب البيئي والوظيفي ودرجة الحرارة والتهوية، ولكن يغلب على الحمامات الدمشقية أنها تقسم إلى أجزاء بحسب دورها ومراحل الاستحمام والحرارة والتهوية وهي:

1. البراني (المشلح). وهو أول جزء يدخله الزبون وهو عبارة عن باحة مسقوفة بعقود تتلاقى في قبة تصطف في جوانبها النوافذ الملونة بالزجاج[1]، وفي أعلاها رقبة مشكلة ما يشبه المنور أو البرج، ويتخذ البراني شكلاً رباعياً تنتصب في وسطه بحرة من الرخام الملون المجموع على أشكال هندسية وفي وسطها نافورة تنطلق منها المياه. وغالباً ما تتزين الجدران بالصور والسجاد والآيات القرآنية والثريات تحت كل قوس مسطبة مفروشة بالآرائك، وعليها المساند المحشوة بالقطن وهي مغلقة بالدامسكو ومجللة بالفوط والمناشف، وعلى المساطب يخلع الزبائن ملابسهم ويستريحون بعد الاستحمام حيث يتناولون الشراب الساخن، ليعوض برودة الجسم عند خروجه ويكون البراني أبرد أقسام الحمامات[2].

وفي هذا الفضاء يمكن للزبائن الجلوس بعد الغسل لشرب الشاي أو الدارسين والمليسه، وتكون جدران هذا الفضاء، وبخاصة في حمامات الأغنياء، مزوقة بالرسومات الملونة، لكي تضفي البهجة للناظر. وفي حال وجود ما يدعى بغسلة العريس (أو لعروس)، يقام في هذا الفضاء نوع من "حفلة الزفة"، وهنا يتم الغناء والعزف على الطبلة، وكذلك الرقص والمزاح بين المجتمعين من أهالي

---

(1) انظر: عفيف البهنسي، العمارة في العثماني، مجلة المعرفة، العدد 541، تشرين أول 2008م، وزارة الثقافة دمشق، ص 47.

(2) كيال، الحمامات، ص 158- 159.

وأقـــارب العريس، وحتى في خروج المحتفلين قد يدعى عازف الطبل والمزمار لغاية بلوغ العريس إلى داره[1].

2. الوســـطاني (الفاتر). تكون درجة حرارته أعلى بقليل من البراني، ويدخل إليه عـــبر دهليـــز، وهـــو أعلى أقسام الوسطاني الأول والذي يتخلله المراحيض، والوســـطاني الثاني والثالث، وهما مختلفان في درحة حرارتهما وفيهما مساطب خـــشبية للراحة وفي مدخل أحدهما مقصورة لإزالة الشعر. وفي الوسطاني يمر ممـــشى مـــبلط بـــبلاطات حجرية سوداء ووردية يمر من تحتها الدخان وبقايا الحرارة التي تسخن المدء، ويسمى هذا الممر بيت النار وعلى جانبـــي بيت النار يوجد إيوانان يحوي كل منهما أجراناً عليها صنابر للمياه الساخنة والباردة.

3. الجـــواني (الحـــار). وهو القسم الداخلي من الحمام ويتألف من ممشى أوسط يسمى بيت النار وهو أشد حرارة من الوسطاني وعلى جانبيه إيوانان تتصدرهما الأجـــران التي تتدفق إليها المياه الحارة والباردة وعلى جانبـــي كل إيوان. وفي صدره تنفتح أبواب ذات أقواس معقودة من الآجر أو الحجر مزينة بنقوش من الجص، والمقصورة عبارة عن غرفة صغيرة فيها جرن أو أكثر وتتسع لشخصين أو ثلاثـــة، وجدرانها مغطاة بالكلسة العربية (المكونة من لبن الكلس والشيد) وقشر القنب المفروم ومن القصرمل. أما الأرض فهي مبلطة بحجارة سوداء أو ورديـــة ويـــدفأ الجواني برش الماء البارد على بلاط بيت النار فيتصاعد البخار وتتـــراود الـــرطوبة ويدفأ الجو[2] وهذا الجزء مقسم إلى خانات صغيرة مزودة بأحواض للماء، وأنابيب الماء الحار والبارد، وطاسات معدنية تستخدم لسكب الماء على الجسم، وكذلك لمناداة صانع الحمام خلال ضربها على الأرض، لكي يأتي بوزرة ناشفة للزبون قبل خروجه من ذلك الفضاء. وقد تستخدم الطاسة، كـــذلك في بعـــض الأحيان بضربها على الأرض على شكل إيقاع لصاحب الأغنية، إن كان هناك جماعة من أهل الطرب في مناسبة العرس. وفي وسط هذا الفضاء، هناك صخرة مرتفعة دائرية كبيرة (بارتفاع ما يقارب 70سم)، يجلس

---

(1) انظر، قاسم بياتلي، ذاكرة الجسد، في التراث الشرقي الإسلامي: الرقص والفنون، والعرض الفني، ط1، دار الكنوز، بيروت، 2006م، ص 89.

(2) كيال، الحمامات، ص 163، قساطلي، الروضة الغناء، ص 69.

عليها الزبائن بين الحين والآخر للتلذذ بحرارتها، والبقاء أطول مدة في ذلك الجو الحار[1].

4. القمـــيم. وهو الجناح الخارجي من الحمام ويتألف من مدخل يؤدي إلى باب فـــوقه عادة قوس حجرية، ثم هو محاط بجدران على شكل أقواس ويضم هذا الجزء الخزانة والتنور (الموقد)، ودار القميمي والمنشر.
5. الخزانة. وهي حجرة وبسقفها قبة منخفضة تساعد على عدم تبريد بخار الماء.
6. الموقد. ويوجد في القسم الداخلي فوهة لإيقاد الوقود، ويتم ذلك بواسطة أداة طويلة عن طريق درج، وبعد أن تشعل النار تغلق تلك الفوهة بإحكام[2].

(1) نعيسه، مجتمع، ج 1، ص 126؛ بياتلي، ذاكرة، ص 90.

(2) كيال، الحمامات، ج2، ص 165- 166؛ نعيسة، مجتمع، ج1، ص 129-130.

III

الحمامات في النصوص التراثية

للحمامـــات في المديـــنة الإسلامية دور ترفيهي وديني، لذا خضعت لإشراف المحتـــسب الذي كان يتفقدها مراراً، ويأمر أصحابها بإصلاح ما خرب منها ونضح مائها، وغسل الحمام وكنسه وتنظيفه بالماء الطاهر[1].

ومُـــنح المحتـــسب الحـــق بمـــراقبة وتفقد أبواب حمام النساء بحسب ما يرى الفقهاء[2]. وبحسب رسالة ابن عبد الهادي (ت: 909هـ/1503م) في الحسبة: فإن الاحتـــساب علـــى طائفة الحمامية يكون عليهم في: "الأمانة والنظافة والسخونة والرفق بالناس"[3].

لم يقتـــصر اهتمام الفقهاء بأحكام العمل في الحمامات إذ وضعوا مواصفات لأفـــضل الحمامـــات ومـــنها: أن تتوسط المدينة، وأن لا تكون مصارف الماء فيها واسعة مستقلة، ليؤمن عليها من الاختناق و"أفضلها ماءً ما قل عمق بئرها"[4].

---

(1) عبد الرحمن بن نصر الشيزري (ت: 589هـ/1193م) نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت، ط2، 1981م، ص 87. وقد خضعت الحمامات في كـل الحواضر العربية الإسلامية لنفس الأحكام، قارن حديثنا هنا بالحديث عن حمامات بغداد في دراسة، بدري، محمد فهد، الحمامات العامة في بغداد في القرن الخامس الهجري، مطبعة الإرشاد 1976م.

(2) الشيزري، نهاية الرتبة، ص 109، وانظر: أبو الفضل جعفر بن علي الدمشقي (كان حياً سنة 570هـ/1174م)، الإشارة إلى محاسن التجارة، مطبعة المؤيد، القاهرة، 1318هـ، ص 25.

(3) ابـن المبرد جمال الدين يوسف بن عبد الهادي (ت: 909هـ/1503م) كتاب الحسبة في تعداد صنّاع دمشق وباعتها في القرن العاشرة للهجرة، منشور في الخزانة الشرقية، حبيب الزيات، السنة الأولى الجزء الأول 1936، وأعيد نشره في مجلد الخزانة الشرقية، الطبعة 2، مطبعة القديس بولس في حريصاً، مكتبة السائح، طرابلس، 1999م، ص-ص: 126-132.

(4) الغزولي، علاء الدين علي بن عبدالله البهائي، مطالع البدور في منازل السرور، ط1، مطبعة إدارة الوطن، 1300هـ/1883م، النسخة المعتمدة طبعة حجرية مكتبة الجامعة الأردنية، ج2، ص 5.

وتمتد المفاضلة بين الحمامات، لنجد أن القديم منها والكثير الأضواء، والمرتفع السقوف، و"الواسع البيوت هو الأفضل، وأعلاها مرتبة الحمام العذب الماء الطيب الـــرائحة، ويجب أن لا تكون حرارته بقدر مزاج الداخل إليه وأن لا يكون الفناء متسعاً لأن أبخرة الحمام رديئة وكثيرة، فإن ذلك معين على تقليل حرّ أبخرها"[1].

وفي بـــاب المفاضـــلة بين الحمامات يمدنا نص أبـــي الفضل الدمشقي (من رجال القرن 6هـــ/12م) ببيان المواصفات الفنية في بناء الحمامات من حيث قنوات المـــاء فيها واتساعها وتوسط بيوتها وشكل مخلعها وقمينها، ونوع الماء الذي تتزود به، إذ يقول أبو الفضل الدمشقي:

[.. وأفـــضلها للمالك ما توسط العمارة وكانت مصارف الماء واسعة مستقلة ليؤمن عليها من الاختناق وكانت بيوتها متوسطة مكتنـــزة ليعمل فيها الوقود، وكان مخلعها وقمينها واسعين ليمكن ادخار الكثير من الوقود لها، وإن كان ماؤها بدولاب فما قلّ عمـــق بئـــرها فهـــي أفضل، وإن كان ماؤها جارياً فما قرب من جهة الماء ومعظمه، والحمامات مكروهة..][2]

ومـــن حـــيث الوظيفة يؤدي الحمام دوراً بالنسبة للرجال والنساء، لكن في النـــصوص التـــراثية يمكن الاستنتاج أن الحمام بشكله ورسوماته وزخرفته يميل إلى خدمـــة عالم الرجل وغرائزه وشهواته، أما مواصفات الحمام الأفضل لعالم الرجل فهـــو الحمام الذي يحوي الصور التي تكون في غاية الحُسن والجمال، والتي تكون على هيئات مختلفة لناس في نومهم، وقد وصف الغزولي ذلك بقوله:

[وهـــم بـــين فاعل ومفعول، إذ نظر إليهم الإنسان تتحرك شهوته قال الخادم هذا ضعوه هكـــذا لمخدومي حتى إذا نظر إلى ما يفعله بعضهم مع بعض تتحرك شهوته سريعاً فيبادر إلى مجامعـــة مـــن يحب، قال: وهذه الخلوة دون سائر الخلوات التي رأيت مخصوصة بهذا الفعـــل، إذا أراد المخـــدوم أن يجتمع بأحد مماليكه وخدمة الحسان أو جواريه أو نسائه في الحمـــام ما يجتمع به إلا في هذه الخلوة، فإنه لما يرى كل محاسن الصور الجميلة مصورة في الحائط ومجسمة بين يديه يرى كلّ واحد منهما صاحبه على هذه الصفة ...][3]

---

(1) الغزولـــي، مطالـــع البدور، ج2، ص 124. وانظر أيضاً خالد عزب، تخطيط وعمارة المدن الإسلامية: سلسلة كتاب الأمة، العدد 58، 1418هـــ، الدوحة، ص 110- 111.

(2) الدمـــشقي، أبـــو الفضل جعفر بن علي (من رجال القرن 6هـــ/12م) الإشارة إلى محاسن التجارة وغشوش المُدلسين فيها، تحقيق محمود الأرناؤوط، دار صادر ط1، بيروت، 1999م، ص 48-49.

(3) الغزولي، مطالع، ج2، ص 11.

وتحضر الحمامات في الشعر من باب إظهار المفاضلة ومن ذلك ما قاله الشيخ جمال الدين بن نباته[1] مفاضلاً بين حمامات مصر وحمامات الشام:

أحـــواض حمامـــات شـــأم تـــــسمعي في كلمـــــتين

لا تذكـــري أحـــواض مصر فأنـــــــت دون القلـــــتين

ومـــا قالـــه الـــشيخ عز الدين الموصلي معاكساً الشيخ جمال الدين بن نباته المصري:

إلـــيك حياض حمامات مصر ولا تتكـــبري عـــندي يمـــين

حياض الشام أحلى منك ماءً وأطهـــر وهي دون القلتين[2]

---

(1) شـــاعر العصر المملوكي أبو بكر جمال الدين محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن الحسن الجذامـــي التميمـــي المصري. ولد سنة 686هـ/1287م، ومن المناصب التي تولاها، نظارة القمامة أيام حج النصارى، وكان صاحب سر السلطان الناصر حسن. توفي في القاهرة سنة 768هـ/1367م، وله ديوان شعر، وكتاب سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون، وسجع المطوق وغيرها من المؤلفات.

(2) الغزولي، مطالع، ج2، ص 11- 12.

IIII

الحمام فضاء للترفيه

تعامـــل الدمـــشقيون مع الحمام كمرفق اجتماعي ذي طابع ترفيهي، واعتاد أصحاب الحمامات ومشغليها أن يستأجر الأثرياء من الحمام المشلح والمقصورة أو عدة مقامير، لساعات من بعد الظهر أو المساء، وكانوا يؤمونها مع عائلاتهم أو مع أصـــدقائهم المدعـــوين خصيـــصاً للاستحمام[1]، أما الزبائن الشعبيون فقد التزموا مداومة الحضور للحمام، في أوقات فراغهم.

وغالـــباً ما يكون الحمام محطة هامة من محطات الريفيين القادمين إلى دمشق لهدف تجاري، فقد توفي حسن بن محمد الديرماكري في أحد الحمامات مختنقا بعد أن قـــدم لدمشق وباع محصوله وقبل أن يهمّ بالعودة لقريته - دير ماكر[2] - دخل أحد الحمامات واختنق في الجزء الجواني منه[3].

ويرسم أبو الفضل الدمشقي في وصفه للحمامات طبيعة عمل أصحابها، وهو يكـــشف عن طبيعة العلاقة التي يجب أن تكون عليها علاقة صاحب الحمام أي من عقارات الاستراحة فيقول:

> [.. والحمامـــات مكـــروهة عند محبـــي الخمول لاشتهار اسم صاحبها وكذلك أيضا الفـــنادق والأرحـــية وجميع الأربع من الحوانيت وغيرها، فيجب على مالكها أن يتولى اســـتخراج الأجـــرة بنفـــسه لـــيأمن مـــن اكتساب العداوة والبغضاء من السكان، والاســـتخراج إنما يكون هو انتزاع الأرواح وإخراج الضغائن قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الحَيَاةُ

---

(1) إيكوشار ولوكور، حمامات دمشق، ص 49.

(2) قـــرية في حوض نهر الأعوج تتبع ناحية سعسع، وعدد سكانها نحو 900 نسمة، وترتفع عن سطح البحر 870م. مصطفى طلاس، المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري، ط1، 5 مج، مركز الدراسات العسكرية، دمشق، 1993م، مجلد3، مادة دير ماكر، ص 413.

(3) ســـجل 357، حجه 244، ص 135، 4 جمادى الأولى 1255هـــ/1839م." لدى مولانا حضر علي القميمي ... وعمر المكيس العاملان في حمام مصطفى باشا، وأفادا بأن المذكور حسن بن محمد العرطوزي الإقامة توفي مختنقا بعد أن دخل الجواني، وانه أتى للحمام بعد أن باع بضاعته في السوق وكان معه بضع حاجيات.."

الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ * إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ﴾ ولكن يندب لذلك متولياً وينسب أنه متقبل أو ضامن لتعود اللائمة والتشكي لذلك دونه، وإن أتى إليه من السكان من يشتكي فقراً أو متضرراً أرفقه وسامحه أو من يسال النصرة أجابه وأحسن عشرته..][1]

بقدر ما يحمل نص الدمشقي من معطيات سيكولوجية وسوسيولوجية في التعامل بين الزبائن ومالكي الحمامات وغيرها من مباني ومرافق الاستراحة، إلا أن مجتمع الحمامات يختصر الصورة العامة لسكان دمشق الذين يتوحدون في هذا المكان دونما فوارق في الفئة أو المنزلة الاجتماعية، فمن يدخل إليها اليوم وقديماً يجد فيها الأغنياء والأعيان والفقراء والوافدين. إنها تمدنا بمشهد واضح حول مكونات المدينة وثقافتها، ففي الحمام ترى سواد الناس بمختلف ألوانهم ممن تخلفوا عن السوق[2]، الذين يأتزرون اللباس المحلي وإلى جانب الشيوخ وبعض الرجال اليافعين قد تجد الصبية الصغار.

ويزداد إقبال الناس على الحمام عندما يكون محبوساً لجهة وقف (ذري أو خيري)، ومثال ذلك حمام فتحي أفندي الفلاقنسي[3] الدفتر دار ".. الذي عمره في حي الميدان[4] المسمى باسمه"[5] وأوقف عليه جرايات، وكان المرء يستحمم فيه

---

(1) الدمشقي، الإشارة، ص 49.

(2) المصدر السابق، ج 49.

(3) هو فتحي بن محمد الفلاقنسي الأصل الدمشقي المولد، كان دفتردار دمشق إبان ولاية أسعد باشا العظم، اشتهر باهتمامه بالتعمير والإنشاءات ومنها عمارته المدرسة الفتحية في حارة القيمرية، وكان يصطحب العلماء وأهل الأدب، وناقس والي دمشق أسعد باشا بذلك. اشتهر بقسوته، توفي مقتولا بعد محاكمته سنة 1159هـ/1746م. ويذكر البديري أن علماء دمشق احتجوا على مفاسده في شهر رجب 1157هـ وأنه كان محسوباً على الجند اليرلية ويشرب الخمر . انظر: البديري، حوادث، ص 60؛ المرادي سلك، ج3، ص 279-287.

(4) امتدّ حي الميدان إلى الجنوب من دمشق، وشهد نمواً ملحوظاً في القرن الثامن عشر، وضم خلال القرنيين السادس والسابع عشر الميلاديين ثلاثة أقسام الميدان الفوقاني والوسطاني والتحتاني وكان يسكن المنطقة أغلب الوافدين إلى دمشق من جنوب الشام أو من كان يستقر بالمنطقة من الحجاج، ويوجد في ميدان الحصى حمام بيدمر وحمام مستجد. انظر: ابن طولون، مفاكهة ج1، ص 156، 181؛ ابن عبد الهادي، عدة الملمات، ص 47. وحول حي الميدان انظر دراسة بريجيت مارينو.

Marino, B Le Faubourg du Midan a Damas a Le'Epoque Ottomane (1742-1830) Institut Francais Arab de Damas. 1997.

(5) البديري، حوادث، ص 30.

من دون مقابل ويأكل قرصين من الصفيحة[1]، وهناك حمام القاضي محب الدين[2] الذي كان متولياً عليه سنة 1210هـ/1795م الشيخ عبد الرحمن بن حسين المرادي (ت: 1218هـ/1803م)[3].

ويعد ذهاب النساء إلى الحمام الدمشقي جزءاً من الثقافة الدمشقية وكنّ يأتين إلى الحمام بكامل زينتهن مع حاشيتهن، وغالباً ما يُعد لهن الحمام مسبقاً ويصطحبن معهن في بعض الأحيان المغنيات، خاصة إذا كُنّ قد قمن بحجز الحمام لهن ولصديقاتهن وقريباتهن مسبقاً[4].

- عالم ذكوري وخصوصيات نسائية

إذا سلمنا بأن كل شيء نص، وكل شيء لغة، فلنا أن نتخيل ما يقدمه الحمام في سياق الحديث عن علاقة النساء به ثقافياً، فالبيوت الدمشقية محافظة في ثقافتها في العصر العثماني وحتى اليوم. لذا يبدو الحمام هو المكان الوحيد الذي تكشف فيه الدمشقية جسدها بالمعنى الحرفي، وهو وسيلة للتثاقف النسوي المنظم والذي يتم بمواعيد محددة، هذه التثاقفية التي يبدو الجسد عنوانها ونصها المكون، تكشف عن مفارقة كانت تحدث بين موقع المرأة في البيت وهي محافظة، إلى امرأة تجتهد في عرض مفاتن جسدها الذي ربما ينتقل تفاصيله فينوي من ينتظر الخبر عن صحة الجسد وجماله الزواج بهذه أو تلك.

وفيما يلتقي الرجال نهاراً أو ليلاً في المقهى، فقد أتيح للنساء الدمشقيات وهن محرومات من المقاهي، أن يذهبن إلى الحمامات وكان يطيب لهن اللقاء، حيث يغسلن أطفالهن ويلتقين بصديقاتهن ويعرضن بناتهن المناسبات للزواج[5].

---

(1) نعيسة، مجتمع، ج1، ص 122.

(2) يقع هذا الحمام بمنطقة باب السلامة بجانب قرب باب توما. ابن عبد الهادي، عدة الملمات، ص 49.

(3) محمد شريف الصواف، معجم الأسر والأعلام الدمشقية، بيت الحكمة، دمشق، ط 2003م، ج2، ص 929.

(4) كيال، الحمامات، ص 220؛ نعيسة، مجتمع، ج1، ص 130.

(5) زاك، دمشق تطور وبنيان مدينة مشرقية إسلامية، ص 84.

عـــالم الحمام النسائي كان يعج بالمؤهلات للزواج، مما حول الحمام إلى شبه سوق للعرائس. وفي مقابل عرض بعض الأمهات لبناهن المؤهلات للزواج، كانت الأم التي لديها شاب مقبل على الزواج وتريد أن تزوجه تنتقي لولدها العروس من الحمـــام في بعـــض الأحين، إذ تتاح لها الفرصة في الانتقاء وإمعان النظر في الفتاة المبتغى الإطلاع على محاسنها من شعر رأسها حتى أخمص قدميها[1].

في الحمام كما يقول منير كيال:

[.. تـــصادف – أم العريس أو أخته أو الخاطبة خالتها في الحمام بين الفتيات اللواتي يأتين مع أمهاتهن بغية الاستحمام. وفي الحمام تتأمل الأم في تلك الفتيات الواحدة تلو الأخرى: في قوامها وتناسق جسمها وحركاتها العفوية ومشيتها، حتى إذا صادفت ... مـــن حـــيث المظهـــر الخارجي أو تأتي إليها بنظرة حنو باسمة، ومن ثم تتحين الفرصة لمحادثـــتها، حتى إذا تم لها ذلك تلاحظ نبرة لسانها وطلاقتها ونغمة صوتها ومن خلال هذا تعرف اسمها وعمرها وعائلتها ...][2].

لا يـــتوقف الأمـــر عند هذا الحد، فحمام النسوان غني: وتجري فيه عمليات تقليب وفحص للجسد النسائي ومن ذلك:

[.. وبعد الغداء تحاول مساعدتها – أي أم العريس – في تحميم الأولاد إن وجدوا أو تدعـــوها إلى جرنها مما يفسح المجال لها للاقتراب من الفتاة بصورة أكثر فتغسلها كُم كُـــم ... وخلال ذلك تشم رائحة فم تلك الفتاة وأدنها ونفسها وعرقها وتحت إبطها فـــإن راقت لها تبدأ بخوض الموضوع بصورة جدية بعد الصلاة على النبـــي وتحويطها بأسماء الله الحسنى ...][3].

ومـــع ذلـــك، فـــإلى جانب هذه الوظيفة الخصة بالزواج، والتي كانت تقوم بها الحمامـــات، فإنهـــا تمـــثل أماكن للاسترخاء وهي بالنسبة للنساء مجال للترفيه أكثر من الـــرجال. ولم يقتصر الاهتمام بالحمامات عند هذا الحد، بل دخلت في اهتمامات مثقفي دمشق، ووضعت مؤلفات خاصة بها، ومنها مخطوط يوسف عبد الهادي (ت: 909هـــ/ 1503م) "آداب الحمام وأحكامه"، ومخطوط عدة "الملمات في تعداد الحمامات"[4].

(1) كيال، يا شام، ص 257.
(2) انظر، كيال، الحمامات، ص 219.
(3) كيال: الحمامات، المصدر السابق، ص 220.
(4) كيال، حمامات دمشق، ج 8.

وقـد تذهب النسوة للحمام معا بشكل جماعات بعد أسبوع على انقضاء ولادة إحـدى نساء الحي، ويحضرن معهن الطعام ويمدن سماطاً، ومع أن هناك حمامات خاصة في بيوت الأثرياء مثل حمام منـزل الشيخ مراد المرادي، بوسط الدار، إلا أن النسوة كنّ يذهبن لحمام السوق، تقول السيدة زهرة المرادي "مع وجـود حمـام ببيت جدنا مراد المرادي إلا أننا كنا نذهب في المناسبات لحمام السـوق مـثل حمـام العروس، ولا زلت أذكر الحمام منذ مجيئي لعمان سنة 1951م"[1].

والحمام الدمشقي مثله مثل المقهى، استقطب الناس في الحارات والأسواق و لم يكـن مقـصوراً علـى حالته الوظيفية، باعتباره مكاناً للغسل وطهارة البدن بعد الجـنابة، حـسب الأحكام الإسلامية، بل أضحى وحتى اليوم مكاناً يرتاده الناس للتلاقـي والاسـترخاء وربمـا الـسمر، وهـو بذلك يلعب دوراً هاماً في الحياة الاجتماعـية. أما عالم الرجل في الحمام، فهو غير مثير وغرائبـي مثل عالم النساء الذي نسجت حوله الكثير من الطرائف والحكايات[2].

فـبوجود النـساء في الحمام يخرج عن كونه مكاناً للاستحمام والطهارة لأن تـناول الطعـام في الحمام يعد من جوانب الحياة الثقافية والاجتماعية، ومن خلاله تـستطيع استكشاف الكثير من معاني الحياة اليومية، وتقاليد المجتمع وسلوك الأفراد ومستويات الحياة.

لا تقدم المصادر معلومات وافية عن سلوك النسوة في الحمامات، لكن بالوسع الاعـتماد على الأدب لاستجلاء شيئاً من خصوصيات النساء وسلوكهن، فموعد الـذهاب إلى الحمـام في حلـب كما في دمشق يحدد للنسوة يومين أو ثلاثة في الأسبوع، ويعتبر يوم الخميس أحد هذه المواعيد[3].

تسير النسوة بشكل جماعي وعددهن بين الأربعة والخمسة، وغالبا ما يرافقهن أحـد أبنائهن إلى الحمام أو احد خدم الأسرة أو صبية رب الأسرة في مكان عمله

---

(1) مقابلة مع السيدة زهرة المرادي في منزلها بعمان بتاريخ 2009/1/13م.

(2) يذكـر منيـر كـيال عدة حكايات ونوادر خاصة بنساء دمشق في الحمامات. انظر: كيال، الحمامات، ص 213- 220.

(3) خالد خليفة، مديح الكراهية، أميسا للنشر ط1، دمشق 2006، ص 47.

حاملا ما يسمى "البقجة"[1] والذي يُمنح إجازة قصيرة عند دخولهن على أن يعود إليهن ليصطحبهن لحظة الخروج إلى المنـــزل في طريق العودة عبر السوق أو أزقته.

الدخول إلى الحمام يتم بترتيب متفق عليه بين النسوة، انحناء الرؤوس ضرورة عـــند مـــدخل الحمـــام الـــذي يكون أدنى من مستوى الشارع أو الزقاق. تخرج "الريـــسة/المعلمـــة"[2] مـــرحبة بالنسوة، يخلعن ملابسهن في البراني، ويتقدمن إلى الوســـطاني ومـــن ثم الجواني، "نسوة من مختلف الأعمار يغشو الأجساد بخار الماء، يـــتمددن عاريـــات علـــى الحجر الأصفر القديم، تتعالى ضحكاتهن، البلل يغرق مـــساماتهن المنفتحة لشهوة الماء." تراقب الأم أو الجدة أجساد البنات والحفيدات، وأحـــيانا تخرج النسوة المسنات من صرتهن نوعا من الأعشاب التي تنقع وتفرد في طاستها وتوزع على البنات ليدهنّ أجسادهن ومواضع الترهل فيها، بصمت ينفذن تعليمات الجدة أو الأم التي تراقب تفاصيل اللحظة[3].

في مقـــصورات الحمـــام الوسطاني والجواني تخلع النسوة قباقيبهن، يجلسن بجانـــب أجـــران المـــاء المحفورة في الرخام والحجر، والتي تنصب فيها المياه من فتحـــتين واحدة للماء الحار والأخرى للبارد، تمارس النسوة مزجا للماء، كلٌ بحسب درجة احتمال جسدها لحرارة الماء التي تمدهن بحالة من التلذذ التي يرتفع بهـــا صوتهن مغنيات لبعض وهنّ يدلكن ظهور بعضهن، وقد يتطور المشهد إلى حالة من الرقص والتمايل.

تتـــبادل النـــسوة بجوار الجرن طاسات الماء النحاسية، صوت النحاس يختلط بـــصوت الماء المنسكب على الجسد، الذي يتم فركه بالليف والصابون، إلى درجة الاحمرار، الذي يولد عند النسوة رغبة متزايدة بسكب الماء الحار، الذي يتم تبريده إما عبر فتحة الماء البارد أو من خلال "زقاقة البارد" وهي المرأة التي تأتي بالماء البارد وتضيفه إلى الماء الساخن حتى يصبح محتملا على الجسد[4].

---

(1) نعيسه، مجتمع، ج1، ص 126.

(2) الريسة أو المعلمة في حمام النساء كما يقول القاسمي: "تستقبل الزبونات وتقبض منهن الأجرة وتكون بهيئة جميلة من ملبس وغيره". انظر القاسمي، قاموس، ج1، ص 108.

(3) خليفة، مديح، ص 49.

(4) القاسمي، قاموس، ج1، ص 108.

الصابون المستخدم كان أنواعا، منه البلدي والمغشوش والنابلسي والجعفري والغار، تعطى كل امرأة "فلقة" من الصابون مع الليف، وكان أفضل الصابون للنساء الميسورات صابون الغار والجعفري والنابلسي، في حين أن الفقيرات كنّ يستخدمن نبات الشنان في الحمام من أجل تنعيم الشعر والبدن وفرك الجسد[1].

تحضر المدلكة للنسوة ومعها مساعدها البلاّنة والناطورة، وتقوم بفرك جسد المستحمة بواسطة الليفة التي تحركها في إناء معدني فيه قليل من الماء الحار لتحضر رغوة الصابون، وبهذه الليفة يفرك جسد المرأة بدءا من الرأس وحتى القدمين وبعد رش الماء تبدأ البلاّنة بالتكييس مستخدمة كيس على شكل قفاز من شعر الماعز، ينظف الجسد ويلينه، ثم تمد البلاّنة الزبونة على البلاط الحجري المتوسط الحرارة، أولاً على البطن ثم الظهر، مع وضع فوطة تحت الرأس لتجنب ملامسته للأرض، وعندما تنهي التكييس تحرك مفاصل المستحمة وتمطها على مواقع اتصالها، ثم تنادي على الناطورة التي تحضر الفوط وتجلب المناشف الجافة، ويحمل الناطور أو الناطورة بقجة تحوي عدداً من المناشف والمحارم البغدادية والمكاوية والمادبية والبقجات اليمينة[2] ثم تخرج المستحمة إلى المصطبة في القسم البراني وتشرب الأعشاب المغلية[3].

تمد النسوة في الحمام سماطاً[4] على الأرض، وتتحلق المستحمات حوله،

---

(1) القاسمي، قاموس، ج2، ص 269؛ نعيسه، مجتمع، ج1، ص 129.

(2) سجل رقم 411، حجة 56، ص 34، 13 رجب 1265هـ/1848.

(3) إيكوشار ولوكور، حمامات دمشق، ص 47.

(4) السماط لغة: سماط القوم: صفهم، ويقال: قام القوم حوله سماطين أي صفين، والسماط في عادة أهل دمشق ما يبسط على الأرض لوضع الأطعمة وجلوس الآكلين، ويعود كتقليد إلى الفترة الايوبية والمملوكية، ويمد السلاطين والولاة أو الأعيان سماطا من الطعام يدعون إليه الواردين للمدن والفقراء في مناسبات خاصة وعامة، ويتكون بشكل رئيسي من الدشيشه والخبز والشوربة، كما يشير ابن كنان الصالحي إلى السماط الذي كان يمدّ في التهاليلي الدمشقية وكان يظم المحلى والدشيشة. والسماط عادة انتشرت في كثير المدن العربية في العصر العثماني ويزداد الانفاق عليها في شهر رمضان. ابن منظور، اللسان، مادة سمط. وعن سماط أهل دمشق انظر، ابن الحمصي، حوادث، ص 436، ابن كنان، الحوادث، ص 451، ويصف الشيخ محمد الخليلي سماط أبي الأنبياء إبراهيم الخليل في مدينة الخليل الذي كان نوعين كبير وصغير، ويقول: "والسماط الكبير وهو ما كان يفرق في كل يوم رغيف رطل مصري ويصرف ذلك لزوايا ومدارس ورباطات ومعاهد خير لمن فيه من المجاورين والفقراء.. والسماط الصغير وهو ما يعمل من الخبز والشوربا ويصرف للفقراء

وتأخذ مادة الحمام أو ولائمه منحىً استعراضياً، فكل امرأة تحاول إظهار مهارتها في إعداد الطعام أمام مثيلاتها من السيدات الأخريات. ومن ثم يخرج الطعام عن كونه حاجة لسد الجوع إلى حالة من التظاهر وإبراز القدرات.

تتزين موائد الولائم في الحمامات بألوان الزيتون الخضراء يضاف إليها المجدرة والبرغل والكوسا المحشوة بالبرغل والبندورة (اليهودي المسافر)، والكشكشة الخضراء والمزينة بالجوز والزيتون والبقدونس والنعناع والزيت، ويمدّ المخلل أو الفليفلة المكبوسة وأرباع البصل.

يخضع ترتيب الولائم في حلقات النسوة إلى تراتبية دقيقة داخل الحمام، فالنساء الفقيرات يتناولن طعامهن مع أولادهن وأثناء الاستحمام يغسلن بعضهن[1]. أما الميسورات، أو بتعبير أهل الشام "المسعدات"، فيعرض طعامهن مستعينات بالبلاّنة[2] وأحياناً الريّسة، في مكان بارز من الحمام سواء الوسطاني أو البراني[3].

يعد الطعام، سواء قدم في الحمامات أو كان بشكل ولائم عامة أو خاصة، مكوناً من مكونات الثقافة الإنسانية لأي مجتمع، فالأغذية التي يعدها أي مجتمع ويستهلكها تعمل على توطيد الروابط الاجتماعية وتحديد الهوية والمناسبات المهمة. وهي اعتبارات تتجاوز أبعاد التزود بالحاجات الأساسية.

صباحا ومساء مع دق الطبول التي كان يعلم بها..". شمس الدين محمد بن محمد الخليلي (ت: 1147هـ/1734م) تاريخ القدس والخليل، تحقيق محمد عدنان البخيت، ونوفان السوارية، مؤسسة الفرقان، لندن، 2004، ص 153. ويصف المقريزي سماط الأسمطة السلطانية في القاهرة، بقوله: "وكانت العادة أن يمد بالقصر في طرفي النهار كل يوم أسمطه جليلة لعامة الأمراء خلال البرانيين وقليل منهم، فأولا يمد سمط أول، لا يأكل منه السلطان، ثم ثان بعده يسمى الخاص، قد يأكل منه، وقد لا يأكل، ثم ثالث بعده ويسمى الطارئ ومنه مأكول السلطان وأما في آخر النهار فيمدّ سماطان الأول والثاني وهي المسماة بالخص، وفي كل هذه الاسمطة يؤكل ما عليها ويفرق نوالات ثم يسقى بعدها الأقسماء المعمولة بالسكر، والأفاوية الممزوجة بماء لورد المبردة وبلغ مصروف السماط في يوم من أيام الفطر من كل سنة خمسين ألف درهم". المقريزي، تقي أحمد بن علي (ت: 845هـ/1444م) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م، ج2، ص 210-211.

(1) القاسمي، قاموس، ج1، ص 37.

(2) هي التي تدلك البدن بالكيس وتصبغ الشعر الأبيض، القاسمي، قاموس، ج1، ص 108.

(3) كيال، منير، الحمامات، ص 221.

يحتل الزعتر مكاناً مرموقاً في المطبخ الشرق أوسطي، والشامي تحديداً، وتعكس طرائق إعداده المناسبة التي يقدم بها، ففي الحمامات يرافق الزعتر المائدة وهو مرقوق مع الخبز المدهون بالزيت. ويحتل مكانة خاصة لأنه يعد طعام الحمام التقليدي لدى شرائح المجتمع كاملة وينتهي الطعام عادة بتناول الفواكه بالبرتقال أو البطيخ الأخضر أو الأصفر أو الخيار والقثاء كل حسب موسمه[1].

عندما تتبادل النسوة الدمشقيات الطعام في الحمام، وعندما تتقاسم موائدهن أنواعاً من الطعام، كالمشروبات والوجبات الخفيفة والمخللات والحلويات والفاكهة، فإنها تعبر عن الفئة أو الطبقية والأضواء والإقصاء والحدود، وشكل التعاملات عبر حدود الحارة أو العائلة وفي إطار المرجعية الثقافية.

مغادرة النسوة للحمام لها نسق خاص، في حي العقيبة إلى الجنوب من مقبرة الفراديس - حالياً مقبرة الدحداح - وإلى الشمال من باب الفراديس أحد الأبواب الشمالية للمدينة، يقع حمام أمونة أو حمام شجاع[2]، والذي كان يعد من أفقر حمامات دمشق، وقد كان إبان العصر العثماني واحداً من الحمامات التي تذهب إليها النسوة مساءً ثم في القرن العشرين خصص للنساء صباحاً والرجال مساءً وظل كذلك حتى عام 2002م، ثم صار بالإمكان حجزه في أي وقت[3].

لحظة الخروج، يكون الصبي المرافق ينتظر في الخارج، يحمل بقج النسوة الخارجات من حمام أمونة في حارة العقيبة أو حمام البكري في حارة القيمرية أو غيرهما، تمر النسوة وسط محلات تتوزع على جانبي الطريق المؤدية لحمام أمونة الذي يحيط به اليوم مكتب عقاري ومجموعة محلات للمواد الغذائية، وبالقرب منه تنتشر مناشر الخشب القديمة وورش القصدير والنحاس[4]، والتي لازلت تشكل مع

(1) كيال، الحمامات، ص 221.

(2) ذكره النعيمي باسم حمام الشجاع، ويعود للقرن السادس الهجري، ويقع وسط حي سكني، تحول فترة من الزمن إلى مصبغة وأعيد ترميمه عام 2008م. النعيمي، الدارس، ج1، ص 173؛ إيكوشار ولوكور، حمامات دمشق، ص 46.

(3) انظر سراب أتاسي، في الحمام مجلات ومناهج بحثية متعددة الاختصاصات في منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط، مشروع دولي، أويكم دورم، مؤسسة فينا للاستدامة العمرانية، 2008م، ص 22-23.

(4) المصدر السابق، ص 23.

عناصر معمارية أخرى نموذجا بنائيا متماسكاً للحارة الدمشقية القديمة، وأثناء عبور النسوة، وبالرغم من أن الرجال يكونون في مشاغلهم: إلا أن وقع خطواهن وهن معطرات مستحمات لا يغيب عن نظرهم.

- سرديات الحمام

يتوارث الدمشقيون في تراثهم الثقافي الكثير من القصص عن الحمامات[1]، والسؤال هنا كيف يمكن أن تكتب ثقافات الحمام الدمشقي المتعددة والمتباينة؟ فهل يمكن التعبير عن هذه الثقافة دون المساس ببنائها المتراكم وتأويلها؟ هنا لا بد من معاينة السرد السائد عن بعض الحمامات الدمشقية، بحيث تظهر الألفاظ المستخدمة للإجابة عن بعض التساؤلات وعن الموروث الثقافي الشفاهي المقتضب والغرائبي في آن، ونختار منها بعض القصص والحكايات التي تروى بقالب أسطوري عن بعض الحمامات. فحمام الذهب الذي يقع في حي منبر عاتكة، تروى عنه أسطورة شعبية تقول:

> [... إن صاحبة الحمام خرجت لبعض أمورها في السوق وتركت أبنتها وحدها فطلع عليها كنز فأخذت تنقل الذهب إلى الإيوان، وعندما رجعت أمها طرقت الباب فردت البنت فانغلق عليها الكنز فطمرها ولم يبق منها إلا شعرها ... وقيل أنه سمع صوت البنت وهي تستغيث قائلة عطشانة ... عطشانة ... فبينت بحرة في مكان الشعر والحمام الحالي ...][2]

ومما يرويه منير كيال من الحكايات والروايات الشامية ذات الطابع الخيالي، التي تشف عن معانٍ خاصة بالليل الدمشقي وثقافة السهر والتسلية في الحمامات، تلك الحكاية التي ما زالت النسوة المسنات في دمشق يروينها في صيغ متشابهة وتقول:

> [... إن أحد المُصَوْبنين – من يستخدم الصابون إضافة إلى كيس صغير خاص يوضع في الكفّ لتنظيف جسد المستحم في حمام السوق – كان نائماً في داره حين طُرِقَ عليه الباب ليلاً. ولما سأل عن الطارق، طلب إليه – الطارق – أن يوحّد الله، وأن

(1) كيال، الحمامات، ص 223- 231.

(2) كيال، الحمامات، ص 98؛ الشهابي، قتيبة، وأحمد إيبش، معالم دمشق التاريخية، وزارة الثقافة، دمشق، 1996م، ص 164.

يصحو من نومه، فقد أوشك الفجر أن يبزغ، وهو يريد أن يستحم، والحمام بدون ريّس – أي مصوبن – فماكان من صاحبنا إلا أن قال له، اسبقني... وسألحق بك. وارتدى ملابسه على عجل، وانطلق مسرعاً إلى الحمام، فوجد الزبون على باب الحمام ينتظر، ففتح له الباب ودخلا، ثم أنزل الريس الثريا، وأشعل الأسرجة بعد أن زيّتها، وفعل مثل ذلك في "الوسطاني"، و"الجوّاني" – قسمي الحمام الداخليين – وعندما بدأ بتفريكه بالكيس، أخذ ضوء السراج يخفت، فأراد الريس إصلاح ضوء السراج، فقال له الزبون: لا تتعب نفسك! سأصلحه عنك. وهنا مد الزبون يده ليصلح الضوء، فإذا هي تطول عدة أمتار، وتنتهي بحافر حمار. ذعر الريس – المصوبن – من هول المفاجأة وانطلق هارباً إلى البرّاني – قسم الحمام الأول – فاعترضه المعلم – مدير الحمام الذي كان قد وصل – وسأله عما به فقص عليه ما شاهده. فأظهر المعلم دهشته، ولم يجد غرابة في ذلك قائلاً: أليست كهذه؟ ومدّ يده، فإذا هي تصل إلى سقف البرّاني، وتنتهي بحافر أيضاً. فهرب المصوبن بلا وعي إلى السوق، فناداه الحمصاني – بائع الحمص والفول – مستفسراً عن سبب ذعره وركضه في السوق، في ذلك الوقت شبه عار، حافي القدمين! ولما قص عليه خبر الزبون والمعلم، قال له الحمصاني: أليست كهذه؟! ومدّ له يداً انتصبت أمامه عدة أمتار كسابقاتها، فهرب إلى داره، ففتحت له زوجه الباب فقص عليها ما حدث. وهنا أيضاً مدّت يداً مشابهة، فهرب من الحي كله][1].

يقترب القص السائد عند الحمامات الدمشقية من مفهوم الثقافات الشعبية، الذي غالباً ما يحيط به غموض دلالي إلى جانب ما تتسم به الثقافة الشعبية من تضخيم للأحداث أو تصور خيالي، لكن ميزة هذه الثقافة الساردة للحمامات في أنها لا تنتمي إلى طبقة أو فئة ولا تدين بشيء من التبعية لأي مؤلف.

لذا يمكن تجاوز الحمامات الدمشقية باعتبارها مباني نفع عام إلى محاولة الكشف عن الأبعاد الثقافية لها في عالم اللهو التسلية. فكل حمام له قصة وله سرده المتعلق به والمرتبط غالباً إما بحدث جماعي أو بطابع تقديسي[2].

ومما يدلل على ذلك، ما جاء في السرد حول تسمية حمام السلسلة، الواقع في حي الكلاسة ومما يتناقله الدماشقة عن سبب التسمية أنه ثمة قنطرة تتدلى منها

---

(1) كيال الحمامات، ص 335-336.

(2) انظر عن حمام السلسلة وحمام البزورية وغيرها في الشهابي، معالم، ص 65؛ كيال، الحمامات، ص 226، 227.

سلسلة يقسم عليها القوم إذا اختلفوا في أمر، فإن كان القسم صادقاً بقيت السلسلة على حالها، وإن كان كاذباً ارتفعت، ومن المتوارث في قصص هذا الحمام:

[.. ذات مرة اختلف اثنان على دين لأحدهما فادعى المدين أنه قد دفع ما عليه للدائن. فاحتكما إلى السلسلة التي بباب الحمام، فما كان من المدين إلا أن أتى بعصى وجوف قناتها وجعل المال في داخلها وأعاد إغلاقها من جديد... وما إن وصلا إلى السلسلة ودنا المدين ليقسم حتى ناول غريمه العصا وأقسم أنه سلمه ماله في ذمته يداً بيد، فلم تتحرك السلسلة، ثم عندما استرد العصا ارتفعت السلسلة ولم تعد تنزل أبداً..][1]

ويلاحظ في سرد القصة استخدام الشعر كدلالة على وجود البنت، وظهور الماء فجأة عند قولها: "عطشانة.." ووجود الذهب والباب المغلق.. الخ. هنا يصبح للكلمات دلالات، وهي أيضاً إلى حد ما، تصنع التاريخ، فعلى سبل المثال تتماهى إحدى وظائف الأسلوب مع تلك الوظيفة الهامة للشكل الذي أخرجت عليه شهادة منشأ حمام الذهب في دمشق، وعلى هذا النحو، إن أيقنا بأن كل شيء نص وكل نص لغة فإنه بالإمكان تأويل وتفسير القص الدائر عند الدماشقة حتى اليوم حول الحمامات.

ومع أن تلك القصة غير واقعية ولا يقبل بها العقل، إلا أنها دالة على حجم الميثولوجيا التي تنسج في الثقافة حول مجالات الاستخدام اليومي، فالسلسلة التي تتحرك برأي قتيبة الشهابي منحولة، من قصص شعوب أخرى. وما يعضد رأي الشهابي ما نسبه ابن شداد (ت: 684هـ/1285م) في الأعلاق الخطيرة، حين أشار إلى أن سبب التسمية يكمن في أن الحمام سمي بذلك الاسم لوقوعه عند درب السلسلة، في محلة باب البريد[2].

- جرن الشيخ وجرن العاشقة

دونما نسيان لأهمية شكل البناء المستور للحمام، وأجزائه البراني والوسطاني والجواني، وعالم المهن الذي يقيم فيه المدلك والبلانة والمكبس والناطور وغير ذلك من المهن التي تشكل تراتبية خدمية محكمة بتقاليد متوارثة، وفي غاية الاختصاص،

(1) الشهابي، معالم، ص 165.

(2) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ص 193.

وتـــرتبط أيـــضاً بنظرة ثقافية خاصة من المجتمع الذي نظر إليها على أساس ثقافي بالدرجة الأولى[1].

يـــشكل جـــرن الشيخ أحد أهم مكونات الحمام الدمشقي، وهو جرن من الحجـــر يـــوجد في أغلب الحمامات، كان الدماشقة يوقدون له شمعة ليلة الإثنين والجمعـــة، وقد يتطور الأمر في بعض الحمامات إلى وجود جرن العاشقة كما هو الحـــال في حمام النوريزي[2]، وهنا يجب الإمعان جيداً بأن استخدام الجرن من قبل الرجال والسيدات في حالات من العري ووضع العاشقة في جوار الشيخ، ما هو إلا تعـــبير عن الكيفية التي تحلل بها العلاقة السببية بين الجرنين أو بتعبير أدق هي تفسير آخـــر للمعنى الثقافي للحمام من خلال النظرة الجنسية التي ترى فيه مكاناً يتجاوز الطهارة والنظافة إلى عالم من الإثارة والشهوة واللهو.

تـــزداد أهمية الجرن في كونه يتجاوز وجوده كوعاء يغرف منه الماء ويسكب على الجسد، إلى درجة التقديس والتبرك. وهنا توفر الغيبيات والغرائبيات والفلكور المرتبط بالحمام مجالاً ممكناً لتحديد البعد المتمثل في ممارسة الفعل، من وجهة ثقافية بحتة. فالحمام كبناء يبقى محافظاً على مجموعة من الموروثات الشعبية التي تظل مجندة باستمرار لإظهار البعد الثقافي عبر الأساليب والتجسيدات والتوظيف.

فـــسيدات دمـــشق حتى اليوم يعتقدن أن التبرك بالجرن يجلب الحظ والسعادة ويحجزن لتلك الممارسة مواعيد مسبقة، وهذا ما يسمى في الوعي المجتمعي النسائي "بالحجابـــة"، ويدفعن مقابل ذلك الإكراميات ويقدمن له النذور والزيت والشمع. وهذا الجرن غالباً ما يكون في الجزء الجواني من الحمام حيث الحرارة تكون في أعلى درجاتها[3].

ووجـــود الجـــرن في المكان الأكثر حرارة من الحمام، ويضيف إليه المزيد من الهيـــبة باعتبار أن البقاء بجانبه لأطول مدة سيجلب المزيد من البركة، عندها تدخل

---

(1) هـــذه المهـــن أو الطـــاقم العمالي هي المعلم والناطور والمصوبن والوقاد والأجير والقميمي والـــزبال والتـــبع والمكـــيس والـــبلانه والقهوجي... الخ. للتوسع يراجع القاسمي، قاموس، الصناعات الدمشقية، ج1، ص 107-109.

(2) كيال، الحمامات، ص 227.

(3) كيال، الحمامات، ص 227.

مؤثـرات المكان من حرارة وبخار كثيف وماء في خلفية الأجواء الغرائبية التي ترقى إلى حــد الأسطرة مما ينحى بالوظيفة الإجرائية لجرن الشيخ إلى ما يتجاوز النظافة وغـرف الماء الساخن، إلى منحى التقديس الذي يرقى إلى درجة لاعتقاد أحياناً، وتقـود هذه الحالة إلى أجواء من التسلية والإنعاش التي ظل الحمام مصدراً هاماً لها عند الرجال والنساء معاً.

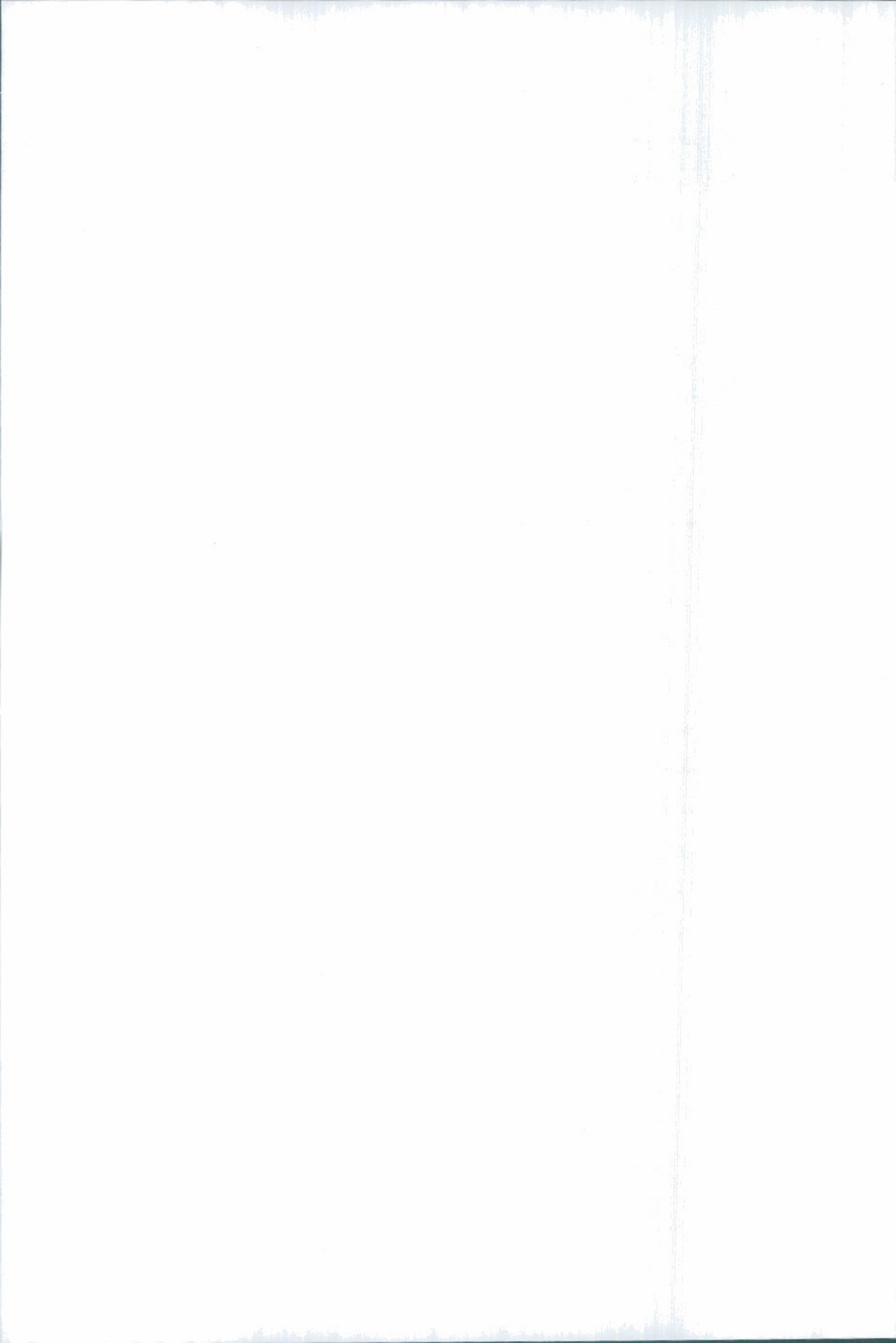
وهـنا يمكـن القـول بأن الحالة المنعشة للغسل والحرارة هي بحد ذاتها تبهج النفس، وتدفـع إلى حالـة من الطرب والرغبة في الغناء، كما يشير ابن خلدون (ت: 808هـ/1405م)، في معرض حديثه عن تأثير لحرارة بالجسم البشري: "ذلك أنه تقرر في موضعه من الحكمة أن طبيعة الفرح والسرور هي انتشار الروح الحيواني وتفـشيه وطبـيعة الحزن بالعكس وهو انقباضه وتكاثفه. وتقرر أن الحرارة مفشية للهـواء والـبخار مخلخلة له زائدة في كميته ولهذا يجد المنتشي من الفرح والسرور مالا يعبر عنه وذلك بما يداخل بخار الروح في القلب من الحرارة الغريزية التي تبعثها في الـروح مـن مزاجه فيتفشى الروح وتجيء طبيعة الفرح وكذلك نجد المتنعمين بالحمامـات إذا تنفـسوا في هوائها واتصلت حرارة الهواء في أرواحهم فتسخنت لذلك حدث لهم فرح وربما انبعث الكثير منهم بالغناء الناشئ عن السرور.."[1].

أخيرا تظل موروثات الحمام الدمشقي حاضرة، ما دام مستخدماً، ولكن يجب أن لا يُغيب الحديث عن تقاليد الحمامات الدور الذي لعبته الأوقاف في استدامتها، كمـا وفـر ريعهـا أحياناً مدخلاً مالياً للتعليم والتدريس، فإبراهيم باشا بن عبد المـنان(ت: 1043هـ/1633م) والي دمشق شيد حماماً "قرب تربة السلطان صلاح الـدين بـن أيوب، بجانب داره التي كان يسكنها "وقد أوقف الوالي المذكور ريع الحمام على تدريس الفقه"[2].

---

(1) ابـن خلـدون عـبد الرحمن بن محمد أبو زيد (ت: 808هـ/1405م)، المقدمة، دار الكتب العلمية، ط1 بيروت، 1993م، ص 69.

(2) المحبي، خلاصة، ج2، ص 30.



الفصل السادس

الحارات والحكايات وحرف الترفيه

I

حارات دمشق فضاءات الترفيه

تمنح الحارات الدمشقية المدينة خصوصية كبيرة، فهي وإن بدت عالما خاصاً له مكـــوناته الثقافـــية والاجتماعية والأنثروبولوجية، إلا أنها تشكل في تعددها عوالم ثقافية متباينة في إطار المدينة الكلي، ومن الناحية الجغرافية فهي قسمان: قسم منها داخل السور، وقسم امتد إلى خارجه، ولذا وجدنا ما يسمى البراني والجواني، بمعنى أن الجـــواني هو داخل السور، والبراني ما امتدّ خارجه، مثل حي الشاغور الجواني والشاغور البراني[1]، وهو المعنى لذي تحمله مسميات باطن دمشق وظاهرها، وهناك حارات في سفح جبل قاسيون مثل الصالحية وركن الدين وغيرهما.

ومـــع أن أحداث دمشق العثمانية كانت تدور بشكل رئيس في حاراتها التقليدية، داخـــل السور القديم وخارجة بشكل منفصل "الصالحية، وميدان الحصى، والقبيبات، والشاغور، وحارة النصارى، والقيمرية وحارة اليهود عند بستان القط، وحارة السمرة فـــوق العـــنابة.."[2] إلا أن الحياة اليومية في تلك الحارات كما تكشف عنها مصادر الحقبة العثمانية تتميز بالحيوية والتفاعل الشديد بين مختلف الحارات.

تلك الحارات الرئيسة وغيرها هي التي كان يدور فيها المنادون للأمور المهمة بلاغاً أو إعلاماً[3]. وبالإمكان وبحسب أخبار اليوميات أن نتحدث عن رصد لعدد

---

(1) يرى قتيبة الشهابي أن كلمة الشاغور أصلها سامي وتعني الصغير في الآرامية، وهي زعور أو زعـــور، واللفظـــة ذاتها في السريانية زعورا ومن الواضح أنها لا تشبه شاغور، وتشابه معناها في العربية وهناك من يرى أن أصل اللفظة كنعاني أو حثي، والشاغور حي كبير يمتد داخل القسم الجنوبي لمدينة دمشق، وينقل الشهابي عن شكيب أرسلان قوله إن سبب التسمية هـــو وجـــود عـــدة عـــيون مياه كانت تشغر تحت الأرض أي تأخذ لها مجرى وتتدفق منه. الشهابي، معالم، ص 364.

(2) ابن طولون، مفاكهة، ج2، ص 122.

(3) مـــن خـــلال النصوص فإن هذه الحارات كانت طريقاً يمر بها المنادون وفيها يمر المجرسون أو المقتولون في القصاص أو من قتلى الحرب، كما يشير ابن طولون، مفاكهة، ج2، ص 122

من المحلات الصغيرة والأزقة التي ترد أخبارها بشكل مفصل في دعاوى الحجج الشرعية أو في كتب اليوميات، وبما تقدمه أخبارها من صورة عن مناطق بدت منفلتة لا ضابط لها ويجري فيها اللهو الحرام بشكل كثيف[1].

تأخذ الحارات موقعها في الترفيه من كونها المساحة الأولى التي يمارس بها الأطفال لهوهم، وهي المكان الذي تعبره العراضات ومواكب الأفراح، وهي في مورثها الجمعي تختزن العديد من القصص الشعبية والحكايات، إذ نجد لكل حي أو حارة قصتها الخاصة بها[2]، وهنا من المفيد الإشارة إلى أن منظومة التسميات التي سميت بها الحارات تمدنا بالكثير من المعطيات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية عن سكان دمشق وخارطتها السكانية[3].

---

(1) قسمت حارات دمشق داخل أسوارها أو في ارباضها المحيطة إلى ثمانية أثمان احتوى كل ثمن على عدد من الحارات واحتوت كل حارة على عدد من الأزقة، وكانت هذه الأثمان خمسة خارج السور وثلاثة داخله. انظر: نعيسه، مجتمع، ج 1، ص 79. وانظر:

Antonino Pellitteri. Damasco Bal Profumo Soave.Sellerio editore Palermo. 2004, p. 19-27.

وانظر عن حارت دمشق كذلك، زاك، دمشق، ص 78؛ العلبي، خطط دمشق، ص ص 434-438.

(2) قام نزار الأسود بجمع حكايات الأحياء الشائعة، وبخاصة أحياء الميدان والصالحية والغوطة ومئذنة الشحم وغيرها. انظر: الأسود، الحكايات الشعبية الشامية، ط1، مطبعة خالد بن الوليد، دمشق، 2003م.

(3) يروي ابن طولون مذاكرة جرت بينه وبين إبراهيم بن إسماعيل بن يوسف العكاري الصالحي المولود في مدينة نابلس سنة (ت: 870 هـ/1465م) ذكر ابن طولون فيها حديثاً جرى مع الأخير، ذاكرهُ فيه بحارات دمشق القديمة، بعد رقمها. وجاء نص المذاكرة كالتالي: "تذكرات أنا وإياه حارات دمشق القديمة فقلت له: داخل باب الجابية. فقال: 1. حارة الفسقار 2. حارة البزورية وتعرف قديماً بسوق القمح 3. حارة مئذنة الشحم وتعرف قديماً بعقبة الصوف وقبليّها 4. حارة الخاطب وشرقيها 5. حارة درب البقل ورايح منه 6. حارة مسجد البيع. ولم يكن في الصف الشمالي مسجد غيره من باب الجابية إلى باب شرقي يوجه إلى القبلة، وقيل أن الصحابة بايعوا فيه. وهو الآن مدرسة بناها الخواجا محمد بن يوسف القاري سنة 887هـ/1482م وبنى إلى جانبها داراً عظيمة. وقبليها قاطع الطريق العظمى الآخذة إلى باب شرقي قيسارية ودوراً أخرى عظيمة. وكذلك بنى ابن عمه علي ابن القاري عدة دور على تل مئذنة الشحم حارة جامعة بمسجد. وعدة حواصل وخان حرير. وما مات حتى افتقر واستعطى. وكذا بنى ابن أخيه عبد القادر داراً عظيمة بالغ في اتقانها وبنى أبوه حماماً كان بتلك المحلة. وحارته قديماً تُعرف بدرب الريحان. ثم في شرقي ما ذكره 7. حارة الكشك وكان فيها آثار جامع بأعمدة ومئذنة. نقلوا جميعاً إلى عمارة الجامع الأموي بعد حريقه سنة 774هـ/1372م. ثم

كانـــت الحارات التي يمكن أن يختلف بعضها عن البعض كثيراً من حيث المـــساحة والبنـــية مفصولة بأبواب، زال أثر بعضها في فترات متلاحقة وبقي بعـــضها، لكن مركز الحارات كان غالباً مرتبطاً بوجود مجموعة منشآت تشغل حيـــزاً فراغياً غالباً ما يبدأ بالسوق كمركز للتفاعل الاقتصادي، ومعه الجامع كبـــناء ديـــني أمـــا الحمـــام والمقهى وهما نموذج للبناء ذي الوظيفة الاجتماعية والترفيهية[1].

شـــرقي مـــا ذكـــر إلى جهة القبلة شمالي باب كيسان 8. حارة القط. ثم شمالي عماير القاربين 9. حارة الكنيسة ثم شرقيها 10. حارة النيبطون. وداخل باب توما 11. حارة المنجنيق (الجبنيق) 12. حـــارة القيمـــرية. ثـــم غربيها بشمال 13. حارة الشلاّحة 14. حارة البدرائية. ثم قبليها 15. حارة الخضرا وبها القليجية ولم يبقَ منها إلا الواجهة. وأراد سيدي نائب دمشق أن يخربها ويضعها في المدرسة التي بناها خارج باب الجابية فمنعه أهل الخير. وخلفها قبة فوق قبر الواقف. وكانت هذه القليجـــية مجـــتمع الفـــضلاء والعقـــلاء للاستشارة إذا دهم أهل دمشق أمر مهم 16. حارة الهنود الـــشلبية. وهـــناك دور خلفاء بني أمية، 17. حارة الأندار. داخل باب الفرج 18. حارة الضاهرية. داخـــل بـــاب الفـــراديس 19. حارة مسجد الرأس خارج دمشق. 20. حارة الغراوية خارج باب كيـــسان. وشرقيها 12. حارة الحمالين 22. حارة المخاضه 23. حارة القيشاني 24. حارة الملاّح وشـــماليها 25 حارة الشيخ رسلان. ثم 26 حارة عين الحمَّة. وقربها 27. حارة السبعة. وشرقيها 28. الفرّابين. وشرقيها 29. الشرش. ثم 30. حارة العنابة. ثم 31. حارة بيت الأهة. ثم 32. حارة حكـــر الآسية. ثم 33. حارة شطرا (سطرا) ثم 34. حارة بير الروبض. ثم 35. حارة الجهينية، ثم 36. حـــارة دار الطعـــم. ثـــم 37. حـــارة عين اللؤلؤة. ثم 38. حارة بير الأكراد. ثم 39. حارة الـــسليماني. ثم 40. حارة مرج الدحداح. ثم 41. محارة الجرن الأسود. ثم 42. حارة الجموسية. ثـــم 43. حارة السميرية. ثم 44. حارة حكر الجلال. ثم 45. حارة باب الخوخه. ثم 46. حارة ابن صبح. ثم 47. حارة حضيرية شتمر. 48. حارة سوق ساروجا. ثم 49. حارة حمام العدد ثم 50. حارة الديلم. ثم 51. حارة السودان ثم 52. حارة خان الكجحانية. ثم 53. حارة حدرة ملكاس. ثم 54. حارة البغيل. ثم 55. حارة زقاق القصاصين. ثم 56. حارة خان الظاهر. ثم 57. حـــارة عين دار البطيخ. ثم 58. حارة زقاق الشعيرية. ثم 59. حارة الشرف القبلي. ثم 60. حـــارة حمـــام الناصري. ثم 61. حارة المنيبع. ثم 62. حارة القصر. ثم 63. حارة السلاوية (الـــسلارية؟) غربـــي جامع تنكز. ثم 64. حارة جامع العداس. ثم 65. حارة الحكر. ثم 66. حـــارة جانبك الجفون. ثم67. حارة الهنكامة (البنكامة؟). ثم 68. حارة القنوات. ثم 69. حارة الخلخال. ثم 70. حارة المزار. ثم 71. حارة الشويكة." انظر: شمس الدين محمد بن طولون الصالحي (ت: 953هـــ/1546م)، حارات دمشق القديمة، في حبيب الزيات، الخزانة الشرقية، ج2، ص ص 22- 43، بيـــروت، المطـــبعة الكاثوليكية، 1937م. وقد نشرت هذه النبذة في مجلة المشرق، العدد35، ص 33، 1937م.

(1) زاك، دمشق، ص 78-79.

قـــد تبدو الحارات عالماً مستقلاً، لكنها غير ذلك؛ فقد أقامت علاقات فيما بيـــنها لتـــضمن تأمين المؤن، واتحدت كثيراً في مواجهاتها السلطة أو في احتجاجها علـــى فـــساد الأحوال[1]، أو انعدام الأمن وانتشار الجريمة، وبرزت بعض الأحياء الدمشقية كما في المدن العربية المعتقة في العصر العثماني[2] باعتبارها خلية اجتماعية رئيسة للمدينة ومسرحاً للتفاعل اليومي الذي لا يلغي الخصوصية، فالمكان مراقب تماما ولا يستطيع أي زائر من خارج الحارة أو الحي الولوج إلى الداخل إلا بعد أن يقابـــل زعـــيم الحي أو عقيد الحارة وشيخها، وكل ما ينافي الشرع نجده في كتب اليوميات أو في السجلات الشرعية.

يزخـــر الـــسجل الـــشرعي بقـــضايا فساد الأخلاق في المحلات والحارات الدمـــشقية[3]، الـــتي يأخذ فيها أهل العرض أو الوجهاء والعلماء دورا أخلاقياً في مواجهة الفساد، وتقديم الشكوى لقضاة الشرع للدفع بهم من أجل إصدار أحكام شـــرعية توجب إخراج أهل الفسق والفجور أو طرد النساء اللواتي يتصفن بالشر، وممـــا ورد في أحـــداث القرن السابع عشر "حضور جماعة من محلة المحملية زقاق المسلخ واحضروا معهم الحرمة ميسون بنت محمد الحمامي وقرروا في دعواهم عليها أنها ساكنة معهم وأنها شريرة ومؤذية ويريدون إخراجها.."[4] و"اشتكى أهالي محلة الـــسويقة في القرن الثامن عشر، إلى القاضي الشرعي بحق امرأة تسكن معهم ثبت أنها فاسدة في أخلاقها، ويريدون إخراجها"[5].

وعـــن حدوث الجرائم فإن الحارات تكون عرضة للعسف والتفتيش من قبل موظفي السلطة يقول ابن طولون: "في ليلة الخميس حادي عشرة، بعد العشاء، جاء

---

(1) ابـــن كـــنان، الحوادث، ص 512، يقول ابن كنان: "وفي يوم الإثنين سكرت الناس الحوانيت أكثرها..."؛ البديري، حوادث، ص 63.

(2) للمقارنـــة مع القاهرة مثلا انظر: أندريه ريمون، القاهرة تاريخ حاضرة، ترجمة لطيف فرج، دار الفكـــر لدراســـات والنشر التوزيع، ط1، القاهرة، 1994م، ص 236. وعن مقاربات مع مـــدن عربية أخرى. انظر أيضاً: أندريه ريمون، المدن العربية الكبرى في العصر العثماني، دار الفكر لدراسات والنشر التوزيع، ط1، 1991م، القاهرة.

(3) سجل شرعي 148، حجة 234، ص 134، 12 صفر 1172هـ/1758م

(4) سجل شرعي، 18، حجة 215، ص 137، 20 ربيع الأول 1101هـ/1689م.

(5) سجل شرعي، 148، حجة 413، ص 180، 20 شعبان، 1170هـ/1756.

شخص حموي، من جيران عريف الحارة الشرقية من صالحية دمشق، إليه، وقال له: الشهاب الصفراني يطلبك حتى يخبرك عن بعض الحرامية.. فذهب معه، فلما انفرد به في الزقاق الضيّق بها، بطش به فقتله وهرب، فاستفاق على ذلك امرأة مكسّحة وبه رمق، فجاءت هي والصلاح الباعوني، وأشهدوا عليه أنه قتله صبيّه، ثم علم أهل تلك الحارة الغربية بذلك، فعزلت حوائجها، وأخبطت الصالحية من الشرق خبطة هائلة... "[1].

وبرغم ما يقدمه الخبر السابق من نموذج لتعامل مع الحارات، إلا أنه يشير أيضاً إلى تنظيماتها وسلطاتها، حيث يأخذ العرفاء دوراً مهما في اللحظات الحرجة، ومع ذلك تظل الحارات المكان الذي تحرص فيه السلطة على إظهار قوتها وهيبتها وسلطاتها وانتصاراتها ففي يوم السبت مستهلّ ذي القعدة سنة 926هـ/1519م، وبحسب راوية ابن طولون: "وصل إلى دمشق خمسة أحمال من رؤوس الفرنج المقتولين بساحل بيروت، وفرّقت على الحارات، مثل الصالحية، وميدان الحصى، والقبيبات، والشاغور، وحارة النصارى، وحارة اليهود عند بستان القط، وحارة السمرة فوق العنابة، واستمرت إلى أن أكل غالبها الكلاب.."[2].

وحين تكون المدينة على موعد مع حدث كبير أو مناسبة دينية، يجري إعلام عرفاء الحارات وكبارها، إذ يذكر ابن الحمصي أنه في سابع عشرينه شهر صفر سنة (927هـ/1520م)"عرض أمير الحج العساكر وأهل الحارات المشاة بالمرجة فنادى أنه لا أحد يتأخر من أهل الحارات"[3] ويضيف: "وفي يوم السبت رابع عشرينه جمع مشايخ الحارات بالجامع الأموي وحلفهم أن يقاتلوا معه، وأن لا يخونوه وأن يكونوا على كلمة واحدة"[4].

---

(1) ابن طولون، مفاكهة، ج2، ص 100- 101. وفي تمام الخبر "ثم ذهب أكابر الصالحية، كالقاضي أمين الدين بن عبادة، مع عريف حارتها لغربية عبيد، آخر الليل، إلى النائب، وأخبروه بما وقع، فأغتاظ بسبب ذلك، ثم قال: حيث علم قاتله ادفنوه وتتبعوا غريمه، ثم أرسل بكرة النهار يوم الخميس نادى في الصالحية بالأمان؛ والله لطف بأهل الصالحية، حيث علم القاتل، وإلا كان النائب حصل منه الضرر لأهلها، لأن له أياماً يتهددهم".

(2) ابن طولون، مفاكهة، ج2، ص 122.

(3) ابن الحمصي، حوادث الزمان، ص 542.

(4) ابن الحمصي، حوادث الزمان، ص 543

وفي حـــال وقعت أعمال سلب يجري أيضا جمع أئمة الحارات، الذين يتضح دورهـــم الاتـــصالي المهم مع أهالي الحارات وضبطهم لإيقاعها الحارات ففي سنة 1171هـــ/1757م، أمر الباشا بإحضار أئمة الحارات "وأمرهم أن يكتبوا أن جميع الذي نهب وسلب رده الباشا في الحال..."[1].

في السجل الشرعي تبدو تفاعلية أهل الأحياء ايجابية حين تستدعي بعض القضايا تـــدخلا مباشرا من السلطة، من اجل قمع الفساد وانحلال الأخلاق، وهنا يتخذ أهالي المحلات دورا جماعيا في الشكوى للسلطة، التي تستجيب بشكل مباشر ومن ذلك:

[.. احـــتجاج سكان محلة المرحوم الملك الظاهر بدمشق وغيرهم على الدخلة الواقعة بالمحلة المرقومة بزقاق المدرسة العزيزية تجاه دار الترزي الواقعة بين مدفن الملك الجليل الـــسلطان صـــلاح الدين، احتجوا بأن بعض رجال الفسق والفعل القبيح يأتون إلى الدخلة ببنات الخطأ من النساء ومن فواحش الغلمان واتخذوا المحلة المرقومة مجمعا... فأذن سيدنا المشار إليه بسد الدخلة المذكورة..][2].

تقدم حارة النوفرة المحاذية للجهة الشرقية من الجامع الأموي نموذجاً للاختبار الثقافي في إطار الصيرورة التي يمنحها إياها الموقع الحيوي، وهي من حيث المكونات الفراغية كانت تشمل حماما وفوار ماء ودرجاً ومقهى ما زال عاملاً حتى اليوم وفيه ورث الحكـــواتي أبـــو شادي من أسلافه ممارسة مهنته الحكواتي لما لها من دور في التـــسلية والترويح عن زبائن المقهى، ومقابل المقهى كان هناك حمام النوفرة، الذي تحول اليوم إلى مقهى[3].

توفر الساحة المحاذية لمقهى النوفرة والتي تحوي على فسقية ماء بها عامود قديم يـــرتفع منه الماء إضافة جمالية للمكان وبعدا هندسيا خاصا وقد وصف ابن كبربت في القـــرن 11هـــ/17م فوار النوفرة بقوله: "ومن محاسنه الفوار الذي على باب جيرون، فإن ماءه يرتفع نحو قامة ونصف في الساق دائماً وأبداً"[4].

---

(1) البديري، حوادث، ص 216.

(2) سجل شرعي، 133، حجة 370، ص 188. 5 شعبان 1164هـ/1750م.

(3) في زياراتنا المتكررة لمقهى النوفرة، يبدو أن المقهى المقابل له والذي تحول عن وظيفة بنائه الأصـــلية كحمام لا يبلغ من الشهرة ما لمقهى النوفرة، حتى أن زبائنه أقل بكثير من النوفرة. من زيارات لحارة النوفرة في صيف عامي 1997 و2000 و2008م.

(4) ابـــن كبريت، محمد بن عبد الله الموسوي (ت: 1070هـ/1659م)، رحلة الشتاء والصيف، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، تحقيق محمد سعيد الطنطاوي، ط2، 1385هـ/1965م، ص 217.

تلـــك الـــساحة تمثل مجالاً مناسباً لالتقاء الناس القادمين من جهة باب جبرون في ظهـــر الجامـــع الأموي والمارين في سوق القبابية[1] والمتجهين إلى الشرق حيث حارة القيمـــرية، ويرى دورتيه زاك أن مركز النوفرة المفصول عن الجامع الأموي فقط بدرج المعبد القديم عند بابه الشرقي الذي يعتبر ثانوياً بالنسبة للباب الغربـــي الموجه نحو سوق الحميدية، ويعبر تعبيراً صادقاً عن استقلال الحارات إزاء المركز الرئيسي للمدينة[2].

ويبدو أن فرضية إيكوشار ولوكور القائلة بأن وجود الحمام والمسجد والمقهى مـــن أهـــم مراكز الاستقطاب الرئيسة في الحارة، يمكن أن تصح على حي النوفرة الـــذي يمـــثل بقية الأحياء الدمشقية القديمة، فالحمام والمقهى والجامع كما في أي مدينة مشرقية مركز الحياة والحراك وتبادل اللقاءات[3].

يشكل فوار النوفرة – المتكون من بحرة بسيطة ثمانية الشكل تتوسطها نافورة مياه حجرية ثمانية الأضلاع تخرج المياه من ثقب بوسطها بشكل دائم الجريان وهي ذات بـــناء متصل عضويا مع الأرض المرصوفة بالحجر الأسود البازلتي[4] – نموذجاً للتفاعل مع فراغ الحارة، إذ جاء سبيل الماء ليشكل جزءاً هاماً من عناصرها فأعطى فـــراغها بعداً رابعاً هو بعد الحركة إلى جانب الأبعاد الثلاثة لكل حجم في فراغات العمـــارة، وأضاف فوار النوفرة عنصراً جديداً إلى جانب المقهى والحمام، إذ يكسر جمـــود الحارة، وإذا ما جُمع صوت الماء في بحرة النوفرة إلى صوت الماء في أراكيل المقهـــى وضـــرب النرد فإن ذلك يعني انكسار الجمود والتأثير نفسياً على المارين بالحـــارة الـــذين يقفون لشرب الماء ومن ثم قد يدخلون المقهى أو يتحلقون وهم يدخنون النرجيلة حول البحرة.

---

(1) ويقـــع الـــيوم فـــي الجهة الجنوبية من الجامع الأموي، وكان من قبل موقعه شمالي الجامع الأموي داخل باب الفراديس. انظر: لعلبي، خطط، ص 448، سجل 38، حجة، 36، ص 23، 13، شوال 1130هـ/1725م." لدى مولانا ... استأجر محمد بم علي، الدكان الكائن في سوق القبابية داخل باب الفراديس...".

(2) زاك، دمشق، ص 77.

(3) إيكوشـــار ولوكـــور، حمامـــات دمشق، ص 10. والحمام المقابل للمقهى الذي عرف بحمام النوفرة تحول اليوم إلى مقهى.

(4) حـــول ســـبيل النوفرة انظر: عبد الرحمن بن حمزه لنعسان، سبل المياه في دمشق القديمة، المعهد الفرنسي للشرق الأدنى، دمشق، 2008م، ص 55.

وليس بعيداً عن فوار النوفرة قامت في الزقاق الصغير المؤدي إلى حارة القيمرية حوانيت صغيرة تقود إلى حارة القيمرية، وإلى اليسار يمر الزائر بزقاق الشيخ بكري العطار (ت: 1320هـ/1902) المؤدي إلى حارة العمارة الجوانية وفي الزقاق اليوم مشاغل يدوية للنسيج[1].

يفتح المقهى طوال أيام السنة، في الشتاء يستقبل الزبائن من خارج الحي، وتتسع الحجرة الصغيرة التي يرتفع بها كرسي الحكواتي إلى زبائن الحي المواظبين على الحضور، أما في الصيف فيعج المدخنون بالمكان، وقد يضطر بعضهم للجلوس على الدرج.

هذا المقهى كغيره من مقاهي المدن العربية في العصر العثماني[2]، في الصباح يتنوع الزوار، قد يكون من بينهم مسنون مواظبون على المجيء، وثمة عاطلون من العمل يلعبون الورق، وبعد المغرب يبدأ الزبائن الدائمون ممن يعملون في النهار بالورود، وفي زاوية مدخل المقهى من جهة اليمين ثمة مصطبة مرتفعة، غالبا ما يكون جلساؤها زبائن دائمين.

يقدم "النوفرة" نموذجاً للمقهى والحارة معاً، إذ إن ثمة خطاً ناظماً للزبائن الذين يعرفهم جيدا صاحب المقهى اليوم، الذي ورثه عن والده وهو محمد أديب الرباط أبو شادي[3]، كما يستطيع الزائر أن يميز بين الحضور الحرفيين والتجار، يركن الجميع إلى المقهى الذي تلتقي فيه أخبار الحارة في حالة تواصلية ودودة، طورها الدمشقيون مع مقاهيهم التي يستقبلون بها ضيوفهم أحياناً.

يستمع الزائر إلى عبارات النادلين، ومنها شاي "كروك عجم" "وشاي مخصوص" "وسادة أو وسط" إشارة إلى حلاوة القهوة، وفيما لا تظهر فوارق بين النادلين إلا أن وجود شاشة تلف خصر بعضهم في مقهى النوفرة أو في مقهى الروضة أو في مقهى الكمال الصيفي الواقع لصيق مقهى الهافانا، تعني أن ذاك هو الأسطة أو المعلم كما يقول معتز العلبي كبير النادلين في النوفرة[4].

---

(1) من زيارات متتالية لزقاق البكري خلال فترة الدراسة طوال عام 2008م.

(2) للمقارنة مع مقاهي بيروت، انظر: خالد زيادة، حارات الأهل جادات اللهو، دار النهار، بيروت، 1995م. ص 34-35.

(3) مقابلة مع السيد محمد أديب الرباط أبو شادي، دمشق 2008/10/3م.

(4) مقابلة مع معتز العلبي أبو النور، دمشق تاريخ 2008/10/3م.

II

الحكاية: بنيتها ومعطياتها الثقافية

يمــدنا التراث الدمشقي، بأنواع من التراث السردي الحكائي، فهو يضع أمام الـباحث خـيارات عدة من الحكايات التي تتطور حتى تنتقل بالمستمع بين النوادر أحياناً والغرائبيات والعجائب أحيانا أخرى، وقد تكون واقعية، لكن مرور الوقت تـدخل علـى روايتها إضافات بفعل التقنيات السردية للرواة أو الحكواتية، وعند النظـر في الحكايـات الشامية، لا بدّ من التمييز بين الهادفة التي تسردها الأمهات والآباء في البيوت لأطفالهم، وما يسرد على الملأ في المقاهي لغرض التسلية.

ومـن خـلال فحص لمجموعة كبيرة من الحكايات أمكن حصر نماذج مختلفة مـنها والتي يمكن أن نطلق عليها حكايات البيوت، وغالباً ما يجري سردها لأجل ترسيخ قيمة ما عند الأطفال، أو لغايات تربوية أو وعظية. ويمكن النظر إلى نماذجها في الجدول التالي الذي يكشف عن دلالاتها وسماتها الفنية:

المكان	القصة	دلالة الاسم	الراوي	السمات الخارجية	السمات الأخلاقية
الميدان	زهر الرمان[1]	الجمال والرقة	امرأة عجوز	الغابة، غزلان، دم، العصا، الواعي، الظلام، الخالة، عصى سلحرة، شعر	الخوف، التعطش للدم، السخاء، العقاب، الكيد والمكر، الانتصار للخير.. الخ
الميدان	البنت الصالحة[2]	الخير والصلاح	امرأة عن جدتها	قرآن، السمان، الخرزة، الجارية. المؤذن، الصلاة، القهوة.	مكر النساء، السعادة بالمرأة الصالحة والبساطة.
زقاق رستم	الأب الظالم[3]	الظلم والعسف	امرأة عجوز	الملك، ضفدع، شيخ وقور، الصوف، الصباح	جزاء الظالم القتيل استخدام الحيلة لمواجهة الظلم..

---

(1) الأسود، الحكايات الشعبية الشامية، ط1، مطبعة خالد بن الوليد، دمشق، 2003م، ص 18-21.

(2) الأسود، الحكايات الشعبية: ص 22-25.

(3) الأسود، الحكايات الشعبية: ص 30-32.

المكان	القصة	دلالة الاسم	الراوي	السمات الخارجية	السمات الأخلاقية
الميدان	الولد علي[1]	عدم الإدراك	امرأة	عصا، الماء، البقرة، النار	الخنوع وممارسة العقاب والتعطش للطاعة
الميدان	المعلاق[2]	الجوع	امرأة عجوز	امرأة فقيرة، قصاب كلب، الجارة، خياط، فرس	الواقعية الاجتماعية، الحسد، الانتصار للخير على الجشع والحسد..
الشاغور	جرة الملح[3]	العطاء والصبر	امرأة	رجل فقير رجل غني، جرة، صياد	صراع الفقر والغنى واقعية اجتماعية، والعطاء في مواجهة شر الآخرين.. الخ
الصالحية	الفقير والملك[4]	البساطة ونقيضها	من مجموعة آل الحنبلي	ملك، فتاة، رجل فقير، فلاح، خاتم.. الخ	الإخلاص في الطلب، جزاء الإحسان إحساناً.
العمارة	الليرة[5]	المثابرة والكدّ	امرأة	فلاح فقير يزرع أرضه، أم تخشى ابتعدا ابنها، ليرة ذهب، المدينة كعالم يمنح الأرزاق.. الخ	ترغيب الشباب بالعمل وتكريس قيم اجتماعية ايجابية، ورفع الفقر بالعمل.. الخ
الصالحية	كيد النساء[6]	الطمع بسبب المظاهر	رجل عن أمه	تاجر قماش يطمع في الزواج من بنت بسبب ثرائها.	حب المال، الطمع، واقعية اجتماعية، المال زائل بزوال أسبابه... الخ
حكاية شائعة	السمان[7]	الشر زائل لا يدوم	غير محدد	سمان قنوع طيب النية، زوجة تستغل طيبته تعشق رجلا آخرا غيره، صاحب الزوجة الذي يبع الدجاج، سفر إلى مصر وغدر في الطريق ومكر النساء في مصر	الإخلاص في النية، مواجهة الأقدار الصعبة بالكد والعمل، الصبر على الدنيا، انتصار الحق بجزاء الخائن بالقتل

(1) الأسود، الحكايات الشعبية، ص 38-39

(2) الأسود، الحكايات الشعبية، ص 57-58.

(3) الأسود، الحكايات الشعبية، ص 89-90.

(4) الأسود، الحكايات الشعبية، ص 201-203.

(5) الأسود، الحكايات الشعبية، ص 101-102.

(6) الأسود، الحكايات الشعبية، ص 192-193.

(7) الأسود، الحكايات الشعبية، ص 229-233.

أمـــا عن بنية الحكاية الدمشقية فقد، أشار صاحب قاموس الصناعات الشامية إلى أن الراوي "قبل الحكاية يحكي لهم مقدمة تسمى بالدهليز"[1] وهذا المقدمة كما سـيقدم لنا نموذج حكاية "الفقير والملك" ربما يكون لها علاقة بالغاية التي تقصدها الحكايـة، أو بالقـيمة التي يحملها النص. ويبدو أن الحكاية التي تسرد في البيوت اتـسمت بطابـع الاختصار والاقتضاب، على عكس الحكاية الشعبية المطولة التي تحكى في المقاهي.

ويمكن هنا أن نقدم نموذجاً عن حكايات البيوت، وهو حكاية "الفقير والملك" التي تنسب إلى تراث حي الصالحية وهي كالتالي:

مقدمـة الحكايـة [المـال الحـلال، لا يحرق ولا يغرق. والرجل الطيب، لا تضيمه شدة ..]
دهليز الحكاية: [.. الصبر معنا، وقالوا معنا، على شاب لطيف خفيف، يفهم المعنى ... والدّهر دولاب، يوم معكم، ويوم معنا. دقيت باب الجناين، ردّ عليّ باب الدير، طلع لي ولـد مغربـي، حلو يرمي الطيّر الطائر .. يا شاريّن الأصيل ... يا راكبين الخيل .. ردّوا لي شوقي .. لم يبق لي حول ولا قوة.]
نـص الحكاية: [.. كان ياما كان حتى كان، كان في قديم الزمان، زوجان يعيشان في شـقاء وعذاب، فقد كانت الزوجة شريرة، تعذب زوجها، ونكيد له، حتى اضطرته في النهاية إلى تركها والسفر إلى بلاد بعيدة. جلس هذا الشاب الصالح في مسجد، في بلدة نائـية، يـصوم ويصلي ويتعبد ربه، معتكفاً فيه. فكان الناس يحسبونه فقيراً، فكان كل مـنهم يعطـيه مالاً، فكان هذا الرجل الكريم، يأخذ ما يأتيه من مال، ويتصدّق به على الفقـراء والمساكين..! إلى أن سمع به الملك ذات يوم. فاستشار وزيره، وقال له: إني سـمعت عن هذا الرجل قصصاً كثيرة.. وإني أبحث لابنتي عن زوج مثله.. عن زوج كـريم صـالح.. فمـا رأيك أن أقرّبه مني، وأزوجه من ابنتي، وأجعله صهري؟ فقال الوزيـر: نعـم. استدعى الملك الرجل وقال له: ماذا تعمل؟ فأجاب الرجل: إني تاجر! فقـال الملك: أتتزوج ابنتي؟ قال الرجل: نعم.. أتزوجها.. فأقيمت الأفراح والاحتفالات فـي المملكـة، وأصبح الرجل أميراً وزوج ابنة الملك. وبعد شهور من الزواج سألته زوجته: أين قوافلك التجارية؟ إنها لم تحضر حتى الآن! فكان يقول لها: علمها عند الله، فربما حدث لها حادث. وبعد مدة من الزمن، قال الوزير: يا ملك الزمان! مرت الأيام، ولـم تحضر القافلة! لو سألت ابنتك، يجب أن تسأل زوجها، ما أخبارها؟ وأين قوافله التجارية؟ في المساء، سألت ابنة الملك زوجها عن قوافله التجارية.. فصارحها قائلاً:

(1) القاسمي قاموس، ج2، ص 449.

يــا امــرأة إني رجل فقير، لا أملك شيئاً.. وقد كنت فيما مضى أعمل تاجراً فقالت له زوجــته: اقــبل نــصيحتي، وسافر، قبل أن يكتشف أبي الملك أمرك، ويعرف الحقيقة فــيقطع رأسك... وسافر الرجل هارباً، فرأى فلاّحاً يحرث أرضه بالبغال. فقال له: أنا عطشان، أعندك نقطة ماء أبلّ بها حلقي؟ فقال له الفلاح: نعم. انتظر لحظة لأحضر لك المــاء، وأحرث عني أرضي. وبينما كان الرجل يحرث الأرض، علق المحراث بحلقة كبيرة. فرفعها الرجل فرأى حفرة تحتها. فمد رأسه في الحفرة فرأى خاتماً، فوضعه في إصــبعه، وهو يمسحه، فظهر أمامه عبد أسود وقال له: شبيك لبيك عبدك بين يديك!! فقــال لــه الرجل: أريد سبع صوان من الذهب، وسبع صوان من الألماس، كما أريد ســبعين عــبداً. فلبى العبد الأسود طلبه. جاء الفلاح وبيده كوز ماء، فدهش وهو يرى الــرجل ومــن حوله حاشيته. قال الرجل للفلاح: تعال إليّ لأشرب. فشرب، ثم أعطى الفــلاح كيــساً مــن الذهب. ورجع إلى الملك وإلى زوجته مكرماً، ومعه حاشيته من الغلمان والعبيد. وعش عيشة الأغنياء. طيب الله عيش السامعين][1].

يبدو واضحاً من الحكاية دلالة النوع الذي تمثله، من خلال مدار أحداثها، وشخوصــها الخــرافيين والحقيقيين، إنها تنتمي إلى ذلك النوع من الحكايات المــسمى بالحكاية العجيبة[2] التي تقدم دلالة على نوع سردي شعبــي. حيث الــرجل الفقير هو البطل الذي يدعي أنه تاجر، وهناك الزوجة الشريرة، وهي الشخصية التي تسهم في إبعاد الرجل الفقير عنها، ولجوئه لأحد المساجد، ومن ثم طلــب الملــك له ليزوجه ابنته، التي يتزوجها الفقير، وحين يكشف حاله لها تدفعــه ثانية للهرب، وفي أثناء هروبه يلتقي الفلاح الذي يحرث الأرض ويجد الخــاتم الــذي يحل له العبد الأسود الخارج منه كل مشاكله، هي إذن حكاية أقــرب للقصص ليس فيها زمن مقدس، ولا مخلوقات عجيبة، كما أن أحداثها تدور بشكل واضح بلا ألغاز أو تمويه.

تظهــر الحكاية الشعبية في المقاهي مختلفة نوعا ما، إذ أشارت المصادر إلى أن عُــدة حكواتيي دمشق التراثية السردية، كانت تستلزم الإلمام بالتاريخ، ومن ذلك سيرة الظاهر بيبرس وعنترة بن شداد وسيف بن ذي يزن[3] كما كان يلزم الحكواتي

---

(1) الأسود، الحكايات الشعبية، ص 201- 202.

(2) يمكــن إحــداث مقارنــة بين أنواع السرد في المشرق والمغرب بين نماذج دمشقية ونماذج مغربية، انظر دراسة، مصطفى يعلي، القصص الشعبي دراسة مورفولوجية، المكتبة الأدبية، الدار البيضاء، ط 1، 1999م، ص 49.

(3) البديري، حوادث، ص 34. ويشير البديري إلى أنهم قدموا من حلب وكانوا من اليهود.

المعرفة بالشعر والنوادر وإبداء اللطائف[1] ويمكن القول استنادا إلى دراسات حديثة أن سـيرة الملك الظاهر بيبرس كانت إلى جانب قصة عنترة بن شداد وقيس وليلى الأكثـر رواجـا، وقـد أدى تكرار الرواية إلى ابتداع سيرة شعبية بحسب الرواية الـشامية، وهـي بطبيعة الحال ومع مرور الزمن كانت قابلة للإضافات التي تُظهر اختلافها عن السيرة الحقيقية[2].

تقـدم سـيرة الملك الظاهر بيبرس الشعبية[3]، صورة إيجابية تعكس في ثنايا مـشاهدها العلاقـة التي ربطت بيبرس بأهل الشام، وتصور الظاهر بيبرس بالملك الحلـيم صـاحب القلب الواسع، وهي كأي سيرة شعبية خضعت لمدخلات فنية وخـيال الرواة الذين يمزجون بين الغرائبـي والعجائبـي، فمثلاً هناك حديث عن شـرب السلطان للقهوة وضيافته في الأسواق، علماً أن القهوة لم تكن موجودة في زمن السيرة الحقيقية[4].

تعكـس مجالس الملك الظاهر بيبرس في سيرته الشعبية الشامية، صورة إيجابية لـه، فهو ذو قلب واسع، يسمع الناس ويميل إليهم، ونترك للنص التالي أن يعكس صورته دونما تصرف بها.

---

(1) المرادي، سلك، ج2، ص 155؛ القاسمي، قاموس، ج1، ص 112.

(2) نالـت شخـصية الـسلطان الظاهـر بيبـرس اهـتماماً كبيراً من مؤرخي القرن السابع الهجـري/الـثالث عـشر الميلادي، وخير من مثلهم المؤرخ المصري أبو الفضل عبدالله الـشهير بابن عبد الظاهر بالقاهرة (ت: سنة 649هـ/1250م) فقد فسر غموض شخصية الظاهر بيبرس وسرد أخبارها بشكل متقن وذلك في كتابه الشهير: "الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر". انظر: أبو الفضل عبدالله الشهير بابن عبد الظاهر بالقاهرة (ت: 649هـ/1250م) الـروض الزاهـر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق: عبد العزيز الخويطر، ط1، الرياض 1976م.

(3) مـنذ العام 2000م بدأ المعهد الفرنسي للشرق الأدنى وعبر فرع الدراسات العربية في دمشق وبتعاون جاد مع مؤسسات بحثية أخرى، وبجهد كبير للمحققين جورج بوهاس وكاتيا زخريا باستعادة السيرة الشعبية للسلطان "الملك الظاهر بيبرس" وفق الرواية الشامية، وقد صدر من السيرة حتى الآن سبعة أجزاء.

(4) سـيرة الملك الظاهر بيبرص حسب الرواية الشامية، تحقيق جورج بوهاس وكاتيا زخريا، المعهد الفرنسي للشرق الأدنى، دمشق، ج 1، 2000م، ص 40، تقول السيرة: "فلما أصبح الصباح فز نزل يدور بمصر والتجار تسلم عليه، وهذا يعزمه يسقيه قهوة، وهذا يعمل له غداً ..".

ديوان عاصم ابن بحر المرقبي وامتحانه إلى الأمير بيبرص ومخاواتهم بالشام

قال الراوي: يا كرام، وحدوا ربكم ذو الجلال والاكرام! إن الأمير بيبرص ليلة من إحدى الليالي كان جالس بقاعته، وعنده رجاله والاغوات حواليه وقدامه، والباب يطرق، فركد العبد فتح ورجع للقاعة وجهه أصفر، **فقال بيبرص**: شو بك، ولا مرعوب؟ فقال له: يا سيدي، فتحت باب الخوخة وطلّعت، لقيت جني واقف، أطول من باب السراية الكبير!

قال: فضحك بيبرص وقام طلع على الباب، وجد شخص كما قال العبد، طويل القامة، وعريض الهامة، طول قصبة، عرض مصطبة، بين البز والبز يبرك الآدمي ويفز، وله دماغ كأنه جرن حمام، واكتاف مثل البطيخ اليافاوي. فقال له بيبرص: أهلاً وسهلاً! فقال له الشخص: هل هذا بيت الدولتلي بيبرص؟ قال له: نعم، تفضل. وفتح له الباب الكبير ومشى قدامه للقاعة، فلما دخل يرا الجماعة قاعدين، فقال لهم: العوافي يا هالربع! فقالوا له: أهلاً وسهلاً، الله يعافيك، تفضل استريح، يا مقدم! فقال لهم: بالله عليكم، من هو منكم الدولتلي بيبرص؟ **فقال له بيبرص**: أنا، يا مقدم.

قال: فطلّع فيه ومد يده رفع الشال من على جبينه نظر الجدريات، فصرخ: الله! حلو قلب صاحب الدولة! **فقال له بيبرص**: الله يحفظك، تفضل اقعد حتى نشوفك. فقال له: بعد، يا دولتلي، بعد. ومد يده إلى وراء ظهره وطالع قوس، ومسك كل طرف بيد، وحناه الرأس للرأس، وناوله إلى بيبرص، وقال له: خذ اعمل مثلي، يا دولتلي. فضحك بيبرص وأخذ القوس وحط رأس الواحد على برطاش القاعة، وحناه بيده الواحده، جاب الراس للراس، فصرخ الفداوي: الدوه على عزمك، يا دولتلي، والله، أنت صاحب البند والعلم، وأنا يا دولتلي، جايه إلى عندك حتى امتحنك، واسمي عاصم ابن بحر المرقبي، من قلعة المرقب، وموجود عند والدي ملاحم يقرأ فيهم، فبان معه ظهور جنابك بالشام، وعندنا دلائل بجفر سيدنا الامام على الخصام - رضي الله عنه - إنك تصير ملك، ونحنا بزمانك نكتب بديوان المغازيين المجاهدين في سبيل الله، فكنت سهران أنا وأبي في بعض الليالي، حكالي عن قصتك وأخبرني عن سعادتك، فتشوقت لرؤياك وقلت لأبي: أنا مرادي أنزل على الشام واستخبر عن الدولتلي واخاويه. فقال أبي: ولا بأس انزل وشوفه. فقلت له: كيف بدي أعرفه؟ فأشر لي عن السبع جدريات الذي على جبينك، وقال لي عنك انك جبار، فقلت له: إذا كان جبار امتحنه واشوف يقدر أن يحني قوس مثل ما أنا بحنيه. فقال أبي: أصبر حتى نستخبر هل أحد ظهران بالشام من جديد ومتبين بين الناس. فسمع بسيط جنابك، فأمرني أن أنزل للشام وأشوفك، فقمت حضرت وتمليت بشوفتك فرأيتك - ما شاء الله - كما موصوف عندنا بالملاحم! فقال له بيبرص: يا حلة البركات! تفضل اقعد خوذ راحتك. فقال له: لا يمكن أني اقعد بقاعتك ولا اذوق زادك، إذ لم تحط يدي بيدك وتخاويني بعهد الله شرط الناجي لا يتخلا عن أخاه[1].

---

(1) سيرة الملك الظاهر، ج1، ص 122-123.

يـــبدو الملك الظاهر في صورته متخيلاً، قابض على زمام مملكته، ورعاً تقياً، فهـــو على لسان الراوي "جالس يقظان غير ناعس ويسلم على النبـــي.. إلخ"[1]. وتـــصور الرواية الشامية للتخيلة مجالس الملك الخاصة على لسان الراوي ومنها "يا ســـادة يـــا كرام، وأما الملك فإنه بعد ما صلى العشاء، أتوا إلى عنده الندماء ساعة زمان وصرفهم ودخل المقدم عماد الدين بن علقم وسأله الملك عن طول غيابه.. ثم قـــال له احكي لي يا عماد الدين كم سنة غبت في هذه السفرة، فقال: أفندم 16 سنة، قال له: ما شاء الله غيبة طويلة.."[2].

ويكـــشف الـــنص عن محاسبة الملك لرجال ديوانه وبالأخص عماد الدين بن علقـــم، فهو وإن خضع لاستجواب على طيلة غيبته إلا أنه في نهاية الجلسة "قال: فتلبك عماد فقال الملك: تقدم، لا تستحي! فتقدم عماد وأكلوا وانبسطوا وشربوا القهوة، ثم بعث الملك إلى ابنه السعيد تذكرة أن يتعاطى الأحكام"[3].

من فوائد السيرة الظاهرية أنها تروي لنا كيفية تعامل العاملين في المرافق العامة مـــع السلاطين والملوك، ومن ذلك أن الملك الظاهر لما دخل حماماً للاغتسال ومعه مقدمه عماد الدين بن علقم، لم يتعرف إليه صاحب الحمام والعمال، لكن في حال التعـــرف علـــى الملك الظاهر أغلقوا الحمام "وحضروا الند والبخور وأطلقوا العود والعنبر وحطوا منشفة على باب المقصورة"[4].

وتظهـــر السيرة أن مصدر قلق الملك الظاهر هو "القان هلوون" والمقصود به هنا هولاكو، والغريب أن هولاكو في السيرة الشامية يبدو من أصل فارسي وليس مغـــولي، وهنا تروي السيرة كيف أظهر الملك قلقله وخوفه من هولاكو، وكيف اســـتطاع المقـــدم عماد الذي يبدو شخصية رئيسه فعلة في السيرة، أن يذهب إلى إيران وأن يظهر بأن أصله غير عربـــي وأنه عمل في خدمة الملوك، وأن اسمه حيدرة وكيف أعجب به القان وأعطاه عدة وظائف، وكيف تغلب عليه بالحيلة إلى أن أتى

---

(1) مهند مبيضين، السيرة الشعبية الشامية للظاهر بيبرس، جريدة العرب القطرية، 2008/3/4م.

(2) انظـــر: ســـيرة الملـــك الظاهر بيبرص حسب الرواية الشامية، تحقيق جورج بوهاس وكاتيا زخريا، المعهد الفرنسي للشرق الأدنى، دمشق، 2007م، ج7 ص 49.

(3) سيرة الملك الظاهر، ج7، ص 49-50.

(4) سيرة الملك الظاهر، ج7، ص 51.

به الملك الظاهر في دمشق، وهو مكشوف الجسم دون لباس بعد أن أذله عبر رحلة متعـــبة في دروب غرب إيران، وصولا إلى حلب ثم إلى حماه ثم حمص فدمشق[1]. وقـــد يـــبدو في ذلـــك الانتصار الهادئ المتخيل محاكاة لانتصارات الظاهر بيبرس الحقيقـــية بصحبة زميلة قطز على التتار في عين جالوت وعلى الصليبين في معركة المنصورة.

وتحـــرص السيرة على التنويع في رواية أخبار الملك التي تظهر التصاقه بالعامة والحرص على أداء الصلاة وإظهار لمراتب الاستقبال التي يحظى بها من قبل الأعيان والعلمـــاء [2] كما نجد حضورا للمنامات والأحلام [3] وبدون قصد بينت السيرة أهمـــية دور المقـــدم وهو منصب عسكري اضطلع بمهام سياسية في عهد السلطنة المملوكية.

وبالـــرغم من أن "الظاهر بيبرس" في الرواية الشامية هو غير الظاهر بيبرس في المـــصادر التاريخـــية التراثية والتي أشرنا إلى نموذجها مع المؤرخ ابن عبد الظاهر في كـــتابه "الـــروض الزاهر"، وبرغم الدور الذي يضطلع فيه الخيال في نسج الغرائب وتعظـــيم الأدوار في الرواية الشعبية الشامية التي هي مدار العرض هنا، إلا أن مثل هـــذا الـــنوع مـــن الأدب هام في سياق البحث عن الوعي المجتمعي لمسألة تاريخ الـــسلاطين وحياتهم، كما أن لغة النص تفيد في بحث الدارجة والعامية الدمشقية، وحـــتى اليوم يستطيع المرء أن يسمع شيئا من تلك السيرة في مقهى النوفرة وبعض المقاهي الشعبية القديمة في مدن عربية أخرى، فقد تعددت نسخ السيرة الظاهرية في حلب ودمشق والقاهرة وتوزعت مخطوطاتها، لذا فإن الاختلاف حول السيرة يظل قائماً.

ولأجل ذلك الافتراق بين سيرة تراثية محكمة في كتب التراث، وسيرة شعبية بلغـــتها العامية، يستدرك المحققان: "جورج يوهاس وكاتيا زخريا"، فيوضحان في مقدمـــة تحقيق السيرة[4] أن ثمة اختلافاً بين الواقع والخيال، وأن "بيبرس" في السيرة

(1) سيرة الملك الظاهر، ج7، ص 100- 106.

(2) سيرة الملك الظاهر، ج7، ص 284.

(3) سيرة الملك الظاهر، ج7، ص 293.

(4) سيرة الملك الظاهر، ج7، ص، 17.

الشامية ما هو إلا بطل خيالي، وهو بعيد في صورته عن الملك الظاهر بيبرس العلائي البـــندقداري الصالحي رابع سلاطين المماليك المولود سنة 625هـ/1228م والمتوفى سنة 767هـ/1277م.

III

حِرفُ الغناء والتسلية

تكـــشف وثائـــق سجلات المحاكم الشرعية وقاموس الصناعات الشامية عن حـــرف متعددة ترتبط بالفنون الدمشقية، والتي كانت تشكل في المناسبات الدينية والأفـــراح اليومـــية سبباً للرزق، أو تلك التي عُدت جزءاً من عمل بعض المرافق وبخاصـــة المقاهي والحمامات، ويستدل من وثائق المحاكم الشرعية وجود طوائف خاصـــة بهذه الحرف، كما يوضح الوصف الذي يقدمه قاموس الصناعات الشامية طبيعة عمل تلك الحرف وألقاب العاملين بها وترتيب عملهم، ومن هذه الحرف:

البرابيـــشي: يـــرد ذكره في السجل الشرعي، ومن برابيشي دمشق محمد بن حـــسن التركماني الذي كان يصنع برابيش الأركيلة في "دكانه في محلة الميداني"[1]، وحسب قاموس الصناعات الشامية "البربيش مفردة غير عربية، وهي آلة معلومة من آلات الأركـــيلة الـــتي يشرب بها التنباك، والأركيلة لها آلات معلومة وهي القلب والـــرأس المعمـــول من التراب المحروق وفيه أثقاب.." وينظر لحرفة لبرابيشي بأنها "متوسطة بين الخسة والشرف"[2].

الـــزّمار[3]: "هو من يغني بالقصب، وهما صنفان: من يسترزق بالتزمير بالقصب ويطـــوف بالأسواق على الدكاكين، فيزمر إما بشبابه أو شبابتين. أي قصبتين شدت إحـــداهما بالأخرى بخيط أو وتر قد ربط على فم قربة لها فم آخر إلى جهة فمه، فينفخ بالقـــربة حتى تعظم ويسد فم النفخ في صدره ويطلق هواها على الزمر المربوط، ويحرك أصابعه بأثقاب القصب بحركات مخصوصة على حسب إرادته[4].

---

(1) سجل شرعي 398 حجة 456، ص 257، 13 جمادى الآخرة، 1263هـ/1846م.

(2) القاسمي، قاموس، ج1، ص 42.

(3) سجل شرعي 220 حجة 35، ص 135 23 شعبان 1202هـ/1787م "لدى مولانا حضر علي بن حسين الزمار.."

(4) القاســمي، محمد سعيد (ت: 1284هـ/1876م). ومحمد جمال الدين القاسمي(1332هـ/1914م) وخلـيل العظم (ت: 1345هـ/1926م). قاموس الصناعات الشامية، تحقيق، ظافر القاسمي، قاموس الصناعات الشامية، ط1، دار طلاس، دمشق، 1988.

ويطـــوف الزّمار على القهاوي والأسواق، وتسمى الفرقة بالجعيدية، والزامر يقال له "جعيدي" ويعتمد أهل تلك الحرفة في كسبهم ومعاشهم على ما يقدمه لهم الـــناس أو أصـــحاب المحلات، والصنف الثاني: يطلق على من يصنع الزمامير من القصب كالشبابه وهي حرفة عرفت بها محلات متخصصة كسوق السنانية[1] الذي يظهر من إشارة القاسمي أنه "يكثر فيه اجتماع العرب، كالحوارنه لأن غالب بيعهم وتسببهم على العرب الفلاحين"[2]

تهليليجي[3]: تتميز التهاليل بالإكثار من التسبيح والدعاء، وتقديم الطعام وهي توصـــف بـــضاخمة ما يقدم فيه من الضيافات يقول ابن كنان في وصف أحدها: "وصار العدد سبعين ألفاً والابتداء من رابع عشر محرم إلى تاريخ ربيع الأول ستون يوما، وعشرة، وكانت سماطاً ومحلى آخر الليل وتفرقة على الخدمة والمنشدين على جاري عادة تهاليل أهل دمشق"[4].

يذكر السجل الشرعي حرفة التهليلجي[5] وبحسب وصف قاموس الصناعات لوظـــيفة التهليلي فهو ".. عنوان لرئيس الذاكرين في التهليله ولمن تحت يده أيضاً، ويقال لهم "الدُخّل" فبعد وفاة المتوفى يذهب وصيه أو ورثته إلى من يعمل التهاليل، مـــن بعض العلماء أو مشايخ الطرق، ويعطيه من المال حسب قدرته أو ما يتبرع به ورثـــته وذلك من الخمسمائة قرش إلى عشر ليرات، وربما زادوا عن ذلك إذا كان المـــتوفى تاجراً، فيأخذ شيخ التهليلة هذا المقدار ويشتري سمنا لقلي العوامة وطحينا

(1) نسبة إلى والي دمشق سنان باشا الذي حكم المدينة بين عامي 998-999هـ/1589-1590م، المقـــار، الباشـــاة والقضاة، ص 22 وأشار نعمان انقساطلي إلى السوق الذي كانت تنشط به تجارة الصابون والعلب. قساطلي، الروضة، 98.

(2) انظـــر: القاسمي، قاموس، ص 168-169. سجل شرعي، 31، حجة345، ص 230، 12، رجب 1121هـ/1709م "لدى مولانا... وجد السيد عمر بن محمد الزمار من طائفة الزمارين مقتولا..."

(3) ســـجل شـــرعي 41، حجة 234، ص 124، 4، شعبان، 1133هـ/1720م. "لدى مولانا ... ادعى محمد بن صالح التهليلجي على سليم بمبلغ..."

(4) ابـــن كنان، الحوادث، ص 451، وكان لكل شيخ من شيوخ الطرق الصوفية تهليلته الخاصة بـــه، انظـــر وصف تهليلة عبد الغني النابلسي، ابن كنان، حوادث، ص 452. وتهليلة الشيخ إسماعيل بن صداق الناشفي، ص 450.

(5) سجل شرعي 323 حجة 57 ص 35 3 جمادى الأولى 1247هـ/1831م. "لدى مولانا حضر يسن بن أحمد التهليلجي.."

مـن الجـنس العـالي. وقزيرة زيت الغاز وخشباً يابساً يسمى نقضا لسرعته في الاشـتعال تحت مقلاة العوامة، وسكراً ودخاناً ويرسل وراء قلاء العوامة، ويشترط معـه علـى العجين والطحين وعمله، فيحضر ويعجن من النهار في أطباق، ويبني كانـونه، وتهيأ له تنكة من السمن ويكون بيت الشيخ تهيأ بفرشه وترتيب أمكنته لجلـوس الضيفان والمدعوين، وتعلق المصابيح كما يكون قد دعا رئيس الذكر مع جماعـته، وهم نحو ستة أو أكثر وقد يدعى لها جماعة من المولوية حتى أذان العشاء يأخذ المدعوون وأهل الذكر ومن المدعوين الشيخ ومن جيران الشيخ وأهله يفدون لدار الشيخ... فبعد أن يلبث الجميع حصة يتناولون بها القهوة، تفرق أجزاء الربعة فـبعد أن تقرأ تمدّ إلى رئيس الذكر وجماعته فرش يجلسون عليها ويبتدئون بعملهم وتسمى "المسبحة الأولى' ويبقى الذكر نحو ساعة ونصف، والمنشدون من ورائهم ستة عشرة حسب، أهمية التهليلة ويضيفون إلى الأذكار كثيراً أناشيد "الششتري"[1] ويقـرؤون "الإكـرامية" ومـنظومة "الدردير"[2] بتمامها وتُرى ضجة المنشدين والذاكـرين وتـسمع مـن مسافة عشرين بيتاً أيام الصيف! وبعد انقضاء العمل يـستريحون بـرهة يشربون فيها القهوة. ثم يقومون إلى إعادة العمل السابق بعمل أخف يستمر نحو الساعة، ثم يستريحون أيضاً ويقومون بعد للوقوف فيذكرون قياماً أقـل مـن ساعة بأنواع من الأناشيد والهيام والتواجد. وتلبس جماعة المولوية وهم عشرة أو اقل لباسها الأبيض وتدور على الذكر ثلاث مرات في ثلاث ترويحات ثم ينصرفون.

ويخـتم رئيس الذكر ثلاث مرات وجماعته يرددون الذكر - المعروف بذكر الخماري - الذي هو الآمدية، ثم يختمون. ويدعو شيخ التهليلة، ويؤَمن الحاضرون على هذا الدعاء ثم يجلسون. ويكون أهل دار الشيخ قد هيأوا سفرة الطعام من بعد

---

(1) هو أبو الحسن علي بن عبدالله النميري الششتري، شاعر أندلسي ولد في ششتر، إحدى قرى جنوبـي الأنـدلس سـنة 610هـ/1213م درس علوم الشريعة وتبحر في الفلسفة وعلوم التـصوف: بدأ حياته تاجراً جوالاً واشتهر شاعراً وشاحاً زجالاً. توفي في مصر في دمياط، سنة 778هـ/1269م.

(2) مـنظومة أسـماء الله الحسنى لأحمد بن محمد الدردير (1127-1201هـ/1715-1786م) العدوي المالكـي الخلوتي فقيه مشارك في بعض العلوم ولد بصعيد مصر وتولى مشيخة الطريقة الخلوتية والإفتاء بمصر وتوفي بالقاهرة من تصانيفه أقرب المسالك لمذهب الإمام ملك.

المسبحة الأولى، وعدّوا لها من حضر تدريجا على حسب مقامهم، ولا يفرغ الذكر بتمامه حتى يأكل الحاضرون كلهم وينصرفوا تدريجاً، ثم يفرق الشيخ الجوائز على الذاكرين والمنشدين والمولوية ومن خدم".[1]

الحكواتي: وهو 'اسم لمن يحفظ الحكايات ويلقيها عن ظهر قلب كقصة عنترة، والملك الظاهر والملك سيف وحكايات مضحكة وغير ذلك، وله في كل قهوة مكان مخصوص لإلقاء الحكايات، وغالباً يبدأ بعد المغرب إذ يجتمع الناس في القهوة ويصغي لأقواله الناس مع السرور والانبساط، وفي الحكايات أمور مضحكة ونصائح، وهي من العجب ثم بعد إتمامها يشرع لهم في إتمام ما كان قدمه في الليلة الماضية؛ لأن الحكواتي يقف في محل من القصة تتطلب النفوس لإتمامها وبعضهم يتأذى لذاك القطع العظيم وذلك شطارة ومهارة من الحكواتي... والحكواتي لا يقتصر على عمل المقاهي بل يذهب إلى البيوت بأجرة مخصوصة، عند اقتضاء ليلة السرور"[2].

المضحك: "هو من يضحك الناس في أقواله وأفعاله ويسمى في اصطلاح الشاميين المهرج والمسخن، وينفق أمره عند الأكابر وأرباب البطالة المثرين المترفين".[3] ويلاحظ من تعبير القاسمي أن المضحك يذهب إلى بيوت الأكابر والخاصة، وهو ما يؤكد وجود نوع خاص من التسلية في فئة الأعيان، والمضحك يندرج تحت مفهوم الفكاهة التي تلازم المجتمعات.

طبال: ويقال له "المطبل"، وهو من يضرب على الطبل بكيفية معروفة يتوارثها أهلها بالتعلم من لمهرة فيها. وهي حرفة رائجة في قرى دمشق. وقد كان بدمشق من يعتني بها ويعرف بـ "المرفعجي"، ندر وجوده الآن لكراهة أهلها لهم. ولكنها لم تزل رائجة في القرى.

ويشير القاسمي إلى أن بعض أهالي القرى: "يتفننون الضرب على الطبل. ولكن الذين تفردوا بإتقانه هم - "القبط" - المعروفين بـ "النَوَ" بفتح النون والواو يضربون على الطبل بغاية الرشاقة، مع نقرات متواليات متفرقات لا تخلو من

---

(1) القاسمي، قاموس، ج2 ص 223.

(2) القاسمي، قاموس، ج1، ص 112. وانظر: المرادي، سلك، ج2، ص 155.

(3) القاسمي قاموس، ج2، ص 449.

طـــرب، خصوصاً إذا كان موجوداً مع الطبال "زمار"، وهو الذي ينفخ في الزمر، وقد اتخذوها حرفة يتعيشون بها؛ يدعون في الأعراس والختان لأجل الدق في الطبل طرباً وجمعاً لأهالي القرى وما جاورها، فلا يزال الطبال يضرب على طبله في غالب أوقات النهار، والرجال والأولاد آخذة في اللعب بالسيف والعصا وأوقات السرور المـــصطلح علـــيها عندهم ثلاثة أيام يمرحون ويلعبون، و"أبو ناعسة" - وهو أحد الـــنور - يلقي لهم أصناف السخريات المضحكة والألاعيب، حتى إذا دخل اليوم الـــرابع يـــزفون العروس لعريسها، وتتفرق تلك الجموع مع الطبال بعد أن يأخذ جائزته/من العريس"[1].

ويـــبدو أن لضاربـــي الطبول مواسم يدورون فيها ومنها في أيام الأعياد، إذ يتجولون في القرى ويطبلون ويعيّدون أهاليها، ومع أن العطاء أو الأجر على ذلك غـــير محدد، إلا أن القاسمي يشير إلى أن كل "شخص يعطيهم على قدره، وفي أيام جمـــع ثمـــر الزيتون، وثمر الزبيب، وقيام الأغلال من البيادر أيضاً يدورون ويغنون، فيعطـــيهم أصحاب الرزق كلٌّ على قدره وبالجملة هي حرفة دنيئة قبيحة إلا عند أهلها"[2] ويذكر ابن عبد الهادي سوق الدفوفين في دمشق الذي كانت: "تباع فيه الدفوف والطنابير"[3].

عجائـــبك عجائب: والمقصود به حامل صندوق العجب، ويحصل صاحب هـــذه الحـــرفة معاشـــه بواسطة صندوق مستطيل مزخرف ظاهره بأنواع الدهان "وبأحد وجوهه ثلاثة أو أربعة أثقاب متقاربة لبعضها يفصل بين كل واحدة مقدار ربع ذراع، والأثقاب مستديرة على حجم دائرة العين، مركب عليها بلور من الذي يـــستعملونه للمـــنظار؛ لأجـــل تجسيم المنظور إليه، وبطرفي الصندوق من الداخل لولـــبان، بكل طرف لولب، خارجة رؤوسهما من أعلى الصندوق، ملصوق بهما طـــرفا/قطعة من الورق القوي الشديد المصور بالصور المشكلة، طولها عشرة أذرع بعـــرض الـــصندوق، تلتف على أحد اللولبين، فإذا أدار اللولب الثاني يدور الأول وتلتف تلك الصور على الثاني، وهلم جراً.

---

(1) القاسمي، قاموس، ج2، ص 288.

(2) القاسمي، قاموس، ج2، ص 288- 289.

(3) ابن عبد الهادي، نزهة الرفاق، ص 80. في رسائل دمشقية، تحقيق صلاح الخيمي.

فـيحمل صاحب هذه الحرفة صندوقه - الذي هو رأس ماله - ويجلس به في مجـتمع العامة، فيهرع إليه الأولاد الصغار والبعض من العوام والفلاحون يتفرجون على هذه الصور من الأثقاب المار ذكرها، وهو يدير أحد اللولبين الفارغ، حتى إذا مـرت تلك الصور أجمعها والتفت على اللولب الثاني انتهت الفرجة، حينئذ يلقي الستائر على الأثقاب من داخل الصندوق فتحجب به الأثقاب والصور، فمن رغب أن يعيد النظر أو ينظر يدفع له الأجرة سلفاً، ومن اكتفى ذهب لسبيله، والأجرة لا تـزيد على خمس بارات، وقليلٌ من يتعاطاها هذه الحرفة، ولا يتعاطها إلا من ليس له حرفة يتعيش من كسبها[1].

قهـوة جـي: هـو قيم القهوة ومديرها والنادلون تحت إشارته، سواء أكان صـاحبها - وهو النادر - أو مستأجرها - وهو الغالب في دمشق العثمانية، ولا تقـف المقاهـي على القهوجي فقط، إذ يشير القاسمي إلى أن القهوجي يحتاج إلى أشـياء "لا يـتم أمـر القهـوة إلا بها"، وهي عدة القهوة، مثل كنبات وكراس وطاولات، مع أصناف الملاهي، من نرد وضومنا وشدة وياردو[2].

يـتطلب المقهـى مـن صاحبة متابعة دقيقة وضبط للحركة، وقد لا يسمح صاحب المقهى بدخول الشباب صغار السن إلى جانب الكبار، كما أن لكل زبون بـربيش أركيلـته الخـاص به والمعلق على أحد جدران المقهى وتحتاج القهوة من صاحبها حسب جمال عزو أن يحافظ على تقاليدها وسمعتها، ويجلب لها التنـاك من إيران أو من غور الأردن[3]، وتحتاج إلى صناع، لطبخ القهوة والشاي وجرار لسقي المـاء، وتقـديم قطعة نار لمن يستعمل السيكارة. وصناع لتهيئة الأراكيل وغسلها وتنظـيفها، مع فرك التنباك الذي يحتاج إلى تنقيب عوداه[4]، وتقديم الأراكيل لمن يرغب الشرب بها، فيخرج الشخص صانع التنبك من جيبه المبسم فيهيئه له، ويأتي له بالأركيلة[5].

---

(1) القاسمي، قاموس، ص 302-303.

(2) وهو البلياردو المعروف.

(3) مقابلة مع السيد جمال عزو، صاحب مقهى المتحف في مدينة حلب، 2009/2/2م.

(4) مقابلة مع السيد أديب عزو، مقهى المتحف، مدينة حلب 2009/2/3م.

(5) القاسمي، قاموس، ص 367.

قــوّاد: وهو حرفة تدخل ضمن اللهو الحرام، وهو حسب القاسمي "ملعون، وهــو الديــوث، أشــهر مــن أن يعرف، والمصطلح على اسمه، بدمشق تصريحاً بـــ "العرصة" وكناية "أبو نجيب". والأشقياء المحترفون بالقوادة نوعان: فمنهم – عرصة الأكابر، الذين يرتكبون الفواحش – والعياذ بالله تعالى – وهذا يكون لديهم مكرماً مبجلاً عندهم، ذا أمر ونهي، نافذ القول، يتيه على الناس، فيراعى خشيةً ممن ينتمي إليهم، ويقوّد لهم. ومنهم – عرصة العامة الأخباث، فيأتون لهم بما يرغبون، مما لا ينبغي التصريح بذكره"[1].

ويقــول القاسمــي: "وكان من اللازم عدم ذكر هذه الحرفة الخبيثة الملعونة، الملعــون كل محترف بها.. ولا يشك أحد ممن له أدنى عقل أن صاحب هذه الحرفة خال من الدين والمروءة والعقل والشهامة والعفة والكرامة والصيانة. واتفق العقلاء علــى أن القــوادة أعظــم وباءً لنسف معالم الكمال، وأنها ما فشت في قوم إلا وأفــسدت عمــرانهم، وبلادهــم، وأوطانهم، وجعلت عاليها سافلها. ولهذا يهتم المسيطرون في بعض البلاد التي فشا فيها وباؤها إلى استئصال شأفتها، وذلك بعقد مجتمعات كبيرة، لما استيقنوا ما يكون من نتائجها".

وكانــت العامــة تسمي الديوث بـــ"العرصة"، وهو مأخوذ من قول العرب: بعير معــرص، إذا ذل ظهره لذله، عليه اللعنة، أو لنشاطه في هذا الفعل. يقال: عرص الرجل واعتــرص إذا نــشط، أو لخبــثه ونتنه، من قولهم: عُرص المكان، خبثت رائحته ونتنت وتغــيرت، وذلك لخبث ما يأتي به – قبحه الله – . وأما القواد بمعنى الديوث فعربــي، وفي أمــثال العرب: "أقود من ظلمة"، يعنون ظلمة الليل. قال الشاعر: "فالشمس نمامة، والليل قواد"[2].

ويقــال للقــواد على أهله قرنان، لأنه يقرن بها غيره، كما أن فيه إشارة إلى شبهه بالتيس الأقرن، ومنه قول بعضهم في غلام جميل:

ســلَبَتْ محاســنك الغــزالَ صفاته	وتجمعــت كــل المحاســن فــيكا
لــك جــيده ولحاظــه ونفــاره	أمــا القــرون فإنهــا لأبــيكا[3]

(1) القاسمي، قاموس، ص 369.

(2) القاسمي، قاموس، ص 370.

(3) القاسمي، قاموس، ص 370.

كركوزاتي: وهو من يلاعب الصور المصنوعة من الجلد على صفة الإنسان، وتعرف بالخيالات، ويقال لها: "خيال الظل"، وفيها ينصب صاحب الحرفة ستارة من قماش في زاوية القهوة، يربط بأسفل الستارة خشبة على عرض الستارة، ويضع فوقها سراجاً يوقد من زيت الزيتون، ويقف خلف الستارة يلاعب الخيالات، ويأتي كل واحدة منها بلغة وكلام خاص، فتارة يضحك، وتارة يبكي، وتارة يغني، على حسب حركة الخيالات، وتكون القهوة مملوءة بالمتفرجين، وغالب من يتفرج على الكركوزاتي الأولاد الصغار. وقد يوجد ممن أتقن هذه الحرفة، مع سرعة حركاتها، من يكون صوته جميلاً، فيقصده الشباب والشيوخ، يتفرجون على ألعابه، ويترنمون بجميل صوته، وتروج هذه الحرفة في زمن الشتاء رواجاً زائداً، وما تجمع تلك القهوة بذلك الوقت ينقسم شطرين بين القهوجي والكركوزاتي[1]. ولبعضهم في خيال الظل:

رأيت خيال الظل أكبر عبرة ... لمن كان في علم الحقيقة راقي

شخوص وأشكال تمر وتنقضي ... ترى الكل يفنى والمحرك باقي

ويذكر القاسمي أن للصوفية فيه رأياً "وأشار إلى وجه العبرة فيه شيخ الصوفية، العارف ابن عربي في فتوحاته، في الباب السابع عشر وثلاثمائة، بقوله عليه الرحمة والرضوان: "ومن أراد أن يعرف حقيقة ما أومأنا إليه في هذه المسألة، فلينظر في خيال الستارة وصوره، ومن الناطق في تلك الصور عند الصبيان الصغار، الذين بعدوا عن حجاب الستارة المضروبة بينهم وبين اللاعب، بتلك الأشخاص، والناطق فيها، فالصغار في ذلك المجلس يفرجون ويطربون. والغافلون يتخذونه لهوا، والعباد العلماء يعتبرون ويعلمون أن الله ما نصب هذا إلا مثلاً، ولذلك يخرج في أول الأمر شخص يسمى الوصاف، فيخطب خطبة يعظم الله فيها ويحمده، ثم يتكلم على كل صنف من الصور التي تخرج بعده من خلف هذه الستارة، ثم يعلم الجماعة أن الله تعالى نصب هذا مثلاً لعباده ليعتبروا، ويعلمون أن هذا العالم مع الله مثل هذه الصور، مع محركاتها، وأن هذه الستائر حجاب سر القدر المحكم في الخلائق ومع هذا كله يتخذه الغافلون لهواً ولعباً، انتهى كلامه. ويسمى الكركوزاتي بالخيالي نسبة إلى لعبه بالخيال. ومنه قول الشاب الظريف:

---

(1) القاسمي، قاموس، ص 384.

خـــيالي أخـــاف الهجـــر مـــنه ولـــست أراه يـــرغب في وصـــالي

وكـــنت عهـــدتني قـــدماً شجاعاً فمـــالي صـــرت أفزع من خيالي[1]

ممثل الروايات: هو من يتمثل الروايات المسماة بـــ "التياترو"، والقائم بذلك شـــركة مـــؤلفة من جملة أشخاص، تستعد لوجود ما يلزم إلى التمثيل، من أثواب مصنوعة للرجال والنساء، وأسلحة، وغيرها، يعينون وقتاً بمحل مخصوص يمثلون به، وبصدر ذلك المحل إيوان يعرف بـــ "المرسح" وله ستار يرفع وقت التمثيل، ويسدل حـــين الاهتمام بما يرتبونه من تغيير الملابس، والهيآت، فيمثلون هيأة من مضى من الأوائـــل كالملوك والأمراء، وما يتعلق بمن بلي بالعشق، وما جرى معهم، يمثلون في كل ليلة رواية تشتمل على جملة فصول، وكل فصل يأتون به بما يناسب الحال من اللعـــب والـــرقص، والتـــشبه بالملوك والوزراء والأمراء والعشاق، من تغيير الهيأة بالملابس وغيرها[2].

ولقـــد راجت هذه الحرفة بدمشق سنة 1295هـــ/1878م، وما بعدها، نحو ست سنوات رواجاً عجيباً، واهتم بها بعض مديريها اهتماماً زائداً، وأتقنوا عملها إتقاناً بالغ الـــنهاية، وأصـــبح المحـــل المعد لها يغص بالمتفرجين بحيث لو تأخر شخص عن الميعاد المـــضروب، لم يجد محلاً للجلوس به. وسميت وقتها بـــ "القوميدا" - الكوميدا - ونشأ مـــنها مفاســـد جمة: أصبح الصانع الذي يعمل في يومه من الأجرة يصرفه على التفرج علـــيها، ويترك أولاده وعياله يتضورون جوعاً، فحينئذ سعى من أوقف أمرها، بواسطة الحكـــومة، فـــضربت علـــى أيدي عمالها من ذلك الحين، وصدر أمر سامٍ من مقام الـــصدارة بمنع "القوميدا" بالمرة، فمنعت لوقتنا هذا، سوى أنه بتلك المدة كان يأتي من الـــبلاد جماعـــة مؤلفة من نساء ورجال، والغالب يكونون من الأرمن والروم، يمثلون الروايات الإفرنجية، مشتملة على فصول، منها تمثيل، ومنها رقص، وفصول مضحكة، ولكنها تكون بصورة مؤقتة، يقصدهم من يرغب بالفرجة عليهم.

ويذكـــر القاسمي أنه في عام 1324هـــ/1906م "حضرت جوقات من مصر، وسمحت لهم الحكومة بإعادة التمثيل القديم، فأخذوا يمثلون الروايات العربية المهمة،

---

(1) القاسمي، قاموس، ص 385.

(2) القاسمي، قاموس، ص 470.

وصـــار يقـــصد الفرجة عليهم أهالي دمشق أفواجاً أفواجاً. وهي حرفة مهمة تنتج ربحاً جسيماً، ولكن لا عقبة له، كما شوهد في أربابها، نسأل الله السلامة"[1].

في عـــشرينات القرن العشرين تطورت حرفة التمثيل وزادت فرق التمثيل في دمـــشق، ثم بدأت الفرق الفرنسية في عهد الانتداب تنتشر، ومنها فرقة الكوميدي فرانـــسيز (La Comedia francise) وكان من أوائل الدمشقيين الذين درسوا فن التمثيل تيسير السعدي، الذي ولد بدمشق 1917م وسافر للدراسة في مصر في عام 1945م ومن ثم عاد إلى دمشق وأسس الفرقة السورية لتمثيل والموسيقى[2].

---

(1) القاسمي، قاموس، ص 471.

(2) خلـــيل صـــويلح، تيسير السعدي رائد من زمن الراديو وممثل بسبعة أدوار، جريدة الأخبار، العدد 721، 14 كانون الثاني 2009م، الصفحة الأخيرة.

الخاتمة

تكـــشف الدراسة وفصولها عن عمق ثقافة الترفيه في مدينة دمشق، وأصالتها وارتـــباطها بالمـــوروث الـــثقافي المتصل تاريخياً مع عصور ما قبل الحقبة العثمانية (1516 – 1918م)، فالجدل حول الموسيقى والرقص، ما هو إلا استمرار وتواصل لمـــا كانـــت تشهده الثقافة العربية الإسلامية في دمشق وغيرها من المدن والحواضر الأخرى من آراء فقهية.

وبـــدت ثقافـــة التـــسلية والفـــنون في دمشق خلال العصر العثماني، حيوية ومتـــنوعة، اشترك فيها العامة والخاصة، وأظهرت الدراسة بعض التقاليد الدمشقية الخاصـــة بمظاهر الفرح والزينة، والتي عكستها المناسبات والأفراح التي كان يحيها أعيان المدينة أو عامتها.

وقد عكست المصادر التي تعود للعصر العثماني 1516 – 1918م وتتجاوزه قليلاً أحـــياناً، وبخاصـــة كتب الرحلات واليوميات والحوادث، مستويين من مظاهر الترفيه والتسلية، الأول عند العامة والثاني عند الخاصة، ويبدو واضحاً أن انتماء المؤرخ ومحيطه الاجتماعي قد انعكس على طبيعة أخباره، وهذا ما يظهر في نموذج ابن كنّان الصالحي الـــذي نقل لنا نـــزهات الأعيان والعلماء وسهراتهم ومظاهر الفرح عندهم بشيء من الـــوقار والحـــرص على عدم خدش الحياء، في حين بدا البديري الحلاق أكثر قرباً من العامة. وهذا ما جعله معجباً ببعض العلماء والأعيان الذين ارتادوا المقاهي واختـلطوا مع العامـــة. ويبدو أن وجود البديري الحلاق في السوق – بحكم طبيعة عمله – ساهم في نقله لأخبار الغواني وبنات الهوى التي ربطها دوما إما بانتشار الظلم أو ارتفاع الأسعار وانعدام الأمن، ويبدو واضحاً أن منع بنات الهوى من الظهور في الشوارع لم يفلح من جانب الولاة، مما دفعهم إلى فرض ضريبة محددة تدفع عن كل واحدة في كل شهر.

ومـــن جانب آخر رصدت الدراسة أسماء بعض المغنيين والمنشدين والناظمين، وتبين أن مثل هذه الاهتمامات لم تكن حكراً على الرجال، بل شاركت فيها المرأة

أيضاً. وظهر لنا مستويان من العاملين في فن الحكاية الشعبية، كما زاد انتشار المقاهي وتعميرها لدى الولاة والأعيان وانتشرت المقاهي في مواقع مختلفة، ومن أبرزها في الأسواق العامة أو في الأحياء الدمشقية خارج سور المدينة، واحتضنت المقاهي غير المسلمين من العاملين في ضرب الآلات الموسيقية من اليهود القادمين من حلب، كما شارك النصارى في الحفلات الخاصة.

وبينت دراسة مظاهر التسلية أن عامة الناس كانوا يخرجون بشكل جماعي لقضاء أوقات الفراغ، في ظاهرة السيران، كما يوجد أيضاً دعوات خاصة للسيران بين الأعيان والعلماء والتي لم تخلُ من مناظرات وحوارات في قضايا ثقافية، هذا إلى جانب السهرات الخاصة التي كان يتخللها المذاكرات الأدبية وإنشاد الشعر. ويبدو أن وجود حرفة المضحك الذي يذهب إلى بيوت الخواص هو خير دليل على الفرق بين تسلية العامة والخاصة في هذه الثقافة، وظهر واضحاً من الدراسة طول مرحلة السهر لدى الدمشقيين.

وكشفت الدراسة عن الجدل الفقهي حول دخول القهوة وانتشارها في دمشق، والذي تواصل فيه الفقهاء مع نظرائهم العرب، وإلى جانب المقهى كمرفق من مرافق التسلية العامة، وجدت الجواري وبنات الهوى وصندوق الدنيا، وظهر أن الحِرَف المرتبطة بالغناء والإنشاد امتازت بترتيب دقيق ومحكم، وأن فن الإنشاد والغناء الصوفي ساهم مساهمة كبيرة في تطور الغناء والموسيقى الدمشقية والحفاظ عليها. وتدلنا حرف الفن والإنشاد على التقاليد الخاصة بها، وأنواع الأطعمة التي يصنعونها في حفلاتهم، كما تمدنا تراجم أهل الغناء بمعلومات عن ثقافة تلك التراجم ورحلاتهم وشيوخهم والتراث الشعري الذي كان يغنى في مرحلة الدراسة.

وإذا كانت المقاهي والأسواق هما المجال المكاني الذي عبرت عن الثقافة الشفاهية لأوجه التسلية فإن الحمامات الدمشقية بدت المساحة المستورة للتسلية وقضاء أوقات الراحة في أجواء خيالية ذات حركية وحيوية تزول بها الفوارق الاجتماعية، التي ميزت المجتمع الدمشقي وأفرزته في مجاميع اجتماعية تفصلها عن بعض فروق الدخل والثروة والمكانة، وهو ما عبرت عنه المصادر المحلية بمسميات مختلفة ذات دلالة فئوية ومنها "الأكابر" و"الخاص والعام"، و"العال والدون".

أمـــا الحارات الدمشقية في المدينة فظهرت ذات خصوصية كبيرة، وهي وإن بدت عالما خاصاً له مكوناته الثقافية والاجتماعية والإنتروبولوجية، إلا أنها تظل في تعـــددها أحد مكونات عوالم ثقافية متباينة في إطار المدينة الكلي، وهي من ناحية جغـــرافية وإن وجـــد بعضها داخل السور، وامتد عدد منها إلى خارجه، ومثلت المـــساحة الأولى للترفيه، وظهرت فيها احتجاجات أعيانها على فساد الأخلاق من جهـــة، واتحدت فيما بينها في إظهار أوجه الفرح من جهة أخرى، مع أن موروثها الـــثقافي من الحكايات بدا مختلفاً، من حيث دلالة الحكايات وشخصياتها. وبحثت الدراســـة في الليـــل الدمـــشقي واختلاف الناس في قضاء أوقاتهم، وكشفت عن الفـــوارق بين تسلية الشيوخ والصوفية وسمر الأعيان، ووقف الباحث عند الألعاب الشعبية وأنواعها.

ملحق

الأعلام المؤثرون في ثقافة الترفيه

يساهم تحديد ذوي الأثر والفعل، في ثقافة مدينة دمشق، في الكشف عن الأشخاص الفاعلين في المجتمع الدمشقي، بحسب انتمائهم الثقافي ومجالهم الحرفي أو المعرفي، ويمكن القول أن عملية إعداد الملاحق للفاعلين والمؤثرين في ثقافة الترفية بحسب ورودهم في المصادر المحلية المتنوعة إبان حقبة الدراسة، يمكن له أن يمدّنا بمعلومات دقيقة حول مستوى الفاعلية الاجتماعية والثقافية والخلفيات المعرفية ومجال الممارسة الترفيهية عندهم.

أبو الخير، الريس الدمشقي، منشد.

أحمد، أحمد بن صادق، كان له خدمة الدلالة في المقاهي.

استر جمالك، مغن، دمشقي، من القرن السابع عشر.

الألباني، نصر الدين، فقيه الباني الأصل دمشقي الإقامة، أبطل الأحاديث التي تجوز الموسيقى.

أم كلثوم، محمد، مغني دمشقي من القرن السابع عشر

باشا، مراد، والي دمشق، بنى مقهى المرادية.

الباعوني، أم عبد الوهاب. منشده.

البغاجاتي، محمد بن علي، هو من يصنع رقائق العجين الأبيض من خالص الطحين ويجعله كالورق، ويكثر صنع البغاجاتية في الأفراح والأعياد.

بلبل، سعيد بن يحيى، شيخ حمصي، ألف رسالة في أحكام السماع.

البيتماني، حسين بن طعمة؛ متصوف ومدرسا ألف رسالة في حكم السمع.

التركماني، الشيخ محمد، قام بمذاكرات مع أقرانه في الموسيقى والعروض وشارك في النظم.

الجبائي، احمد بن حسين، كان يقيم الذكر والسماع في الميدان.

الجباوي، إبراهيم، متصوف، صاحب طريقة، كان يجالس العامة على المقاهي.

الجنيد، جمال الدين بن محب الدين الدمشقي.

الحبيب، علي، دمشقي، كراكوز، كان يشتهر بتمثيل الخيالات التي تتضمن المواعظ.

الحسيني، محمد بن الأول، قاضي دمشق، وافق الشيخ يونس العيثاوي المفتي على تحريم القهوة.

حشيش، سليمان، حكواتي من أشهر الحكواتية القرن الثامن عشر.

الحصكفي، احمد بن محمد، ألف رسالة في وصف الغلمان.

الحلاق، رشيد، أبو شادي، حكواتي في مقهى النوفرة.

الحمصي، احمد بن محمد، مؤرخ يوميات، نقد فساد المجتمع وخطف النساء وانتشار الجواري.

الحمصي، درويش بن احمد، استثمر عدة مقاهي حسب السجل الشرعي.

الحموي، أحمد بن عمر، حكواتي اشتهر بالبلاغة أواخر القرن الثامن عشر.

الحوراني، عثمان بن احمد، ألف كتابا في الغناء، وكان واعظا للنساء في البيوت.

الخادمي، أبو عبدالله محمد بن محمد بن علي، فقيه، جمع مناظرة بين علماء دمشق في حكم القهوة.

الخوانكي، عبد الجواد بن شعيب، ألف رسالة في القهوة.

الداخل، محمد بن احمد الصالحي، كان يبيت عند الأعيان ويقدم الطرائف وهو من كبار المنشدين.

الدامي، ابراهيم بن سعيد، اشتهر بضرب الدف.

الدفتري، فتحي أفندي، دفتردار دمشق، شيد مقهى وكان عنده مغنون.

الدمشقي، إبراهيم، الحلبي، ألف رسالة الرهص والوقص لمستحل الرقص.

الدمشقي، نوح، مؤذن، كان عارفا بالإلحان.

الذبحاني، جمال الدين أبي عبدالله أول من أدخل القهوة لعدن.

الرومي، محمد بن قاسم، له مهارة بالموسيقى وعلم الجفر.

أبو السعود، محمد بن محمد المولى، مفت، أباح شرب القهوة.

ابن سلطان، قطب الدين محمد، الحنفي الدمشقي أفتى بتحريم القهوة.

ابـــن ســـلطان، محمد بن احمد، ألف رسالة في تحريم الأفيون، وكان يسمي القهوة الخمارة.

السمان، سعيد، شافعي دمشقي، أجاد في صناعة النغم.

السمان، عبد الباقي بن محمد، كان يجالس الكبار ويلعب الشطرنج.

الـــشادلي، علي بن عمر اليمني، ينسب له الفضل باكتشاف القهوة في مدينة المخا.

الشامي، علي بن محمد، أشهر شرب القهوة في حوانيت دمشق.

شاهين، عمر الحنفي، موسيقى، تعلم القرآن.

الشوبكي، احمد بن محمد، بلي بحب الغلمان.

الـــشوكاني، فقـــيه وعالم يمني الأصل، نقل عنه علماء دمشق، أحكاما تخص الغناء والسماع.

الـــصمادي، محمد بن احمد، من كبار المتصوفة، اهتم بعقد الخلوات ومجالس السماع.

الصيداوي، محمد بن حسين الدمشقي الحنفي، مؤلف وناقد لأحوال المجتمع، ومنها الأعراس.

الطواقي، شهاب الدين أحمد، موسيقى دمشقي، سافر للشرق لتعلم الموسيقى.

ابن أبـــي طوق، شهاب الدين الدمشقي، مؤرخ يوميات.

ابن عابدين، محمد أمين عمر، فقيه دمشقي، قرر أن السماع ليس من اللهو.

العجمي، رجب بن عماد الدين المنلا، كان يدعي معرفة الموسيقى.

عراق، علي بن محمد، جلب القهوة لدمشق.

عراق، محمد، اشتهر بلعب النرد والدف.

ابـــن علوان، علي بن عطية الحموي الدمشقي، شيخ، متصوف، وفقيه، نقد أحوال المجتمع والبذخ والإسراف وعادات الزواج.

ابـــن علـــون، رجـــب، بن حسين، حموي الأصل، مقيم بدمشق، كان من مشاهير الموسيقيين.

العمري، أبو بكر منصور بن بركات بن حسن، زجال.

العيثاوي، شهاب الدين يونس، الدمشقي، فقيه متشدد، أفتى بتحريم القهوة.

العيدروس، أبو بكر الشاذلي، أول من ادخل القهوة لدمشق بحسب المؤرخ نجم الدين الغزي.

الغزال، إبراهيم بن محمد كان بمارس الغناء ويعمل بالمحاكم.

الغزالة، إبراهيم، مغني دمشقي من القرن السابع عشر

فتح الله، مصطفى. حكواتي.

القاسمي، جمال لدين، ألف رسالة في القهوة.

القباني، أبو خليل، مسرحي، أول من انشأ دارا للتمثيل.

القويضي، شمس الدين محمد الصالحي، اتهم بحب الغلمان واستعمال الأفيون ويحسن عزف الكمنجا والطنبور

الكنجي، محمد بن احمد، ألف كتاب بلوغ المنى في تراجم أهل الغنا.

الكيال، احمد، كان من المعروفين بدمشق بحسن الصوت وفن النغمة.

الكيال، منير، باحث في التراث الدمشقي.

اللاري، محمد بن صلاح الدين السعدي، أفتى بأن اجتماع الدق والشبابة مباح.

محب الدين، عبد اللطيف بن محمد بن أبي بكر، شيد مقهى.

المرادي، محمد، ثري وعبن، درس بدمشق، رحل للقدس والخليل والموصل، أتقن اللغات، وعقد مجالس غناء بمنزله.

المزور، صالح بن إبراهيم، ملحن وخطيب جامع السليمانية.

المصري، بعث الله، نزيل دمشق، عرف أنه أعرف أهل زمانه بالموسيقى.

المكي، عبد اللطيف بن أبي كثير، زار دمشق ونظم موشحا في القهوة.

النابلسي، عبد الغني، متصوف؛ ألف رسالة في حكم السماع والموسيقى.

الناشف، صادق آغا بن احمد، تولى الجزية بدمشق، أحد أعيان الجند، قرب العلماء وكان يستضيفهم في بستانه.

الهواري، عبد الحميد، كان أشهر الحكواتيين في دمشق، ويلقب بابي شاكر المنعش.

ملحق

التوزيع الحضري لأماكن الترفيه

تطلـــبت معلومات المصادر عن أماكن الترفيه التحقق الميداني، وسؤال بعض المعمـــرين مـــن أهالي المناطق والأحياء، ومقارنة معلومات المصادر بعضها ببعض، ويمكن القول: إن إعداد ملاحق للنمو الحضري لأماكن الترفيه وتوزيعها يعد دعما معرفيا أو تصحيحا لمعلومات المصادر المختلفة، وعلى هذا الأساس أعد هذا الملحق الذي اعتمد المصادر المحلية والمقابلات الشفوية والزيارات الميدانية.

أرض السهمين: إن أرض السهمين ملاصقة للنيرب الأعلى من جهة الغرب، يفـــصل بيـــنهما الدرب الصاعد إلى سفح قاسيون وضاحية الصاحية وحالياً يمكن تحديـــد متنـــزه السهمين كما يلي: من الغرب شارع العفيف المتجه شمالاً إلى حي المهاجرين، من الشمال ضفة نهر يزيد أي سوق الجمعة، ومن الشرق شارع الشيخ محـــي الدين ومن الجنوب شارع نسيب البكري والقسم الغربـــي من شارع عقبة بن نافع.

أرض المـــيطور: ذكـــر ابـــن عساكر في تاريخه أن مسجد الميطور هو نفسه مـــسجد ابـــن البختيار، وأن الميطور فيه مسجد السلاّر ومسجد العماني . وذكر ياقوت الحموي "الميطور" من قرى دمشق دون تحديد الموقع . وجاء في وقفية الوالي ســـنان باشـــا: "ومـــنها جميع البستان أرضاً وغراساً تماما، المعروف ببستان أولاد المـــزرعاني قـــديماً، الكائن بأرض الميطور وقصر اللباد ظاهر الشام أشرف البلاد، المـــشتمل على أشجار مثمرة متنوعة، وشربه من نهر يزيد في نهار الخميس والجمعة من كل أسبوع من الماصيتين المعروفتين بالقبة والحوت حق معلوم واجب مشروع . حـــدّ ذلـــك من القبلة الطريق وتمامه البطحي، ومن الشرق بستان الحارنداره." كمـــا ذكـــر بدران في "منادمة الأطلال" أن من أوقاف المدرسة الميطورية وبستان المـــيطور بالـــصالحية . ويقـــول كرد علي في "غوطة دمشق": "الميطور في أرض الـــصالحية آخر حدودها تحت نهر يزيد . ويقول محمد دهمان إن الميطور شمالي حور

تعلا "ولا يزال في تلك الجهة بستان يدعى بستان النيطور بالنون ."أما مكان أرض الميطور حالياً فهو ضمن حي ركن الدين وحدود البستان الحالية من الغرب: شارع خــولة بــنت الأزور - ومن الجنوب: شارع عبد الغني برنية، من الشرق: شارع الثورة وأتوستراد شرقي ركن الدين.

أرض الــنيربين: حدود النيرب الأعلى شمالاً نهر يزيد، وحالياً من الغرب إلى الــشرق قــصر تــشرين - ساحة إبراهيم هنانو ودوار الشامي وشارع عروة بن الــورد - شارع زنوبيا وتنظيم غربــي المالكي - شارع الأندلس - ساحة عدنان المالكي - شارع هارون الرشيد. من الشرق: شارع العفيف ومن الجنوب: شارع زهــير بن أبــي سلمى - ساحة الروضة - شارع مصر - شارع محمد البزم ومن الغــرب: داخــل حديقة تشرين انتهاءً بصخرة المنشار. أما الأحياء الواقعة مكان النيرب الأعلى فهي من الغرب إلى الشرق: غربــي المالكي - المالكي - الروضة - نوري باشا.

أرض نقــيب: لم نــستدل على موقعها، ولكن من المؤكد أن للتسمية علاقة بنقيب الأشراف، ويتذكر أحد أحفاد سعيد الحمزاوي آخر نقيب لأشراف دمشق أن الأراضــي الــواقعة حول قبة السيار كانت ملكاً لآل الحمزاوي والقتلان، وقد جرى استملاكها كاملة في سبعينات القرن العشرين. أما حدود النيرب الأدنى: فــن الــشمال نهر ثورى، وحالياً من الغرب إلى الشرق، صخرة المنشار - حديقة تــشرين - شارع محمد البزم - شارع حاتم الطائي - شارع مصر - شارع زهير بــن أبــــي سلمى. ومن الشرقا شارع الجلاء في أبو رمانة ومن الجنوب شارع شكري القوتلي ومن الغرب خانق الربوة عند صخرة المنشار. وضمن النيرب الأدنى تقع أحياء غربــي المالكي والمالكي والقسم الجنوبــي منها وحي أبو رمانة.

- **بستان الأصفر مقابل الجسر الأبيض،** لا يوجد تحديد دقيق له في المصادر المتوفرة، فمنطقة الجسر الأبيض محاطة بالعديد من المتنــزهات، فمن الغرب أرض النيــرب الأعلى، ومن الشرق أرض السهم الأدنى، ومن الجنوب بستان المحمديات والجعجاع، ونعتقد أن بستان الأصفر هو بستان صغير قد أغفل المؤرخون ذكره.

- **بــستان الباسطي، بغوطة دمشق وبستان العيش:** لا يوجد تحديد لهما أو وصف أكثر من مجرد الذكر.

- **بستان الباشا في حكر العارض إلى الشمال من باب جامع السادات**: عند الرجوع إلى خارطة شرطة دمشق المطبوعة عام 1924 نجد "بستان الباشا" وهو بستان ذو مساحة كبيرة، يحده من الشمالاً زقاق جناين الورد ومن الغرب الحارة المعروفة بجادة عاصم ومن الجنوب شارع الملك فيصل ومن الشرق جادة القصاع ويخترق هذا البستان من الغرب إلى الشرق أحد فرع نهر ثورا القادمة من حكر السرايا غرباً واسم حكر العارض غير متواتر في أيامنا وإلى الجنوب من جامع السادات الحكر المعروف بحكر النعنع.

- **بستان الدواسات في الصالحية**: لعله بستان الدواسة الكائن غربي دمشق بين نهر ثورا ويزيد، وتحديداً في الجزء الغربي من الحديقة المحيطة بقصر تشرين حرم القصر.

- **بستان الطويل في منطقة المنيحة**: لم نستدل على موقعه.

- **بستان ست الشام**: الوصف الوارد في المصادر غير دقيق، فمن غير المنطقي أن يقع البستان في السهم الأدنى بينما مكانه محدد بأنه شمالي الشبلية وقبلي الحاجبية، فلابد أنه في السهم الأعلى وليس الأدنى ونعتقد أن هذا البستان هو ما عرف لاحقاً ببستان الجبة، نسبة إلى عائلة الجبة مالكة البستان، والبستان يقع إلى الشمال من شارع نسيب البكري وشارع عقبة بن نافع وإلى الجنوب من جامع الحاجبية كما هو عند أكرم في خطط دمشق.

- **بستان كريم الدين**: لا نعرف المقصود بالوصف، ألأنه ملاصق لبستان الدواسة؟ أما نسبته لكريم الدين فالموضوع بحاجة إلى تحقّق تاريخي، فلعله القاضي كريم الدين عبد الكريم بن هبة الله، صاحب الجامع الكريمي في الميدان والجامع الكريمي في القابون . فلعل بستان كريم الدين كان وقفاً لأحد الجامعين المذكورين، أو أنه أحد أملاك كريم الدين في دمشق واستخدم للتنزه. وقد ذكر العلبي في خططه "الزاوية الكريمية" في سفح قاسيون" دون أن يذكرها محمد دهمان!

- **متنزه الجبهة**: جاء في كتاب المواكب الإسلامية في الممالك والمحاسن الشامية لمحمد بن عيسى بن كنان الصالحي الدمشقي "من محاسن دمشق منتزه الجبهة وهي أرض مربعة قدر فدانين، عليه سقائف تظلها من غير طين، بين أشجار الصفصاف والحور، والجبهة من المرجة الخضراء، بينما ذكر بدران متنزه

البهجة، ونعتقد أنه يقصد الجبهة، لتطابق الوصف حيث يقول: "البهجة منتزه يعلو نهر قنوات وبانياس، وينحدر منهما الماء إليه، تحيط به أشجار الحور والجوز والصفصاف، قرب حمام النزهة". ونعتقد أن في كلام بدران بعض التناقض، فبحسب وصفه أن المتنزه يعلو نهر قنوات وبانياس، فكيف للماء أن ينحدر من هذين النهرين؟. وفي رأينا أن بدران يقصد أرضاً بين نهري بانياس وقنوات بحيث تنحدر مياه نهر قنوات إليها. وإذا قمنا بمقاطعة وصف كل من ابن كنان وبدران، نستنتج أن متنزه الجبهة واقع في الشرف الأدنى، ويلاصق أرض مرجة الحشيش وهي مدينة المعارض القديمة من جهة الجنوب، أي مكان أبنية جامعة دمشق، وتحديداً بين بنائي كلية الحقوق وكلية العلوم، لأنه المكان الذي عنده فقط يبتعد بانياس عن قنوات مشكلاً أرض منبسطة وفسيحة مناسبة للتنزه.

- **متنزه الشرفان:** عندما يخرج نهر بردى من خانق الربوة، يشكّل وادياً يحيط بالسرير النهري طوال مجراه حتى اجتيازه أرض الغوطة وصولاً إلى المرج، وهذا الوادي يبدأ عميقاً غربي مدينة دمشق ثم يتناقص عمقه تدريجياً كلما اتجهنا شرقاً، وتدلّنا أسماء بعض المواقع الموجودة على طول مجرى بردى إلى هذا الوادي، فحي العقيبة تصغير عقبة بمعنى الهضبة، سمي كذلك لوقوعه على المصطبة الشمالية لهذا الوادي، ولا يزال اسم "الوادي" يطلق على مناطق عديدة على طول مجرى النهر، ابتداءً من وادي كيوان غرباً، وفي منطقة الإحدى عشرية شرقي المدينة يطلق المزارعون اسم الوادي على السرير النهري، وفي بساتين جوبر تسمى الأرض المحيطة بالنهر بأرض الزور - أي السرير النهري - وهناك وقعت معركة الزور أيام الثورة السورية الكبرى، وأبناء القرى التي يمر نهر بردى في أراضيهم يطلقون على تلك الأراضي اسم الوادي، كما هو الحال في المليحة وجسرين وكفر بطنا... الخ.

- **متنزه ما بين النهرين:** لدينا أحد احتمالين:

أ. في حال أن الوصف قد حدده بين مسجدي يلبغا وتنكز فإن المتنزه يقع حتماً بين نهري بردى وبانياس، وعندها يكون موقعه مكان وزارة الداخلية والقسم الجنوبي الغربي من ساحة المرجة اليوم.

ب. وفي حال عدم ذكر جامعي يلبغا وتنكز، في النص الأصلي، فمن المحتمل أن يكون المتنزه محصورا بين نهري بردى وفرعه العقرباني الذي قد تفرع لتوه في

ســاحة المرجة ليتابع مسيره في الخندق الشمالي لقلعة دمشق، وعليه فإن المتنزه يقع إلى الشرق من ساحة المرجة بمسافة قليلة، أي في موقع أسواق تحت القلعة اليوم.

- **مــيدان الأخــضر**: شمالي قلعة دمشق لا يعرف إذا ما كان المقصود متنــزه المــرج الأخضر، أو مرجة الحشيش الواقعة غربــي مكان مدينة لمعارض القديمة اليوم؛ لأنــه إلى الــشمال من قلعة دمشق لم تكن في العهد العثماني متنــزهات أو مساحات خــضراء، وإنمــا تلاصــقت بضعة أحياء بدءا من سوق ساروجة غرباً ثم حي العقيبة والعمارة البرانية المحاذيان لسور دمشق الشمالي، وأخيراً منطقة مسجد الأقصاب.

بــستان المــروبض في النيرب: يقع على الضفة الجنوبية لنهر يزيد، وتحديداً موقع مشفى الشامي والزاوية الشمالية الشرقية لحديقة تشرين.

جنينة الأفندي والمناخ والصوفانية: أما الصوفانية فهو لمتنــزه المعروف إلى الــشمال الــشرقي مــن باب توما، وفي هذه الأيام هناك حديقة في الموقع باسم الصوفانية يخترقها ر بردى. أما جنينة الأفندي فلم نهتد إلى موقعها، وأما المناخ فلا نــدري إذا كــان للاسم علاقة بحارة المناخ الواقعة إلى الشمال الغربــي من باب توما، وتحديداً في حي العقيبة. وذكر أنه في أوائل لعهد العثماني كانت جادة المناخ عــبارة عــن بستان في ذلك الحين، علماً أن المنطقة لا تحوي أبداً أبنية ذات أهمية تاريخية، والحارة واقعة على الضفة الشمالية لنهر بردى، وما يرجح وجود المتنــزه في هــذا الموقع وجود جنينة مردم بك إلى الغرب من زقاق المناخ والتي ظلت حتى الــربع الأول مــن القــرن العشرين، حيث بني مكانها سوق اهال القديم في عهد الانــتداب الفرنسي. ولم يكن في هذه الــ"جنينة" سوى جامع مصطفى لالا باشا وهو محاط بالبساتين.

الــربوة: وهو القسم الشرقي من وادي بردى والأخير قبل دخول النهر إلى المدينة، وفي وادي الربوة تنشأ فروع بردى، عدا نهر يزيد الذي يتفرع عن بردى في الهامة. أما الحدود الحالية فيبتدئ وادي الربوة غرباً عند موقع جسر الخشب، حيث مقــسم نهــر ثــورا وهناك قصر عثماني قديم يعود لآل العظم، أصبح حالياً مطعم القــصر؛ ومن الشمال جبل قاسيون ومن الجنوب جبل المزة. وينتهي الوادي شرقاً عند خانق الربوة حيث صخرة المنشار، إلى الغرب من جسر تشرين.

رياض الخلخال: الموقع الحالي: هو كلية الحقوق والشريعة في المبنى القديم لجامعة دمشق. وذكر ابن عبد الهادي في حديثه عن مساجد المزة، نقلاً عن ابن شداد: مسجد أمين الدولة الوزير، ويعرف بالخلخال". وجاء في وقفية سنان باشا، نشرها محمد أرناؤوط في كتابه "معطيات عن دمشق وبلاد الشام الجنوبية في نهاية القرن السادس عشر" ص 132": ومنها جميع الحصة الشائعة التي قدرها النصف اثنا عشر قيراطاً من جميع مجرى الماء الكائن بظاهر دمشق بمحلة الخلخال ... وبحقه النازل إليه من نهر قنوات من كل يوم اثنين من أسبوع من أول النهار إلى آخره . حدّ ذلك من القبلة مجرى نهر القصير ومن الشرق مجرى الماء الأصلي بالخلخال، ومن الشمال الكتف بجرى الأصلي" وذكر بعض أهالي المنطقة أنه حتى وقت غير بعيد كان على نهر قنوات مقسم يعرف بالخلخال، وموقعه تحديداً مكان مبنى الهجرة والجوازات في البرامكة اليوم .

الشرفان الأعلى والأدنى، فهما طرفا الوادي في البقعة الواقعة بين خانق الربوة غرباً وساحة المرجة شرقاً، حيث تظهر بشكل واضح في هذه المنطقة عوامل الحت النهري، باعتبار أن بردى يخرج من خانق الربوة وهو في كامل غزارته، وتتضاءل هذه الغزارة كلما اتجهنا شرقاً، بسبب تفرع النهر إلى عدة فروع كالعقرباني والداعياني... الخ. وباعتبار أن منطقة الشرفان هي أرض صخرية، محصورة بين جبل قاسيون شمالاً وجبل المزة جنوباً، فقد شكلّ الحت النهري مصطبتين صخريتين تنحدران مباشرة باتجاه النهر، هاتان المصطبتان تشرفان على مناظر فسيحة، فالشرف الأعلى يشرف على جبل المزة وسهلها وفي العمق يظهر جبل المانع المهيب، أما الشرف الأدنى فيشرف المرء منه على جبل قاسيون، الذي يظهر شامخاً من تلك المنطقة.

قهوة التايبين: مكان جسر تشرين حالياً.

القهوة التي في السكة شمالي حي العقيبة: المقصود بالسكة هو الطريق إلى بغداد - شارع بغداد لاحقاً - وقد عرفت بعض المقاهي في تلك المنطقة حيث الطريق الممهدة الآخذة شرقاً إلى البادية والعراق.

قهوة الجديدة تحت القلعة: توجد العديد من المقاهي في منطقة تحت القلعة وهذه المقاهي ظلت حتى بعد تنظيم المنطقة في النصف الأول من القرن العشرين وأشهرها مقهى علي باشا وقهوة الديرية.

قهـــوة الخريـــزاتية: الخريزاتية في بداية سوق مدحت باشا من جهة العرب، حـــيث جامع باسم الخريزاتية، أما القهوة فلا أثر لها اليوم، ومن المحتمل أنها هدمت بعـــد حريق عام 1924 وقصف حي سيدي عامود بالكامل، لأن الجانب الشمالي لسوق مدحت باشا قد هدم لمسافة حوالي 100م بعد هذا الحريق.

قهوة الدرويشية: انظر مقهى سوق السباهية.

قهـــوة الـــسنانية: مجهـــولة، ولكن من المرجح وقوعها على الجادة الرئيسية الآخذة جنوباً إلى الميدان، لأن المنطقة المقابلة للجامع غرباً وشمالاً قد جرى تنظيمها في أواســـط القـــرن العـــشرين وبنيت عدة أبنية حديثة أشهرها بناء مديرية تموين دمـــشق، فلو كانت هذه القهوة في الجهة الشرقية أو الجنوبية للجامع لكنا لاحظنا آثارهـــا، باعتـــبار أن المنطقة لا تزال على حالها القديمة، وبخاصة أنها وصفت بأنها القهوة الكبرى.

قهوة المناخلية: مجهولة الموقع.

قهـــوة النهـــرين: عند المدخل الغربـــي لسوق السروجية، والجانب الطويل للقلعـــة أي الخندق الشمالي لها، أما النهران فهما نهر العقرباني الذي يشكل الخندق الـــشمالي لقلعـــة دمـــشق، ونهر بردى الأصلي إلى الشمال منه. ونستدل من هذا الوصـــف أن الوصف الدقيق لموقعها يكون عند سوق الشوادر" حالياً بالقرب من مسجد الزرابلية.

قهوة أمام باب مصلى. انظر مقهى باب مصلى.

قهوة باب شرقي – قهوة باب توما – مجهولة.

قهوة بباب سريجة: مجهولة الموقع.

قهـــوة خبـــيني: في بستان الشرف المطل على المرجة – بحسب أحمد الإيبش وقتيـــبة الشهابـــي – مكان ما يعرف بساحة الحجاز اليوم. ولا أثر لها في الوقت الحاضر، وإنما هناك قهوة الحجاز الواقعة شرقي محطة الحجاز.

قهوة خود عليك: ما ورد عند احمد الإيبش وقتيبة الشهابـــي غير دقيق، إذ إن مـــنطقة الشاذروان هي بالضبط مكان تفرع انهار قنوات عن بردى، وهو مكان بعـــيد نسبياً عن نهر ثورا. والمكان المقصود في وصفهما هو مجرد مصاطب مشاع واقعة على الحافة الجنوبية لنهر ثورا، ولا ينطبق عليها مفهوم المقهى.

قهـــوة سوق الخيل: إحدى مقاهي منطقة تحت القلعة، والمنطقة زالت اليوم بالكامل.

قهوة علي منين: مجهولة، إلا إذا كان المقصود علي باشا فهي في منطقة تحت القلعة.

قهـــوة في حي الصالحية: تقع في سوق الجمعة، مقابل المدرسة الجهاركسية، وقد تحولت منذ زمن بعيد إلى فرن للخبز.

مقهى البغا: إن منطقة جامع يلبغا قد تبدلت معالمها بالكامل بسبب تنظيمها على عدة مراحل في القرن العشرين، وبخاصة بعد هدم جامع يلبغا والأبنية المحيطة به لبناء "مسجد مع يلبغا"

مقهـــى الـــسويقة المحروقة: السويقة المحروقة هي ذاتها حي السويقة، وأطلق عليها لقب المحروقة في بداية العهد العثماني، ويقع الحي في الجهة الجنوبية الغربية من المديـــنة، إلى الجنوب من حي قصر الحجاج وإلى الشمال من حي باب المصلى، أما المقهـــى فه مجهول، ولكن من المنطقي أنه كان عند مصّلبة السويقة، حيث المكان الأكثر ازدحاماً في الحي.

مقهى العقيبة: يقع إلى الجنوب من جامع التوبة.

مقهى الناصري: في حي مئذنة الشحم، لا تذكره المصادر.

مقهى النوفرة: معروف عند الباب الشرقي للجامع الأموي أو باب جيرون.

مقهى باب مصلى: مجهول ولعله على الجادة الرئيسية الأخذة جنوباً إلى حي الميدان.

مقهـــى حـــي العمارة: يقع عند زاوية التقاء حي العمارة الجوانية مع شارع الملك فيصل - جادة بين الحواصل - قديماً.

مقهـــى خبـــيني: صاحبها اليوم محمد كمال وتار، يقع مقابل الحائط الشرقي للجامع الأموي، بالقرب من مقهى النوفرة. أما عن تسميته فقد جاء بسبب موضعه المتطـــرف والمتواري عن أنظار المارة نوعاً ما بالمقارنة مع مقهى النوفرة الواقع على جادة النوفرة الرئيسية.

مقهـــى ســـوق الأروام: يقع سوق الأروام بين سوق الحميدية شمالاً وحي الحـــريقة جنوباً وشرقا، وشارع سعد زغلول غرباً. أما المقهى فلا معلومات عنه.

ومـــن الممكـــن أنـــه قد هدم بعد عام 1924 أي بعد قصف حي سيدي عمود - الحريقة حالياً - حيث كان سوق الأروام أكبر من حدوده الحالية، وهو سوق بيع الأثاث الخشبـــي قديماً في دمشق.

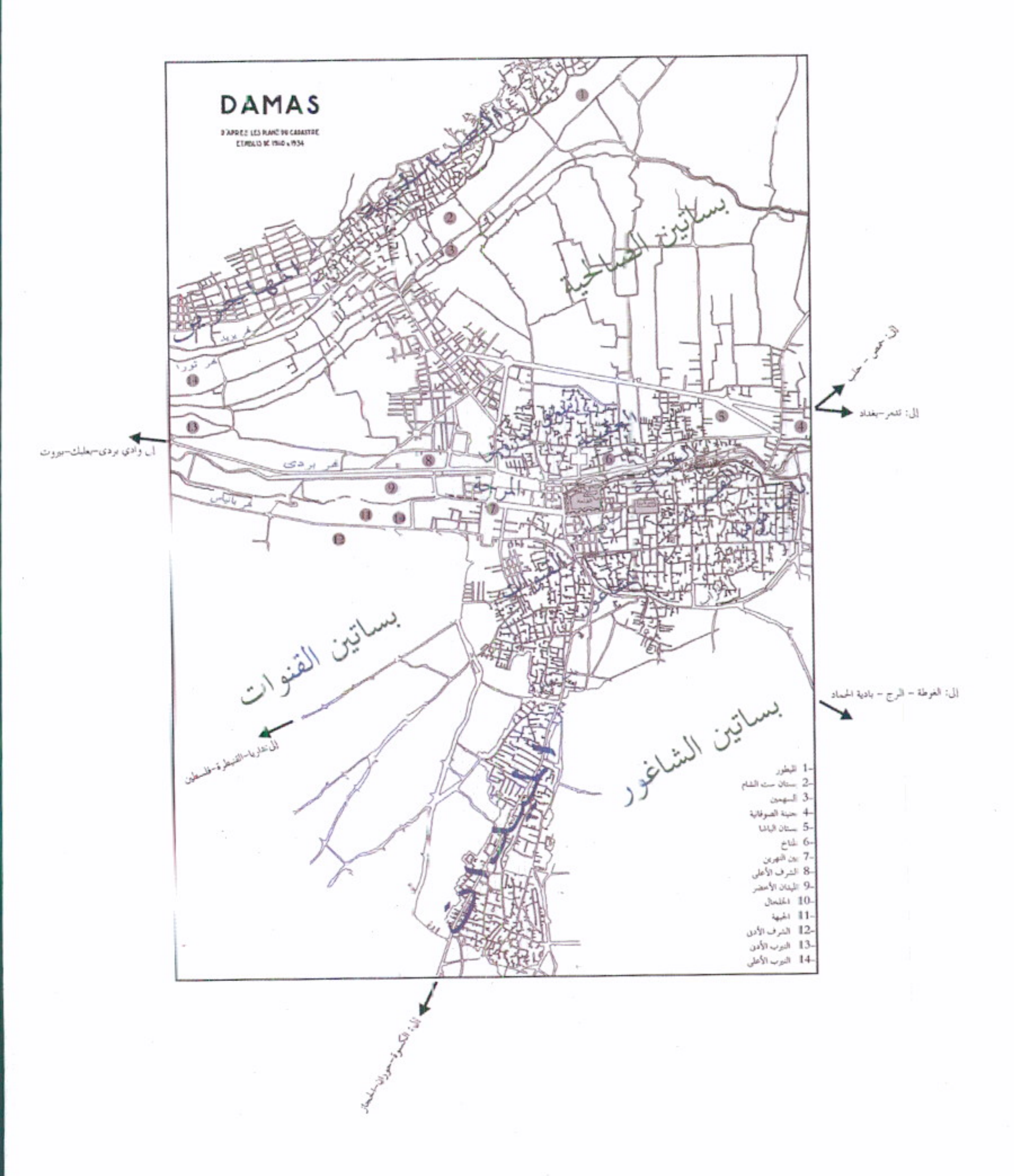
مقهى سوق السباهية: السباهية هي المدرسة لسيبائية، وما يعرف أيضاً بجامع الخـــراطين وأمـــا المقهـــى فلعله مقهى الدرويشية الذي تقع بين جامع الدرويشية والمدرسة السيبائية ولا يزال قائما إلى أيامنا.

مقهـــى قصر البّلور: إلى الشمال الغربـــي من باب توما، وهو اليوم مطعم، لكنه مهجور.

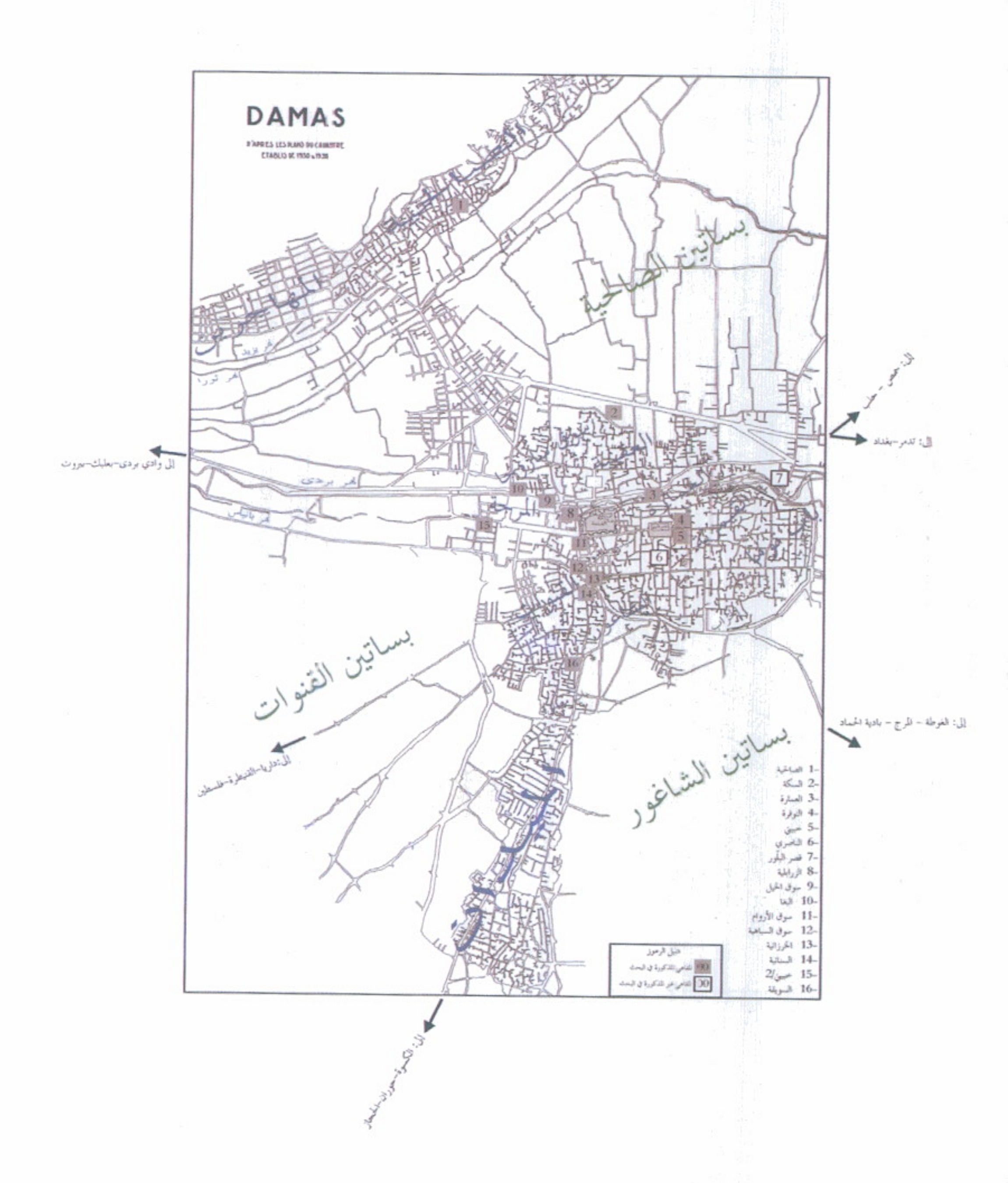
مقهى مراد باشا: مجهول لا تحدد المصادر ذكره.

ملحق

الخرائط و الصور



DAMAS
بساتين الصالحية
بساتين القنوات
بساتين الشاغور
نهر بردى
نهر ثورا
نهر بانياس
إلى: حمص – حلب
إلى: تدمر–بغداد
إلى وادي بردى–بعلبك–بيروت
إلى: الغوطة – المرج – بادية الحماد
إلى داريا–القنيطرة–فلسطين
إلى: الكسوة–حوران–الحجاز
2- بستان ست الشام
3- السهمين
4- جنينة الصوفانية
5- بستان الباشا
7- بين النهرين
8- الشرف الأعلى
9- الميدان الأخضر
10- الخلخال
11- الجبهة
12- الشرف الأدنى
13- النيرب الأدنى
14- النيرب الأعلى



DAMAS
بساتين الصالحية
بساتين القنوات
بساتين الشاغور
إلى وادي بردى-بعلبك-بيروت
إلى: تدمر-بغداد
إلى: العوطة - المرج - بادية الحماد
1- الصالحية
2- السكة
3- العمارة
11- سوق الأروام
12- سوق الساعة
15- حبيق/2



فرقة الشيخ صبري مدلل



الألعاب الشعبية في دمشق



مقاهي اسطنبول من مخطوط مكتبة شستربيتي

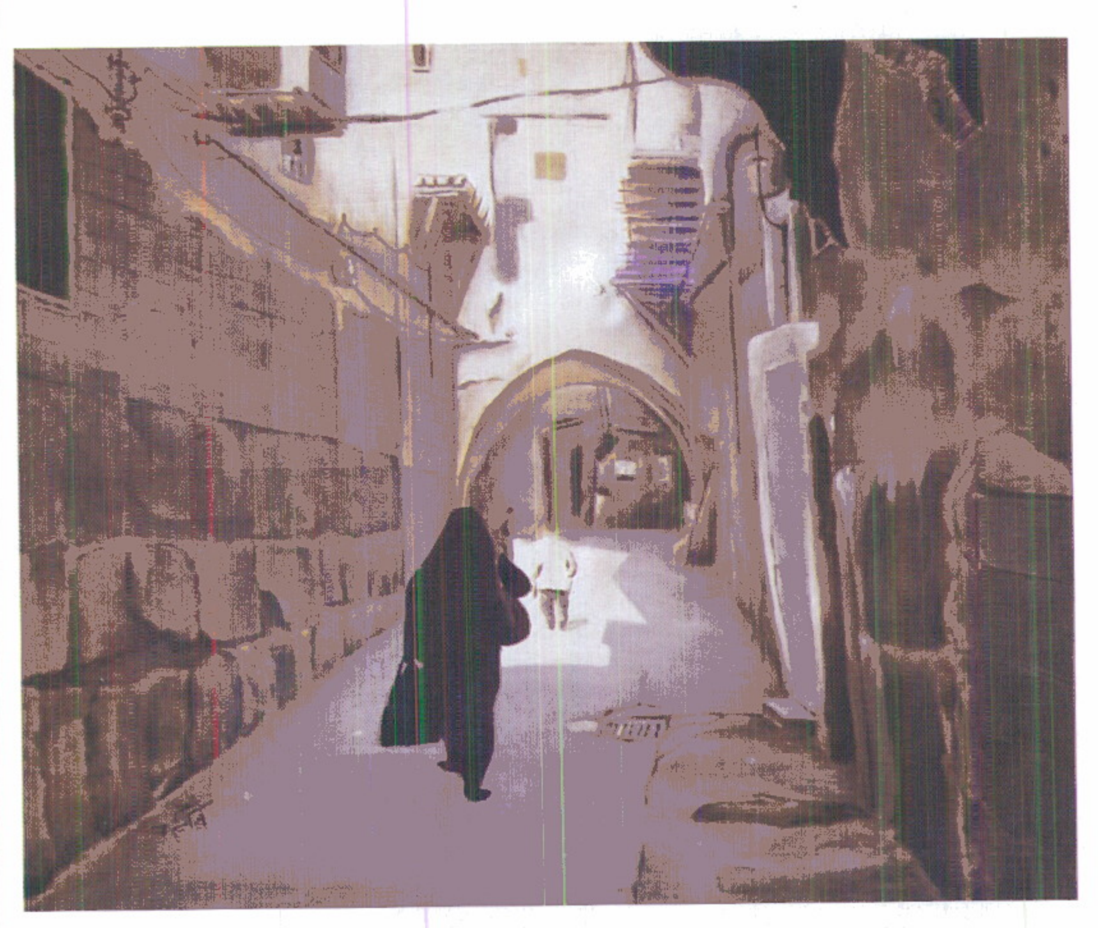
حكواتي دمشق الأول

مواليد ١٨٨٥ - توفي ١٩٥٦م



عبد الحميد الهواري

الملقب أبو أحمد المنعش



زقاق بكري العطار حارة القيميرية



حمام السلسلة





المصادر والمراجع

أولاً: الوثائق المخطوطات

أ. **الوثائق:** سجلات المحاكم الشرعية المحفوظة بمديرية الوثائق التاريخية في مدينة دمشق.

- سجل، 13، حجة 137، ص 76، 15 ذي القعدة، 1095هـ/1683م
- سجل 14، حجة 135، ص 56، 14 شوال 1096هـ/1684م.
- سجل 15 حجة، 234، ص123، 23 شوال 1097هـ/1685م.
- سجل، 16، حجة 123، ص 67، 2، رجب 1098هـ/1686م.
- سجل 17، حجه 234، ص 123، 13 شوال 1099هـ/1697م.
- سجل 18، حجة 215، ص 137، 20 ربيع الاول 1101هـ/1689م.
- سجل، 19، حجة 45، ص 22، 23 صفر 1103هـ/1691م.
- سجل 29، حجة 342، ص134، 12 جمادى الأولى 1119هـ/1707م.
- سجل 31، حجة 345، ص230، 12، رجب1121هـ/1709م .
- سجل 34، حجة 733، ص 426، 1134هـ/1721م.
- سجل41، حجة 234، ص124، 4 شعبان، 1133هـ/1720م.
- سجل 79، حجة 519، ص193، 14 رحب 1142هـ/1729م.
- سجل 115، حجة 246، ص 144، 10 شعبان 1159هـ/1746م .
- سجل 18، حجة 9، ص4، 23 شوال 1169هـ/1755م.
- سجل 129، حجة 234، ص 112، 3 رجب 1210هـ/1795م. السجل يضم أوراق مختلفة من سنوات غير منظمة بين عامي 1749 - 1795م وهو من سجلات محكمة الباب.
- سجل 130، حجة 551، ص273، 15 جمادى الآخرة 1162هـ/1750م.
- سجل 133، حجة 370، ص 188. 5 شعبان 1164هـ/1750.

- سجل 139، حجة 258، ص112، 29 شعبان 1116هـ/1752م.
- سجل 143، حجة 732، ص426، 15 ربيع الأول 1134هـ/1721م
- سجل 148، حجة 234، ص 134، 12 صفر 1172هـ/1758م
- سجل 150، حجة 244، ص75، 29 ذي القعدة 1170هـ/1756م.
- سجل 220 حجة 35، ص 135 23 شعبان 1202هـ/1787م.
- سجل 290، حجة 123، ص53، 14 شوال، 1237هـ/1821م.
- سجل 299، حجة 69، ص45، 5 ربيع الأول 1241هـ/1825.
- سجل 323 حجة 57 ص 35 3 جمادى الأولى 1247هـ/1831م.
- سجل 357، حجه 244، ص135، 4 جمادى الأولى 1255هـ/1839م.
- سجل 398 حجة 456، ص 257، 13 جمادى الآخرة، 1263هـ/1846م.
- سجل 409، حجة 47، ص 54، 5 ذي القعدة 1264هـ/1847م.
- سجل 411، حجة 56، ص 34، 13 رجب 1265هـ/1848.

ب. المقابلات

- مقابلة مع الباحث عمر كوش في مقهى الروضة، 2008/2/4م.
- مقابلة مع محمد أديب الرباط أبو شادي، صاحب مقهى النوفرة دمشق 3 /2008/10م.
- مقابلة مع معتز العلبي أبو النور، دمشق تاريخ 2008/10/4م
- مقابلة مع الدكتور محمد مطيع الحافظ، طرابلس، 2008/11/15م.
- مقابلة مع زهرة المرادي في منزلها بعمان بتاريخ 2009/1/13م.
- مقابلة مع ماهر بيرقدار وابو حكم، مقهى الروضة، دمشق، 2009/1/24م.
- مقابلة مع جمال عزو، صاحب مقهى المتحف في مدينة حلب، 2009/2/2م.
- مقابلة مع أديب عزو، مقهى المتحف، مدينة حلب 2009/2/3م.

ج. المخطوطات

- البيتماني، حسين بن طعمة (ت: 1175هـ/1760م). **كشف الالتباس في مسألة السماع**، مخطوط رقم 6609، الظاهرية، مكتبة الأسد، دمشق، ق.ق 98 - 100.

- البعلي، أبو المواهب بن عبد الباقي الحنبلي (ت: 1126هـ/1714م). **فتوى في كتاب التجارة والشراكة والملكيات العامة**، مخطوط رقم 10618، الظاهرية، مكتبة الأسد، دمشق، ق - ق: 12 - 62، عليها تواريخ متفرقة آخرها سنة 1124هـ/1712م.
- الحائك، إسماعيل بن رجب (ت: 1113هـ/1701م)، **كناش في الفقه والفرائض**، وفيه أسئلة وفتاوى لمختلف علماء دمشق، مخطوط، رقم 5677، مكتبة الأسد، (الظاهرية)، دمشق.
- الخادمي، أبو سعيد محمد بن مصطفى (ت: 1176 هـ/1762م) **مناظرة علماء دمشق في أمر القهوة**، مخطوط، شريط رقم 72، مركز الوثائق والمخطوطات الجامعة الأردنية، نسخة مصورة عن مجموعة جاريت رقم 2086، جامعة برنستون.
- ـــــ، **رسالة في** الدخان، مخطوط رقم 2086، مجموعة جاريت، جامعة برنستون، شريط مايكرو فلم، رقم 72، مركز الوثائق والمخطوطات الجامعة الأردنية، ق 148 - 149.
- الدكدكجي، محمد بن إبراهيم التركماني الدمشقي (ت: 1130هـ/1719م). **قطعة في طبقات الصوفية فيها تراجم رجال الشاذلية**، مخطوط رقم 9273 ، ق - ق: 52 - 73. و.
- السمان، سعيد بن محمد (ت: 1172هـ/1758م) **ذيل نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة**، مخطوط مكتبة الأسد، الظاهرية، دمشق، رقم 2416، 26 ورقة.
- الصيداوي، محمد بن حسين الدمشقي الحنفي (كان حيا 1170هـ/1756 م)، **الكشف والبيان عن أوصاف خصال شرار أهل الزمان**، مخطوط رقم 5162 مجموعة الظاهرية، مكتبة الأسد، دمشق.
- الكنجي، محمد بن أحمد (ت: أواخر القرن 12هـ/18م)، **رشف النبيه من ثغر التشبيه**، مخطوط رقم 4677، مكتبة الأسد. دمشق (الظاهرية) ق. ق: 2 - 13ظ.
- النابلسي، عبد الغني بن إسماعيل (ت: 1143هـ/1730م)، **إيضاح الدلالات في سماع الآلات**، مخطوط رقم 3452، مكتبة الأسد، (الظاهرية)، دمشق.

- ـــ، **مجموع فتاوى**، مخطوط رقم 2684، مكتبة الأسد، (الظاهرية)، دمشق.
- مجهــول: **قصيدة في مدح الأركيلة**، مخطوط رقم 6945/3884 الظاهرية، مكتبة الأسد، دمشق، ق34ب، والقصيدة في 28 بيتاً.
- مجهول. **ذكر دمشق الشام**، مخطوط رقم 7369، الظاهرية، مكتبة الأسد.

ثانياً: المصادر المطبوعة

- الأنطاكــي، داود بــن عمــر (1008هــ/1599م)، **تزيين الأسواق في أخبار العشاق**، بيروت، ط1، 1972م.
- الــبدري، أبو البقاء عبدالله بن محمد المصري الدمشقي (ت: 894هــ/1498م) **نــــزهة الأنـــام في محاســـن الشام**، ضبطه وقدم له خيري الذهبـــي، وزارة الثقافة، دمشق، 2008م.
- البديري، أحمد بن بدير الحلاق (ت: بعد 1175هــ/1762م). **حوادث دمشق اليومـــية (1154 - 1175هــ/1741 - 1762م)**، 1959م، تحقيق أحمد عزت عبد الكريم، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، القاهرة، ط1.
- بريك، الخوري ميخائيل (ت: بعد 1197هــ/1782م)، **تاريخ الشام 1720 - 1782م**، 1930 علق عليه قسطنطين الباشا، مطبعة القديس بولس، لبنان، ط1.
- البعلـــي، أبو المواهب بن عبد الباقي الحنبلي (ت: 1126هــ/1714م)، مشيخة أبـــي المواهب الحنبلي، ط1، تحقيق محمد مطيع الحافظ ورياض مراد، دار ابن كثير، دمشق، 1988م.
- الــبغدادي الــباباني، إسماعيل باشا بن أمين بن مير سليم. **إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، د. ط، د. ت، طبعة مصورة دار إحياء التراث العربـــي، بيروت.
- ـــ، **هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين**، د. ط. د. ت. طبعة مصورة دار إحياء التراث العربـــي، بيروت.
- بلـــبل، سعيد بن يحيى (ت: 1378هــ/1958)، **أحكام الذكر والسماع عند الــصوفية**، تحقــيق فــرحان بلبل، ط1، 2002م، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق.

- ابن تيمية، أحمد بن تقي الدين (ت: 728هـ/1323م)، مجموع الفتاوى، 1990م، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد الحنبلي: دار عالم الكتب لطباعة والنشر، بيروت، الرياض.
- الثعالبي، أبو منصور بن إسماعيل النيسابوري، **كتاب فقه اللغة**، طبع بمطبعة الآباء اليسوعيين في بيروت 1885م.
- الجبالي: محمد بن منصور قشور (ت: 1053هـ/1643م) **غُنية ذوي الحاجات في معرفة تقدير النفقات**، تحقيق إبراهيم شبوح، مجلة المنارة: م 11، ع 1، 2005م.
- الجبرتي، عبد الرحمن بن حسن (ت: 1236هـ/1821م)، **تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، د. ط، دار الجيل، بيروت.
- الجزيري، عبد القادر بن محمد (ت: 977هـ/1569م)، **عمدة الصفوة في حلّ القهوة**، تحقيق عبد الله الحبشي، منشورات المجمع الثقافي ط1، أبو ظبي، 1996م.
- حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله الرومي (ت: 1060هـ/1656م)، **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ت.
- الحلبي، إبراهيم، **إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون**، طبعت في القاهرة 1919م.
- ابن الحمصي، أحمد بن محمد الأنصاري (ت: 934هـ/2527م) **حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران**، تحقيق عبد العزيز حرفوش، ط1، دمشق، دار النفائس، 2000م.
- الخفاجي، شهاب الدين أحمد بن عمر (ت: 1069هـ/1658م)، **ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا**، د. ت. تحقيق عبد الفتاح الحلو، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ط1.
- ابن خلدون، ابو زيد عبد الرحمن (ت: 808هـ/1405م) **المقدمة**، 1993م، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1.
- الخليلي، شمس الدين محمد بن محمد (ت: 1147هـ/1734م) **تاريخ القدس والخليل**، تحقيق محمد عدنان البخيت، ونوفان السوارية، مؤسسة الفرقان، لندن، 2004م.

- الخوارزمـــي، ابو عبدالله محمد بن أحمد (ت: 387هـــ/997م)، **مفاتيح العلوم**، تحقيق نهى النجار، دار الفكر، ط1، بيروت، 1993م.
- درافـــيو، لوران. **وصف دمشق في القرن السابع عشر**، ترجمة أحمد أيبش دار المأمون ط1، دمشق 1982م.
- الدمشقي، أبو الفضل جعفر بن علي (من رجال القرن 6هـــ/12م) **الإشارة إلى محاسن التجارة وغشوش المُدلسين فيها**، تحقيق محمود الأرناؤوط، دار صار ط 1، بيروت، 1999م.
- الدمـــشقي، ميخائـــيل (كـــان حـــياً 1841م) **تاريخ حوادث جرت بالشام وســـواحل بـــر الشام والجبل**، تحقيق محمد محافظة، دار ورد، ط 1، عمان، 2004م.
- سامي، عبد الرحمن بيك، **القول الحق في بيروت ودمشق**، دار الرائد العربـــي ط1، بيروت، 1981م.
- السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت: 902هـــ/1497م)، **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**، دار الجيل، ط1، بيروت، 1992م.
- ابـــن السّكيت، أبو يوسف يعقوب ابن إسحاق (ت: 244هـــ/858م)، **كتاب مختـــصر تهـــذيب الألفاظ**، بيروت، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين سنة 1897م، برخصة نظارة المعارف الجليلة في الأستانة.
- ابـــن سلمة، أبو طالب المفضل النحوي اللغوي (ت: 290هـــ/902م) **كتاب الملاهـــي وأسمائها من قبل الموسيقى**، تحقيق وشرح غطاس عبد الملك خشبة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1995م، القاهرة.
- أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي (ت: 665هـــ/1216م) كـــتاب: **الروضـــتين في أخبار الدولتين**، تحقيق محمد أحمد حلمي، القاهرة، 1956 - 1962م.
- الـــشرجي، أحمـــد بـــن أحمد الشرجي الزبيدي (ت: 893هـــ/1575م) **طبقات الخواص أهل الصدق والإخلاص**، دار الكتاب المصري واللبناني، بيروت، د. ت.
- الشوكاني، محمد بن علي (ت: 1250هـــ/1834م). **نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار في شرح منتقى الأخبار**، ط1، د ت، دار الجيل، بيروت.

- شيخ زاده، عبد الرحمن بن محمد(1078هـ/1667م)، **مجمع الأنهر شرح ملتقى الأبحر**، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998م.
- الشيزري، عبد الرحمن بن نصر، (ت: 589هـ/1193م) **نهاية الرتبة في طلب الحسبة**، تحقيق السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت، ط2، 1981م.
- الصيادي، محمد بن عز الدين الدمشقي: **الروضة البهية في فضائل دمشق المحمية**، مطبعة المقتبس، دمشق 1330هـ/1911م.
- ابن طوق، شهاب الدين أحمد بن محمد (ت: 915هـ/1509م)، **التعليق**، يوميات شهاب الدين أحمد بن طوق، مذكرات كتبت بدمشق أواخر العهد المملوكي 885 - 908هـ/1480 - 1502م، تحقيق الشيخ جعفر المهاجر ط1، منشورات المعهد الفرنسي للشرق الأوسط، قسم الدراسات العربية، 3 أجزاء، دمشق، 2002، 2004م.
- ابن طولون، شمس الدين محمد بن علي (ت: 953هـ/1546م) **مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، تاريخ مصر والشام**، جزآن، تحقيق محمد مصطفى1962، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة.
- ــــ، **حوادث دمشق اليومية**، صفحات مفقودة من كتاب مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، تحقيق أحمد إيبش، ط1، 2002م، دار الأوائل، دمشق.
- ــــ، **حارات دمشق القديمة**، في حبيب الزيات، الخزانة الشرقية، ج2، ص ص 22 - 43، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، 1937م.
- ابن عابدين، محمد أمين عمر (ت: 1252هـ/1836م)، **رد المحتار على الدر المختار شرح تنوير الأبصار**، 1990م، دار إحياء التراث العربي، بيروت، نسخة مصورة.
- ابن عبد الهادي، جمال الدين يوسف (ت: 909هـ/1503م) **كتاب الحسبة في تعداد صنّاع دمشق وباعتها في القرن العشرة للهجرة**، الخزانة الشرقية، حبيب الزيات، السنة الأولى الجزء الأول، 1936م، وأعيد نشره في مجلد الخزانة اشرقية، الطبعة 2، مطبعة القديس بولس في حريصا، مكتبة السائح، طرابس، 1999م.
- ــــ، **كتاب عدة الملمات في تعداد الحمامات**، تحقيق، صلاح محمد الخيمي، في رسائل دمشقية، دار ابن كثير، ط 1، دمشق بيروت، 1988م.

- ـــــ، نــزهة الرفاق في شرح الأسواق، في رسائل دمشقية، حققها، صلاح الدين الخيمي، دار ابن كثير ط 1، دمشق، 1988م، ص73.
- العجلــوني، إسماعــيل بن محمد الجراحي الدمشقي (ت: 1162هـ/1749م). كــشف الخفا ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، 2. ح، مؤسسة مناهل العرفان، بيروت د. ت.
- العــدوي، محمــود نور الدين أبو محمد (ت: 1032هـ/1622م)، كتاب الزيارات بدمشق، تحقيق صلاح الدين المنجد، منشورات مجمع اللغة العربية، دمشق، 1956م.
- ابــن عــساكر، أبــي القاسم علي بن الحسن(ت: 571هـ/1176م) تاريخ دمــشق، حطــط دمــشق، تحقيق صلاح الدين المنجد، ط2، المعهد الفرنسي للشرق الأدنى والأمانة العامة لدمشق عاصمة الثقافة العربية: 2008.
- ابن علوان، علي بن عطية بن حسن الحموي (ت: 936هـ/1529م)، نسمات الأسحار في مناقب وكرامات الأولياء الأخيار، تحقيق أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية بيروت، 2001م.
- ـــــ، الــشام أعراســها وفضائل سكناها، تحقيق نشوة علواني، دار الغزالي، دمشق، 1997م.
- الغزالي أبو حامد (ت: 505هـ/1111م) إحياء علوم الدين، لجنة نشر الثقافة الإسلامية 1356هـ/1927م.
- الغــزالي أحمــد بن محمد الطوسي (ت: 520هـ/1126م) بوارق الإلماع في تكفــير من يحرم السماع، تحقيق هشام عبد العزيز، ط1، دار الخيال، القاهرة لندن، 2000م.
- الغزولي، علاء الدين علي بن عبدالله البهائي، مطالع البدور في منازل السرور، ط1، مطــبعة إدارة الوطن، 1300هـ/1883م، النسخة المعتمدة طبعة حجرية مكتبة الجامعة الأردنية.
- الغزي، نجم الدين محمد بن محمد (ت: 1070هـ/1651م). الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة، تحقيق جبرائيل جبور، 3ج، بيروت، 1989م.
- القاري، رسلان بن يحيى (ت: 1132هـ/1719م)، الوزراء الذين حكموا دمشق. 1949م، نشره صلاح الدين المنجد في: ولاة دمشق في العهد العثماني، دمشق.

- القاسمي، محمد سعيد (ت: 1284هـ/1876م)، ومحمد جمال الدين القاسمي (1332هـ/1914م) وخليل العظم (ت: 1345هـ/1926م): **قاموس الصناعات الشامية**، تحقيق، ظافر القاسمي، قاموس الصناعات الشامية، ط1، دار طلاس، دمشق، 1988م.
- ابن قدامه، أبو محمد عبدالله بن أحمد (ت: 620هـ/1223م) **فُتيا في ذم الشبابة والرقص والسماع**، 1976م، تحقيق أبي عبد الرحمن محمد بن عمر الظاهري، مطبعة الجبلاوي، القاهرة.
- القرافي، شهاب الدين أحمد بن إدريس (ت: 684هـ/1285م)، **الفروق ومعه إدرار الشروق على أنواع الفروق**، 1998م، ضبطه خليل منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1.
- القرطبي، أبو عبدالله محمد بن أحمد (ت: 671هـ/1272هـ) **الجامع لأحكام القرآن**، تحقيق هشام الخياط، دار عالم الكتب، 2003م، الرياض.
- القساطلي، نعمان بن عبده (ت: 1338هـ/1920م)، **الروضة الغناء في دمشق الفيحاء** ط1، 1879م، بيروت، والنسخة المعتمدة المحفوظة في مكتبة الجامعة الأردنية، عمان. وهناك مختارات نشرت حديثاً في دمشق من الكتاب، منشورات جريدة البعث والهيئة السورية للكتاب، الكتاب الأول، 2007م.
- ابن القيسراني، محمد بن طاهر المقدسي (ت: 507هـ/1113م)، **كتاب السماع**، تحقيق أبو الوفاء المراغي، 1970م، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة.
- ابن الراعي، محمد بن مصطفى بن خداويردي (ت: 1195هـ/1780م)، **البرق المتألق في محاسن جلق**، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ط1، تحقيق محمد أديب الجادر، 2005م.
- كرد علي، محمد، **خطط الشام**، 6ج، مكتبة النهضة دمشق، 1983م.
- ابن كبريت، محمد بن علي الحسيني الموسوي (ت: 1070هـ/1659م) **رحلة الشتاء والصيف**، تحقيق محمد سعيد الطنطوي، منشورات المكتب الإسلامي، ط2، بيروت، 1969م.

- ابن كنّان، محمد بن عيسى بن محمد الصالحي (ت: 1153هـ/1740م). **الحوادث اليومية من تاريخ أحد عشر وألف ومية**، 1994م، تحقيق أكرم العلبي، دار الطباع، دمشق ط1.
- الكنجي، محمد بن أحمد (ت: أواخر القرن12هـ/18م) **بلوغ المنى في تراجم أهل الغناء**، تحقيق رياض مراد، دار المعرفة، دمشق، 1988م.
- المحبي، محمد أمين (ت: 1111هـ/1699م)، **نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة**، 1969م، تحقيق عبد الفتاح الحلو، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة.
- المرادي، محمد خليل بن علي (ت: 1206هـ/1791م)، **سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر**، 1988م، دار ابن حزم، دار البشائر، 4ج، بيروت، ط3.
- ـــــ، **عرف البشام فيمن ولي فتوى الشام**، ط2، تحقيق محمد مطيع الحافظ ورياض مراد، دار ابن كثير، دمشق، 1988م.
- المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين (ت: 346 هـ/957م) **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، دار المعرفة بيروت، تحقيق عبد الحميد محمد محي الدين، 1948م.
- المقار، محمد بن جمعة (ت: بعد 1156هـ/1743م)، **الباشاة والقضاة**، 1949م، نشره صلاح الدين المنجد في: ولاة دمشق في العهد العثماني: دمشق.
- المقريزي، تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي (ت: 840هـ/1436م)، **السلوك لمعرفة دول الملوك**، 1984م، القاهرة، دار نهضة مصر، ط 1.
- ـــــ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م.
- ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم بن علي (ت: 711هـ/1311م) **لسان العرب** المحيط، 15ج: د. ط، دار صادر، بيروت.
- النعيمي، عبد القادر بن محمد (ت: 927هـ/1520م). **الدارس في تاريخ المدارس**، ط1، تحقيق جعفر الحسيني، 2ج، المجمع العلمي العربي، دمشق، مطبعة الترقي، 1948م.

- الهمـــذاني، عبد الرحمن بن عيسى، **الألفاظ الكتابية**، اعتنى بضبطه وتصحيحه الأب لويس شيخو اليسوعي، ط 8، مطبعة الآباء اليسوعيين 1899م، بيروت، برخصة نظارة المعارف الجليلة في الأستانة العلية.
- الهروي، أبـــي الحسن علي بن أبـــي بكر (ت: 611هـ/1214م) **الإشارات إلى معرفة الزيارات**، تحقيق جان سورديل - طوحين، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق 1953م.
- الهيتمـــي، أبو عباس أحمد بن محمد بن حجر (ت: 974هـ/1566م) **الزواجر عن اقتراف الكبائر، ويليه كف الرعاع عن محرمات اللهو والسماع والعلم بقواطع الإسلام**، دار المعرفة، ط1، 1988م، بيروت.
- ابن واصل، محمد بن سالم نصر الله (ت: 697هـ/1298م) **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب**، تحقيق جمال الدين الشيال: القاهرة، 1953م.
- الـــورثلاني، حـــسين بن محمد(ت : 1193هـ/1779م) **نـــزهة الأنظار في فـــضل علم التاريخ والأخبار**، طبع في مطبعة بيير فونتانا الشرقية في الجزائر، 1908م.
- مجهـــول، **سيرة الملك الظاهر بيبرص حسب الرواية الشامية**، تحقيق جورج يـــوهاس وكاتـــيا زخريا، المعهد الفرنسي للشرق الأدنى، دمشق، ج1 - 7، 2000 - 2007م.
- مجهول، **سيرة الزير سالم حسب إحدى المخطوطات السورية**، المعهد الفرنسي للشرق الأوسط، دمشق، 2005م.

- Russell. Alex. **The Natural-History of Alepoo**,2Vol,2nd,London 1792.
- Voleny, G.F. **Travels Through Egypt and Syria Trans**, New York . 2vol. 1798.
- Jacques Ghislain de Maussion de Favières; **Damascus Baghdad. Capitals and Lands of Caliphs**. Translated From the French by; Edward j Banks. Dar al Mashreq, Beirut 1972.
- Maundrell, Henry: A journey From Aleppo to Jerusalem. In 1697.

ثالثاً: المراجع والدراسات الحديثة

- الأسد، **ناصر الدين، القيان والغناء في العصر الجاهلي**، القاهرة دار المعارف، 1968م.
- أتاسـي، سـراب، **في الحمام مجلات ومناهج بحثية متعددة الاختصاصات في منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط**، مشروع دولي، أويكم دورم، مؤسسة فينا للاستدامة العمرانية، 2008م.
- الأرنـاؤوط، محمد، **معطيات عن دمشق وبلاد الشام الجنوبية في نهاية القرن السادس عشر وقفية سنان باشا**، 1993م، دمشق، دار الحصاد، ط1.
- إيكوشـار ميشيل؛ وكلود لوكور، **حمامات دمشق**، ترجمة، ممدوح الزركلي، ونـزيه الكواكبـي: ج1، مطبوعات نقابة المهندسين، دمشق، 1985م.
- آق قـندوز، أحمد، **التشريع الضريبـي عند العثمانيين**، ترجمة فاضل بيات، منشورات لجنة تاريخ بلاد لشام، عمان، 2004م.
- البارودي، فخري، **مذكرات البارودي**، بيروت - دمشق 1951 - 1952م.
- البحرة، نصر الدين، **دمشق في الأربعينات**، دار البشائر، ط1، دمشق، 2002.
- البخـيت، محمـد عدنان، **العوائد المالية لمقاطعات دمشق الشام على ضوء دفتـرطابو (T.D.472) سنة 977هـ/1569م**، دراسات في تاريخ بلاد الشام، سـوريا ولبـنان، مجلد 3، منشورات المعهد الفرنسي للشرق الأدنى، دمشق، 2008م.
- البكر، محمود، **القهوة العربـي والموروث والأدب الشعبـي**، بيسان للنشر، بيروت، 1955م.
- بياتلـي، قاسـم، **ذاكرة الجسد، في التراث الإسلامي**، دار الكنوز، ط 1، بيروت، 2007م.
- جب، هاملتون. بوون، هارولد. **المجتمع الإسلامي والغرب**، ط1، ترجمة أحمد عـبد الرحيم مصطفى، 2ج، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1990م، ج1، ص217.
- الحسيني، عبدالله، غاية الأمنية في القهوة البنية، القهوة في عيون أهل الاجتماع والأدباء والقانون والشعراء، مكتبة الجيل الواحد، مسقط، 2007م.

- الخطابــــي، أروى، **تجــارة البن اليمني ق11 – 13هــ/17 – 19م** رسالة ماجــستير، جامعة صنعاء، 2004م، نسخة مودعة في مركز إيداع الرسائل في الجامعة الأردنية.
- الخيّر، هاني، **طرائف وصور من تاريخ دمشق**، مؤسسة النوري، دمشق، 1989م.
- رافــق، عــبد الكريم. **بلاد الشام ومصر من 1516 – 1798م**، ط2، دمشق، 1968م.
- رمــضان، محمــد خالد، **الورد في تراثنا الشعبــي**: منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 2006م.
- ريمــون، أندريــه، **القاهــرة تاريخ حاضرة**، ترجمة لطيف فرج، دار الفكر لدراسات والنشر التوزيع، ط1، القاهرة، 1994م.
- ـــــ، **المدن العربية الكبرى في العصر العثماني**، دار الفكر لدراسات والنشر التوزيع، ط1، القاهرة، 1991م.
- زاك، دوروتيه. **تطور وبنيان مدينة مشرقية إسلامية، المعهد الفرنسي للشرق الأدنى**، ترجمة قاسم طوير، مراجعة نــزيه الكواكبــي، ط1، 2005م، دمشق.
- الزواهــرة، تيسير خليل، تاريخ الحياة الاجتماعية في لواء دمشق، من 1255 – 1282هــ/1840 – 1864م، منشورات جامعة مؤتة، الكرك 1995م.
- الــسامرائي، فــراس. التقاليد والعادات الدمشقية خلال عهود السلجوقيين – الزنكيين – الأيوبيين: دار الأوائل، دمشق، 2004م.
- الــسعدي، عباس، **البن في اليمن دراسة جغرافية**، مركز الدراسات البحوث اليمني، صنعاء، 1992م.
- سوفاجيه، جان، **دمشق الشام**، بيروت، 1972م.
- الشهابــي، قتيبة، وأحمد إيبش، **معالم دمشق التاريخية**، وزارة الثقافة، دمشق، 1996م.
- الــصواف، محمــد شريف، **معجم الأسر والأعلام الدمشقية**، بيت احكمة، دمشق، ط 2003م.
- الشطي، شوكت، **نظرات في القهوة والشاي**، مطبعة الجامعة السورية، بدون تاريخ، نسخة مكتبة امعهد الفرنسي بدمشق.

- طـلاس، مـصطفى. **المعجـم الجغـرافي للقطر العربـي السوري**، مركز الدراسات العسكرية، دمشق، 1993م.
- عـبد الـرحيم، ياسين. **موسوعة العامية السورية**، دراسة لغوية نقدية، 4ج، وزارة الثقافة، دمشق، 2003م.
- بنعبد العالي، عبد السلام، **ثقافة الأذن وثقافة العين**. دار توبقال للنشر، الطبعة الثانية، الدار البيضاء، 2008م.
- عـزب، خالد. **تخطيط وعمارة المدن الإسلامية**، سلسلة كتاب الأمة، العدد 58، 1418هـ، الدوحة.
- العطـار، عدنان، **تقاليد الزواج الدمشقي، البدوي والريفي والحضري**، دار سعد الدين، دمشق، بدون تاريخ.
- العظم عبد القادر (جامع)، **الأسرة العظيمة**، 1960م، مطبعة الأندلس، دمشق.
- العـلاف، أحمـد حلمـي، **دمشق في مطلع القرن العشرين**، وزارة الثقافة، دمشق، 1976م.
- العلبـي، أكرم، **خطط** دمشق، دار الطباع، 1989م.
- العلـي، وجـدان، سلـسلة التعـريف بالفن الإسلامي، الأمويون العباسيون الأندلسيون، دار البشير، 1988م.
- الغـضبان، سعد بن خلف، ترياق السمر عند العرب رؤية من زاوية أدبية في القهوة وأدبياتها، الرياض، 1995.
- ظافـر، القاسمي، **الحياة الاجتماعية عند العرب**، دار النفائس، ط، 2، دمشق، 1981.
- فهد، بدري محمد، الحمامات العامة في بغداد في القرن الخامس الهجري، مطبعة الإرشاد 1976م.
- فيـبر، كلود غيغ وغازي بيشه بمشاركة فريدرك إمبر، **رسومات قصير عمره حمـام أموي في البادية الأردنية**، المعهد الفرنسي للشرق الأدنى، عمان بيروت دمشق، 2007م.
- الكـردي، محمد طاهر، **أدبيات الشاي والقهوة والدخان**، الدار السعودية، ط1، جدة، 1984م.

- كـيال، مـنير، **يا شام في التراث الشعبـي الدمشقي**: تنضيد اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1984م.
- ـــ، **محمل الحج الشامي دراسة توثيقية**، وزارة الثقافة، دمشق، 2006م.
- ـــ، الحمامات الدمشقية وتقاليدها، دمشق، 1964م.
- كـوش، دنيس. **مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية**، ترجمة منير السعيداني، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2007م.
- لعيبـي، شاكر، العمارة الذكورية، فن البناء والمعايير الاجتماعية والأخلاقية في العالم العربـي، دار رياض الريس، ط1، بيروت، 2007م.
- مبيضين، مهند، **أهل القلم ودورهم في الحياة الثقافية في مدينة دمشق خلال الفتـرة 1121 - 1172هـ/1708 - 1758م**، منشورات المعهد الفرنسي للـشرق الأدنى، وزارة الخارجـية الفرنسية، قسم الدراسات العربية: دمشق، 2005. ص 193 - 197.
- مخيمـر، صـالح، **المدائح النبوية بين الصرصري والبوصيري**، 1986م، الدار العربية، عمان، ط1.
- الملاح، حسين، **الفتوى نشأتها وأصولها**، 1999م، المكتبة العصرية، بيروت.
- نعيسة، يوسف جميل، مجتمع مدينة دمشق في الفترة ما بين 1186 - 1256هـ/ 1771 - 1840م، 1986م، دار طلاس، 2ج، دمشق، ط1.
- هارون، عبد السلام محمد، **الميسر والأزلام**، دار الفكر العربـي، القاهرة، 1952م.
- يعلي، مصطفى، **القصص الشعبـي دراسة مورفولوجية**، المكتبة الأدبية، ط1، الدار البيضاء، 1999م.

- Bakhit, M.A. The Ottoman Province of Damascus in the Sixteenth Century, Library du Liban. Beirut. 1982.
- Pellitteri, Antonino. **Damasco Bal Profumo** Soave. Sellerio editore Palermo.2004.p19-27.
- Rafeq Abdul-Karim. **The Province of Damascus 1732-1783**, Berouth, 1966.
- Ralph S. Hattox, Coffee and Coffee houses: The Origins of Social Beverage in The Medieval Near East, Seattle, 1985.

- Shrista, Salamandra. Anew Old Damascus Authenticity and Distinction in Urban Syria .Indiana University .2004.
- Schilecher, Linda, Families in Politics Damascus Factions and Estate of the 18th and 19th Centuries, Berlin, 1985.
- Marino, B. Le Faubourg du Midan a Damas a Le'Epoque Ottomane (1742-1830) Institute Francais Arab de Damas. 1997.

رابعاً: الدوريات والأبحاث المنشورة في الكتب والموسوعات

- البحـــرة، نصر الدين، ليالي دمشق في الأربعينات، مجلة التراث العربـــي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق العدد 76، السنة 19 تموز 1999م/ربيع الأول 1420هـــ.
- بهنـــسي، عفيف، العمارة في العهد العثماني، مجلة المعرفة، العدد 541، تشرين أول 2008م، وزارة الثقافة دمشق.
- ديغويلهم، راندي، القهوة في دمشق ورسالة الشيخ جمال الدين القاسمي، ترجمة محمـــد ولـــيد حافظ، مجلة التراث العربـــي، العدد 67، 1997م، دمشق اتحاد الكتاب العرب، أيار 1997م.
- حمارنـــه، نـــشأت، ابن الأكفاني ومؤلفاته، مجلة التراث العربـــي، العدد 98، دمشق اتحاد الكتاب العرب، حزيران، 2005م.
- عبود، حمزة، الليل، ملحق جريدة النهار، بيروت، 18 كانون الثاني 1997م.
- سعادة، جبرائيل، أحمد أبو خليل القبّاني الموسيقي، مجلة التراث العربـــي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق العدد 25 و26، السنة السابعة، تشرين الأول وكانون الثاني "أكتوبر ويناير" 1986 و1987م/صفر وجمادى الأولى 1407هـــ.
- الـــشرمان، علـــي، ثقافـــة الترفيه وأثرها في الموسيقى والغناء العربـــي، مجلة دراســـات العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد 33، العدد 3، 2006م، الجامعة الأردنية.
- صـــويلح، خلـــيل. تيسير السعدي رائد من زمن الراديو وممثل بسبعة أدوار، جريدة الأخبار اللبنانية، العدد 721، 14 كانون الثاني 2009م.
- الكـــيلاني، إبراهيم، مصطلحات تاريخيّة مستعملة في العُصور الثلاثة الأيّوبـــي والمملوكـــي والعـــثمَاني، جمعها وشرح معانيها. مجلة التراث العربـــي، اتحاد

الكتاب العرب، دمشق العدد 49، السنة 13 تشرين الأول "أكتوبر" 1992م/ربيع الآخر 1413هـ.

- ماريـنو، بـريجيت، مقاهي دمشق وأصحابها في القرنيين الثامن عشر والتاسع عشر، مجلة دراسات تاريخية، العددان 79 - 80، كانون أول 2002م.
- مبيضين، مهند، السيرة الشعبية الشامية للظاهر بيبرس، جريدة العرب القطرية، 2008/3/4م.
- محمـود، علـي. الليل في الثقافة المشرقية، مجلة الإبداع، العدد 23، السنة 5، 1973م، ص43.
- المسالة، لما. روائي الزمن الماضي هل يشبه اليوم، جريدة الثورة، 2 تشرين أول 2008م، العدد 13728، ص 7.
- مـشاعل، جمـال، العراضة الدمشقية أهازيج فولكلورية راقصة، مجلة فنون، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، الكويت، آذار 2005م، العدد 51.
- م. لورتيه، ملامح سورية في القرن التاسع عشر القسم الثاني، عرض أحمد عبد الكريم، مجلة التراث العربـي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق العدد 35 و36، السنة التاسعة، رمضان وذي الحجة 1409هـ/نيسان وتموز "أبريل ويوليو" 1989م.

- Barbir, Karl.K Getting and Spending in Eighteenth Century. Damascus. Wealth at Three Social Levels. In: Tamimi.A. Social Dans les Provinces Arabe a le Kogue Ottoman, Tome 3. Zaghoan,1988. Tome. 3. p. p. 61-76.
- Chaudhuri. K.N. art "KAHWA".EI2.Vol .IV , p. p.: 449-45.
- Establet, Cloette et Pascual, Jean-Paul, Café et Objets du café dans les inventaires de pelerins musulmans vers 1700, in: Michel Tuchscherer. le commerce du café avant l´ère des plantations coloniales. Institut francais d´archéolobie orientale 2001, pp. 143-151.
- Geoffry Eric. La diffusion du café au proche-orient arabe par l´intermédiaire des soufis: myth et réalité .cette étude est dans le livre: Michel Tuchscherer. le commerce du café avant l´ère des plantations coloniales. Institut francais d´archéolobie orientale 2001, p. 7-15.

- Hanna. Nelly. Coffee and Merchants in Cairo 1580-1630. in: Michel Tuchscherer. le commerce du café avant l´ère des plantations coloniales. Institut francais d´archéolobie orientale .2001.p. 90-101.
- Keal .Edward j. The Evolution of the Coffee Cups in Yemen. In: Michel Tuchscherer. le commerce du café avant l´ère des plantations coloniales. Institut francais d´archéolobie orientale 2001, p. 35-50.
- Rafeq, Abdul-Karim.The Socioeconomic and Political Implications of the Introduction of Coffee into Syria.16th-18th Centuries. In: Michel Tuchscherer.le commerce du café avant l´ère des plantations coloniales, 2001, p. 127-131.
- Shamir, Shimon. Asa'd Basha Al-azm and Ottoman Rule in Damascus 1743-58."B. S. O. A. S.", Vol. 26,1963, p.p: 1-20.

Abstract

I thank also Dr. Sarab El-Atasi, Professor Jean Paul Bascule, friend Jamal Barout, Mr. Isam Hajjar, Mrs. Lina Khanmeh and Lama Samaan from the French Institute of the Near East in Amman and Aleppo, for their tender welcome and facilitating the researcher's work in Damascus and Aleppo during conduction the study. Thanks to the friend from the staff of The Faculty of Arts in Philadelphia University, professor Salem Sari; Dr. Yosuf Rabab'a; Dr. Haytham Sarhan; Ala'Eddin Abu-Zeineh; professor Mohammes Arna'ot, manager of the Islamic World Studies' Center in the Al-Elbiet University; the artists Ibrahim Al-Ali; Fadi El-Daoud; Ahmad Sweidan and Souzan El-Sayeh for the effort they exerted and the innovative ideas they provided to correct, elaborate and complete this study.

The idea of this book came up after the researcher's publishing of a specialized study about the culture of entertainment in Damascus city during the 18th century in the first issue of The Jordanian Journal of History and Antiquities. New resources became available afterwards, but the study of more than four centuries of the Ottoman rule in Damascus (1516-1918) needed a full time effort and financial costs that wouldn't have been attained without the precious help of the endowment of the Arab Fund for Culture and Arts. The researcher owes the Fund with its entire staff, council of trustees, employees and workers in the Fund's regional headquarters in Amman. Special thanks go to the CEO Mrs. Fairouz Al-Tamimi and her colleagues Mrs. Abir Al-Khatib and Mr. Firas Al-Qudsi. I also thank everyone who exerted help and advice to the researcher needed to achieve this study, especially professor Mohammed Adnan Al-Bakhit, the head of

Bilad El-Sham History Commission; professor Akmal Eddin Ihsan Oglo, the secretary general of the Muslim Conference Organization; Mr. Thabet El-Taher, head of Abdul Hameed Shouman's Organization; Dr. Ali Idi, the manager of Al-Asad Library and professor Mohammed Asfour, Dean of the Faculty of Arts in Philadelphia University.

This study, albeit being close to the field of socio-cultural studies, can not be exclusive enough without containing pictures, maps, paintings and personal interviews where it was possible. The researcher tried, with the assistance of friends and interested people, to provide the reader with these complementary parts.

The Damascene neighborhoods are considered the initial space for pleasure and entertainment. They are the places where the decorating manifestations are exhibited, in their allays and lanes the wedding parades occurred, and in their councils of law judges unfolded the protests for the corruption of manners. Although those neighborhoods lived under the same political and economical conditions, they varied in their narratives and verbal heritage, as well as in their entertainment facilities which may not be studied without exploring their professions and workers, along with the cultural view to the facilities that housed these professions.

The public bathing places *hammamat* that spread in damascene neighborhoods and made a special space for pleasure and entertainment, which made of them a subject for the attention of historians, travelers and *faqihs*. The study examines their structures and parts, their presence in traditional texts, besides their being entertaining facilities with masculine print, though Damascene women found a time dedicated for them alone, which allowed the emergence of special narratives about bathing places by time.

The study examines the notions of coffee and café, and presents the fiqhi controversy about their entry to Damascus in the early times of the Ottoman era. The study traces their construction and structures, with an attempt to explain the moral attitude to the cafes, their arts and culture and types of entertainment they produced.

The study also explores the types of entertainment and pleasure, among which are picnics and journeys, visiting gardens and forbidden pleasures where we find news about prostitutes, drinking and gay relations. This is connected to the Damascene night, which is the store of lover's secrets, the prostitutes, the feasts of celebrities and worshipping of the devout.

This study aims at unveiling the various faces of Damascus city community in the Ottoman times, relaying on a variety of historical resources. Its starts with shedding light on the fiqhi controversy and religious standpoint towards arts, music, dancing and singers' autobiographies in particular. Then, it proceeds to examine the effect of arts in the habits of the Damascenes, where the manifestations of joy and art in weddings, and other celebrations connected to circumcision in both the poor and rich communities. In addition, this study presents a description of the occasions where the city gets decorated.

Among the ancient cosmopolitans, Ottoman Damascus (1516-1918) excels in its liveliness, diversity and connecting with other cosmopolitans and cultural centers. Many Damascene historical resources in the Ottoman times reveal a considerable interest in various genres of arts. The local resources supply us with information about the traditions, means of entertainment and public arts that were practiced in Damascus. The fiqhi resources and daily memoirs, along with autobiographies, records and debates in Damascus also give good signs about the mobility of the Damascene society and the variety of common arts that characterized the community of the Arab city in the Ottoman times in a different picture from the prevailing one.

Building on this Arab tradition, it can be safely said that the Arab culture gave a considerable share to the culture of entertainment in its body of knowledge, in addition to the information produced in indirect sources, such as: autobiographies, yearly and daily memoirs, the books of various schools of *fiqh* (jurisprudence in Islam) in the various historical eras of the Arab cities and cosmopolitan centers. It

can be said here that the big cities with continuous historical and cultural interaction with other cities like Mecca, Damascus, Baghdad, Cairo, Mousil, Tunisia and Fas, all presented the biological arena in which the various sides of the culture of entertainment displayed.

The care for entertainment, singing and news of maids reached its peak in Abu El-Faraj al-Asfahani's monumental work *Al-Aghani* (The Songs). During the 11th and 12th centuries, Abul-Hassan Mohamed Bin Al-Hasani El-Tahhan wrote about music composing, singing and the early female singers in the pre-Islamic period in Arabia. In the 14th century, Mohammed Bin Ibrahim al-Akfani (?-1348) wrote a letter entitled *Al-Nathar Waltahqeek fi Taqleeb El-Raqeeq* (Looking and Investigating of Slave-singers Exchange). Ibn Khaldoun (?-1405) on his part talked about dancing, kinds of entertainment and singing industry, which he considered "the last phase of civilization". In the modern times, the study conducted by Abdul-Salam Mohammed Haroun about gambling and fortunes, the study of Nasser El-Deen El-Asad about songstresses and singing in the pre-Islamic era, both are considered the best efforts exerted in studying the issues of pleasure and entertainment.

The culture of entertainment in Damascus was never cut off its Arabic roots. The Arab culture always cared for this culture by enacting the means of pleasure and entertainment. Books were written on the classes of singers, the news of *Jawari* (slave maids), the music and its instruments. Almofaddal Bin Salamah (?-864) is considered a pioneer in this field. He wrote a book called *Risalah Fil' Oud Walmalahi Wa'Asma iha* "A Letter on Oud, Pleasure Places and their Names" on those issues. Abu Ottman Amro Bin Bahr Al-Jaheth (?-868) also composed a letter on *Qian* (songstresses) and another on the classes of singers. Almasoudi, on his part, touched briefly on the notions of dancing and various types of singing in his book *Morouj al-Thahab* "Plains of Gold".

The travelogue and virtues books depicted a positive image of Damascenes. These books assessed their infatuation with well-being,

spirits of humor and oblivion. They were attributed with these treats of sweetness of speech, tenderness of talk and eloquence by nature.

Travelers and the authors of countries' books regarded Damascus one of the most prestigious places of the *Sham* region, the best of architecture and the purest of air. They elaborated much on the good qualities of its landscape and water, which naturally reflected in the quality of its inhabitants, their shrewdness and tenderness.

The Damascenes paid great attention to the culture of pleasure and entertainment, and cared much for its various facets. They practiced many customs and traditions that took by time to the shape of inherited entertainment rituals and traditions. Women in Damascus also had a significant role in the culture of entertainment. An old Damascene market, *Souq Al-Dhahshah* (the Market of Amazement) was restricted on attendance of women alone where they used to buy their needs of beauty care stuff and make up.



مهند مبيضين، مواليد 1973 مدينة الكرك (جنوب الأردن)
أستاذ مشارك في التاريخ والحضارة/جامعة فيلادلفيا منذ عام 2004، وحتى اليوم.

عمل منذ عام 1996 على دراسة التاريخ الاجتماعي والاقتصادي لتاريخ مدينة دمشق في العصر العثماني، صدر له من البحوث والمؤلفات ومنها.

- أهل القلم في دمشق في النصف الأول من القرن الثامن عشر، منشورات المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق 2005.
- فكرة التاريخ عند العرب في العصر العثماني، دار ورد، عمان 2007.
- الفكر السياسي الإسلامي والإصلاح: التجربتان العثمانية والإيرانية، الدار العربية للعلوم، بيروت 2008.
- مظاهر من الحياة الاقتصادية في دمشق خلال النصف الأول للقرن الثامن عشر/ جامعة دمشق 2008.
- ملامح من الحياة الاقتصادية والاجتماعية في الريف الدمشقي إبان القرن الثامن عشر من خلال المجاميع الفقهية/جامعة دمشق 2008.
- غير المسلمين ومصادر وثائقهم في دمشق خلال النصف الأول من لثامن عشر الميلادي/جامعة القاهرة 2005.
- الإمام والأمير والدولة الحادثة دراسة في التجربة الإصلاحية العربية، محمد بن عبد لوهاب وآل سعود/جامعة القاهرة 2007.
- تطور الفكر الوحدوي عند محب الدين الخطيب دراسة في افتتاحيات جريدة العاصمة ومجلة الفتح/جامعة البحرين 2008.
- كتاب وقف سليمان باشا العظم/جامعة آل البيت 2003.

يكتب في الصحافة الأردنية والعربية، وهو عضو في عدة مراكز بحثية وساهم في تحرير عدة مجلات ثقافية، والآن مدير تحرير مجلة جامعة فيلادلفيا الثقافية.

